

الإيمان في الحياة الإسلامية

د. محمد عبد الله

مكتبة دار الفکر



اهداءات ٢٠٠٢

د/ محمد سيد احمد المسير

القاهرة

الدكتور
محمد رشيد محمد السيد

الأهمية في العقيدة الإسلامية

دار الأحياء

دار الإحياء
للطباعة والنشر والتوزيع
٨ شارع جيسى حجازى - القاهرة
هاتف ٣٥٥١٧٤٨ - ٣٥٤٤٧٤٨ - فاكس ٣٥٤٦٠٣١٠
ص.ب ٤٧٠٠ القنطرة - الرمز البريدى ١١٥١١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله ، وسلام على عباده الذين اصطفى ..
أما بعد :

فالعقيدة الإسلامية هي الدين القيم ، والفطرة التي فطر الله الناس عليها ، وهي في سموها وجلالها وتأخيرها مع العقل ، واستنهاضها لأولى الألباب ، ولفتها الأنظار إلى آيات الأنفس والآفاق .. تعبر بجلاء عن النبوة الخاتمة ، والرسالة العامة التي بعث الله تعالى بها سيدنا محمداً ﷺ رحمة للعالمين ..

إن عالم اليوم الذي تصارعت فيه القوى والمذاهب ، ووصل إلى درجة التشيع المادى الرخيص ، أصبح يتلهف على عقيدة توازن العلم ، وتهب السعادة للنفس الإنسانية ، وتتسامى بعواطف الإنسان وغرائزه إلى آفاق الملأ الأعلى ..

ولن تكون تلك العقيدة إلا عقيدة الإسلام ، الذي ختم الله به الرسالات ، وأتم به النعمة ، ورضيه ديناً إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ..

وفي نور هذه العقيدة تأتي هذه الدراسات « الإلهيات في العقيدة الإسلامية » ، تتوخى صفاء الفهم للقرآن المجيد والسنة المطهرة ، في إطار يقظة الفكر ووعى البصيرة وإخلاص النية ..

وجاءت هذه الدراسات في فصول أربعة على النحو التالي :

الفصل الأول : وجود الله تعالى وتوحيده :

وبدأ هذا الفصل بآيات الأنفس والآفاق - كما حكاه القرآن برهاناً

ساطعاً ، ونوراً ميبناً على قضية القضايا وحقيقة الحقائق والحق الأعلى ،
وسقنا تسعة نماذج هي :

- ١ - أطوار الجنين
- ٢ - أطوار حياة الإنسان .
- ٣ - آية الليل والنهار .
- ٤ - آية الشمس والقمر .
- ٥ - آية النوم .
- ٦ - آية الدواب والطيور .
- ٧ - آية الأرض .
- ٨ - نعمة السماء .
- ٩ - الجبال الراسيات .

ثم تلا ذلك الحديث عن ضرورة الإيمان للحياة في جوانبها العلمية
والنفسية والأخلاقية والتاريخية .. الأمر الذى يؤكد أن الإيمان صوت
الفطرة ، ونداء الواجب ، ومشعل الحضارة ..

ثم حددنا المفهوم الإسلامى للوحدانية كما يلي :

اللَّهُ تعالى واحد فى ذاته ، فلا تعدد فى الآلهة ولا تركيب فى الذات .
واللَّهُ تعالى واحد فى صفاته ، فلا تعدد فى صفة من صفاته ، ولا تشابه
بين صفات الخالق وصفات المخلوق .

واللَّهُ تعالى واحد فى أفعاله ، فلا يقبل المساعدة أو المشاركة أو
المساندة ، وكل ما فى الوجود فهو أثر من آثار قدرة الله وحده .

واللَّهُ تعالى هو وحده المعبود الحق ، فيجب أن يطاع فلا يعصى ، وأن
يشكر فلا يجحد ، وأن يذكر فلا ينسى ، حتى يكون الدين كله لله .

وقد انحرف عن هذا المفهوم الإسلامى ، اليهود والنصارى والمجوس ،
وعباد الأصنام ، والصابئة ، والقائلون بالحللول والاتحاد .

وكانت لنا وقفة مع دلائل التوحيد فى سورة البقرة - كنموذج
لدلائل القرآن - تلك الدلائل التى تخاطب العقل والقلب معاً ، وتناجى
الفطرة فى أعماقها البعيدة ، وتنادى النفس فى خلجاتها القريبة ، وتشهد
الإنسان إلى مظاهر الجلال والكمال والجمال العليا .

ثم عرضنا لجدل المتكلمين والفلاسفة ، وناقشنا دليل الحدوث ، ودليل
الإمكان ، ودليل التوارد والتمانع .

الفصل الثانى : الأسماء والصفات :

ذكرنا فى البداية أهمية الأسماء الحسنى لله تعالى كمعلم هداية ، وموقف حكمة ، ومناط تفكير ، ومجال تأمل فى الدلالة على أكمل الصفات وأجلها وأعلاها لربنا عز شأنه .

ورجحنا أن الأسماء الحسنى لا تنحصر فى عدد ؛ لأن كمالات الله لا تنتهى ، وكان لنا ميل إلى أن الاسم الأعظم ليس لفظاً مخصوصاً ، ولكنه موقف دعاء ينقطع فيه القلب عن الخلق ، ويعظم اتصاله بالملأ الأعلى ، ويقوى الرجاء فى الله وحده .

ثم فصلنا القول فى الصفات الإلهية ، وأكدنا أن العقل والنقل يلتقيان على وجوب صفات الجلال والكمال لله سبحانه ، لكن شطحات الفكر دفعت علماء الكلام إلى جدال طويل حول مباحث لا يدركون كنهها ، ولا يعرفون حقيقتها ، ولا يستطيعون لها حلاً مثل : هل الصفات الإلهية عين الذات أو غير الذات ، أو لا عين ولا غير ؟

وتكلمنا عن التشابهات فى الصفات ، وعرضنا لمذاهب التفويض والتشبيه والتأويل والإثبات بضوابطه ، وانهينا إلى أن المذاهب الاجتهادية فى الصفات مقبولة ، ولا تثقل حرجاً فى الدين ، اللهم إلا مذهب التشبيه ، فإن الأكرم للعقل والأصح فى الدين هو نبذ هذا المذهب ، فإن المشبهة - عند حسن الظن - أغبياء جهلاء ، وعند سوء الظن - عملاء دخلاء !!

وكان لنا وجهة نظر حول الذين يخوضون فى الصفات الخيرية ويجمعونها ويجعلونها محور العقيدة وأساس الدين ، فهؤلاء يفتقدون الحس اللغوى البليغ ، وتنقصهم الخشية من الله تعالى .

* * *

الفصل الثالث : رؤية الله تعالى :

اختلف الفرقاء المسلمون فى رؤية الخلائق لربهم سبحانه وتعالى ، وكان موضع الخلاف ومحل النزاع متعدد الجوانب :

- هل رؤية الله تعالى جائزة عقلاً أو مستحيلة ؟
هذه النقطة تعد مدخلاً أساسياً لفهم نصوص القرآن والسنة ، وبناء
على جواب هذا السؤال يطرح سؤال تالي وهو :
- هل تقع رؤية الخلائق لربهم سبحانه أو لا ؟
لأنه على فرض جواز الرؤية فقد لا تقع ، لأنه ليس كل جائز واقعاً ،
فالواقع يحتاج إلى دليل شرعى يؤكد الوقوع .
ولو سلمنا برؤية الخلائق لربهم سبحانه فإن هناك تساؤلات تتوارد :
مَن يكون الرائي ؟ هل هم المؤمنون فقط ، أو الخلائق أجمعون ؟
وأين تقع الرؤية ؟ هل فى الدنيا والآخرة ، أو فى الآخرة فقط ؟
وإذا وقعت الرؤية فى الدنيا فهل تقع لحظة أو مناماً ؟
وإذا وقعت فى الآخرة فهل تقع فى الجنة فقط أو فى مواقف خاصة
من مواقف الحشر يوم القيامة ؟
هذا هو مجمل الخلاف والبحث .

وقد انتهينا إلى أن الخلاف فى مسألة الرؤية خارج عن دائرة الأصول
التي يعلّق بها الإيمان والكفر ، وأن كل الأدلة - من جانب المثبتين
والنافين - هى أدلة ظنية ، تقوم على الأولى والأرجح والأقرب لفهم
الفرق الجادل ، ولا علاقة لها باليقين الذي هو أساس الإيمان ..
وتفسير النصوص الشرعية بما يؤيد الرؤية أو ينفيها له وجهته الشرعية
واللغوية ، وعملية الترجيح تقوم على التذوق العقلى والحس الدينى ،
وقد نرجح أحياناً جانب النفى ، وقد نميل حيناً إلى جانب الإثبات .

* * *

الفصل الرابع : القضاء والقدر :

تبعنا مادة القضاء والقدر فى البيان القرآنى ، وتكلمنا عن النشأة
التاريخية لهذه القضية على عهد رسول الله ﷺ ، ثم أجملنا القضية فى
أفقيين :

– أفق العلم الإلهي .

– أفق التكليف الإنساني .

وقد حرص البعض على الأفق الأول وغالى فيه حتى نسي صحة التكليف وحتمية المسؤولية ، وجنح البعض إلى الأفق الثاني وركز عليه حتى غفل عن ضرورة إثبات الكمال المطلق لله عز وجل في تصريف الكون والكائنات .

وتبلورت الاتجاهات الفكرية في هذه المذاهب :

الجبرية – القدرية الأولى – المعتزلة – الأشاعرة .

وجاءت خاتمة هذا المبحث بعيدة عن المذاهب ، تؤكد أن الحق أكبر من أن يستوعبه مذهب واحد بعينه ، وأن الذين يتعصبون لأى مذهب بأجمعه إما عامة أو أنصاف علماء .

ورفضنا مذهب الجبر ومذهب القدرية الأولى ، وقلنا : إن أفعال الله تعالى مبنية على الحكمة ، وأن الكون كله قائم على تدبير حكيم ، وأن الإنسان وسط هذا الكون ليس مطلق السراح بل هو محكوم بنواميس ثابتة تحيط به وتقع عليه كالصحة والمرض ، والليل والنهار ، وعمل أجهزة جسمه ، ولا يكلف الإنسان بها ولن يحاسب عليها .

أما التكليف والأمر والنهي ، والشرائع والأحكام فهي وحدها التي يقف الإنسان حيالها مختاراً يفعل ما يشاء بما منحه الله من طاقات وما هيا له من أسباب ، وما مكن له من قوى .

وقد أراد الله للإنسان هذا الموقف وكلفه على أساس منه ، وفي كلا الحالين أمام التكليف الشرعى بالإيمان أو الكفر ، والطاعة أو المعصية لا يخرج الإنسان عن المراد ؛ لأن الله تعالى قد منحه الحرية ولو شاء الله سلبها منه ما منعه أحد ، لكنه جل شأنه لم يشأ للإنسان أن يكون مجبوراً .

وعلم الله الشامل إنكشاف وليس تأثيراً ، فلا يلزم من العلم الأزلى حمل الله الناس : إلى هذا العلم فى مجال التكليف وإلا أصبح إلقاء .

ومقتضى الانكشاف كما يليق بجلال الله وكماله أنه لا يتخلف من حيث هو الكشاف تام ، وليس من حيث إنه حمل على المعلوم .
وأولاً وأخيراً نردد من أعماقنا قول الخليل إبراهيم عليه السلام :
﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ خَيْفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (١) .

أبو حذيفة

د. محمد سيد أحمد المسير	مكة المكرمة في
أستاذ العقيدة والفلسفة - جامعة الأزهر بالقاهرة	١٥ من ذي القعدة ١٤١٨ هـ
وجامعة أم القرى بمكة المكرمة	١٣ من مارس ١٩٩٨ م

* * *

(١) سورة الأنعام الآية ٧٩ .

الفصل الأول

وجود الله تعالى وتوحيده

- آيات الأنفس والآفاق .
- الإيمان ضرورة حياة .
- توحيد الله تعالى .
- جدال في الله .

المبحث الأول

آيات الأنفس والآفاق

- ١ - أطوار الجنين .
- ٢ - أطوار حياة الإنسان .
- ٣ - آية الليل والنهار .
- ٤ - آية الشمس والقمر .
- ٥ - آية النوم .
- ٦ - آية الدواب والطيور .
- ٧ - آية الأرض .
- ٨ - نعمة الماء .
- ٩ - الجبال الراسيات .

آيات الأنفس والآفاق

يحلو للبعض عند مناقشة قضية وجود الله تعالى أن يقول : ابتعد عن الاستشهاد على تلك القضية بنص قرآنى .

وذلك لمزيد من النزاهة والحيدة والعقلانية ، ولما رسخ فى أذهان الكثيرين من التفرقة بين النص الدينى والدليل العقلى ، إذ الأول مبنى على التسليم بلا مرأى ، والثانى مبنى على الجدل والامترأى .

وفى الحق فإن هناك لبساً واضحاً وحلطاً كبيراً بين موقفين :

موقف الكتب المقدسة قديماً ، وموقف القرآن المجيد ، فالكتب المقدسة السابقة اقتصرَت على الترغيب والترهيب والوصايا الأخلاقية واكتفت بالإحالة - فى مجال العقائد - على ما ظهر من المعجزات الحسية للأنبياء الذين بعثوا إلى أقوامهم خاصة . والأمر مختلف تمام الاختلاف بالنسبة للقرآن المجيد ، فهو نفسه المعجزة التى تراءى للعالمين صباح مساء ، تحمل دليلاً معها ، ضرورة أنه الكتاب الخالد للنبي الخاتم .

ومن هنا فإن القرآن كتاب عقيدة وشريعة وليس به قضية بلا برهان ، أو دعوى بلا بينة ، وهو يخاطب العقل ويحتكم إليه فى حال نقائه الفطرى . فالدليل القرآنى المساق تدليلاً على العقائد هو دليل عقلى فى المقام الأول قدم فى ثوب النص الدينى .

واقراً معنى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَاجْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِى تَجْرِى فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَبْتَ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَآئِةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ ^(١) .

(١) سورة البقرة الآية ١٦٤ .

ألم تجمع هذه الآية الكريمة كل براهين العلم ودلائل العقل ؟

هل يعد مثل هذه الآية نصاً دينياً أو دليلاً عقلياً ؟

أليس من الأجدر أن نقول : إن هذا هو القرآن وكفى !!

﴿ .. كِتَابٌ أُخْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾^(١) .

فالعقل والإيمان - فى منطق القرآن - توءمان ، لا يوجد أحدهما إلا بالآخر ، فلا عقل لمن لا دين له ، ولا دين لمن لا عقل له .

لقد ربط القرآن حسن التأمل وجودة الفكر بالعقلاء المؤمنين فقال : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولَى الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا ... ﴾^(٢) .

وفقد العقل أو الإيمان هو فقد للإنسان نفسه ؛ لأنه لم يعد له الوجود المتميز الذى يستحق به التكريم والخلافة فى أرض الله ، ومثل هؤلاء سماهم القرآن شر الدواب لأنهم لم يستخدموا وسائل المعرفة الصحيحة فى الوصول إلى الحق ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الضُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾^(٣) .

وهؤلاء أنفسهم هم الكافرون الذين ستروا الحق وتمردوا على الحقيقة ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾^(٤) .

ومن هنا فنحن نسوق نمطاً من آيات الأنفس والآفاق - كما حكها القرآن - برهاناً ساطعاً ونوراً مبيناً على قضية القضايا ، وحقيقة الحقائق ، والحق الأعلى وهو الله جل شأنه .

* * *

(١) سورة هود الآية . ١ .

(٢) سورة الطلاق الآية . ١٠ .

(٣) سورة الأنعام الآية ٢٢٠ .

(٤) سورة الأنفال الآية ٥٥ .

١ - أطوار الجنين :

إن الإعجاز الخلقى فى الإنسان يفوق كل تصور ، وإن حسم الإنسان عجيب التكوين ، فكم لديه من الأعضاء الداخلية والخارجية !! وكم فيه من الغدد والأغشية !! وكم له من الأجهزة الدقيقة !!

إن بداية الإنسان خلاصة من الأغذية تولدت من التراب والماء مباشرة كالنباتات ، أو بطريق غير مباشر كالأغذية الحيوانية .

هذه الخلاصة من الأغذية تحولت إلى نطفة ، هذه النطفة الخاصة بالرجل تلتقى مع بويضة المرأة وتأخذ طريقها إلى الرحم ، ذلك القرار المكين ، ثم تعلق بالرحم وتعوص فيه .

ثم تنتقل هذه العلقة إلى طور آخر هو المضغة ، وهى فى الأصل قطعة لحم قدر ما يمضغه الإنسان .

وهذه المضغة منها ما هو كامل الخلقة وأملس من العيوب ، ومنها ما هو على عكس ذلك ، ويتبع هذا التفاوت تفاوت الناس فى خلقهم وصورهم ، وتتوالى عناية الله بالجنين فينشئه حلقاً آخر بنفج الروح فيه ، وإبداع ظاهره وباطنه عجائب الخلق وغرائب التدبير فى سرعة نمو مذهلة ، إلى أن تحين لحظة المخاض فيجد الجنين طريقه ميسراً - بقدره الله العلى الأعلى - فتنبض أجهزة الأم وتنبسط ، ويصاحبها إفرازات معينة حتى يستهل الجنين صارخاً على ظهر هذه الأرض .

أليس هذا إبداعاً تتقاصر دونه كل القوى وتقف أمامه كافة العقول فى دهشة وعجب !!

لا نملك إلا أن نقول : فتبارك الله أحسن الخالقين .

وإذا كنا نعجب من أطوار الجنين وهذا الإبداع المتقن ، فإن عجبنا يشتد ودهشتنا تبلغ مداها حين يكون ذلك قرآناً يتلى على سمع الزمن منذ أربعة عشر قرناً من بيئة أمية ، وفى عصر - تلته عصور - ولا معرفة لهم بعلم الأجنة !!

إنه وحى الله رب العالمين .

قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ (١) .

٢ - أطوار حياة الإنسان :

تبدأ حياة الإنسان على ظهر الأرض بمرحلة الطفولة التي توصف بوصف عام هو الضعف ، ضعف الإدراك والسعى ، إلا أن الله جل جلاله غرس فيها آلات العلم وهياً لها أسباب النماء .

قال سبحانه : ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (٢) .

ويستمر نماء الطفل حتى يصل إلى مرحلة الشباب التي تمتاز بالنضارة والقوة ونضج العقل ، وتأتي قمة هذه المرحلة في سن الأربعين ، وهي كمال العقل والرشد والاستواء التام .

قال تعالى : ﴿ .. حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً ﴾ (٣) .

ويعقب ذلك مرحلة الكهولة والشيخوخة ، وهي تنتهي عوداً إلى بدء ، من القوة إلى الضعف ، ومن الرشد إلى نعاس العقل .

وصدق الله حيث يقول : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴾ (٤) .

هذه هي مراحل حياة الإنسان لكن هل يضمن كل امرئ لنفسه أن يمر بها جميعاً !!؟

(١) سورة المؤمنون الآية ١٤٠ .

(٢) سورة النحل الآية : ٧٨ .

(٣) سورة الأحقاف الآية : ١٥ .

(٤) سورة الروم الآية ٥٤ .

كلا .. إن المصير المحتوم - وهو الانتقال من هذه الدنيا - قد يواجه الإنسان طفلاً أو شاباً أو كهلاً أو شيخاً كبيراً ، ولا أحد غير الله يعلم متى يحين الأجل ، وتقف الإنسانية جمعاء حيرى أمام هذا الابتلاء الإلهى ، ونقرأ خاشعين قوله تعالى : ﴿ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ * وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ تَنْظُرُونَ * وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ * فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ * تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (١) .

٣ - آية الليل والنهار :

يَعْمُ الله على الإنسان لا تُعد ولا تُحصى ، وهى لكثرتها ودوامها قد يعفل الإنسان عن تأملها ، فإن العادة تسقط الدهشة .

والعاقل هو من يتذكر دائماً آلاء الله ويتأمل باستمرار ما يحيط به من مظاهر القدرة الإلهية المدعة .

من تلك النعم التى قد ينساها المرء أو يتناساها - تعاقب الليل والنهار ، تلك النعمة التى يتوقف عليها حياة البشر والكائنات .

فقد جعل الله النهار معاشاً نسعى فيه ونجُذ ونحصل أرزاقنا ، وجعل الليل لباساً يسترنا بظلمته حتى نقطع الأعمال ونريح الأبدان ، ونسكن فى هدوء .. وهكذا فى تعاقب مستمر .

ولا أحد كلف نفسه الإجابة عن تساؤل هو :

ماذا يحدث لو أن الحياة بدورها ومستقبلها نهار دائم ١٢

هل يمكن أن يستمر وجود الإنسان ١٢

وماذا يحدث لو أن الحياة كلها ظلام دامس ١٢

هل يمكن أن يسعى الإنسان فى مناكب الأرض ١٢

حول هذه المعانى تأتى آيات من القرآن المجيد تلفت الأنظار إلى تلك النعمة الكبرى فتقول :

(١) سورة الواقعة الآية ٨٣ - ٨٧ .

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَوْ لَيْلًا تَسْمَعُونَ ﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَوْ لَيْلًا تُبْصِرُونَ * وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿^(١) .

ومن عجيب أمر الليل والنهار أنهما يختلفان بالطول والقصر في الأزمنة صيفاً وشتاءً ، ويختلفان بالمواقيت في الأمكنة ، فكل ساعة عيبتها فتلك في موضع من الأرض صبح ، وفي موضع آخر ظهر ، وفي موضع ثالث عصر ، وهكذا .

وصدق الله حيث يقول : ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ ^(٢) .

٤ - آية الشمس والقمر :

إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله ، لا يخضعان لغير إرادته سبحانه ، وهما في نظامهما المحكم لا يتبدلان مادام هذا الوجود ، قال جل شأنه : ﴿ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ ^(٣) .

واقصت حكمة الله أن تكون الشمس نهاراً ، والقمر ليلاً ، ولا أحد غير الله يستطيع تغيير نظام الكون ، وعندما حاح الملك إبراهيم عليه السلام وجرى بينهما حوار عام حول دلائل الألوهية : ﴿ .. قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ... ﴾ عدئذ صاح الملك : ﴿ .. قَالَ أَنَا أَخِي وَأُمِّيْتُ ﴾ ، وأتى برجلين محكوم عليهما بالإعدام فعفا عن أحدهما وأعدم الآخر .

وبداهة هذه صورة باهتة ليس فيها خلق الحياة ، ولا خلق الموت ، وكان الحوار أمام الجماهير الغوغاء وليس من شأنها التأمل والتروى ، فانتقل إبراهيم بسرعة إلى موقف آخر صريح : ﴿ .. قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ

(١) سورة القصص الآية . ٧١ - ٧٣ .

(٢) سورة الفرقان الآية : ٦٢ .

(٣) سورة يس الآية . ٤٠ .

بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١﴾ .

إن الشمس والقمر يرتبط بهما مواقيت الناس في عباداتهم ومعاملاتهم ونعلم بهما عدد السنين والحساب ، قال تعالى : ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴾ ^(٢) : أى بحساب معلوم وتقدير سوى .

وذات يوم انكسفت الشمس على عهد رسول الله ﷺ وصادف ذلك يوم مات ابنه إبراهيم ، فقال الناس : « انكسفت الشمس لموت إبراهيم » أى أنهم ظنوا أن كسوف الشمس في ذلك الوقت لون من ألوان الحداد على موت إبراهيم .

ولكن الرسول الإنسان - وهو في موقفه العصيب - لم ينس واجب الدعوة وضرورة تصحيح المفاهيم فقام مسرعاً يحرر رداءه حتى دخل المسجد وجمع الناس لصلاة جامعة ثم قال : « إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته فإذا رأيتم ذلك فصلوا وادعوا الله حتي ينكشف ما بكم » .

ثم نزل قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ ^(٣) .

٥ - آية النوم :

النوم نعمة أسبغها الله تعالى على خلقه ، تمنح الإنسان طاقة يعاود بها نشاطه ويمارس بها أعماله ، فطبيعة الإنسان أنه يحتاج إلى الراحة ولا يستطيع مواصلة العمل بلا انقطاع ، ومن خلال عرض القرآن لآثار رحمة الله في الكون والكائنات ساق نعمة النوم ممتناً بها على بنى البشر فقال :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ مَتَاعُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ ^(٤) .

فالإنسان ينام ليلاً ونهاراً ، بل إن نوم القيلولة مستحب شرعاً ليستعين به المسلم على قيام الليل لمناجاة ربه ..

(١) سورة النقرة الآية : ٢٥٨ .
(٢) سورة الرحمن الآية ٥ .
(٣) سورة فصلت الآية ٣٧٠ .
(٤) سورة الروم الآية ٢٣٠ .

وهناك من الأعمال مالا ينقطع ليلاً ونهاراً ويتساو به الناس في اليوم واللييلة ، كحراسة الثغور ، وحفظ المرافق العامة وإدارة بعض المنشآت والمصانع ، فمن يعمل ليلاً ينام نهاراً ، ومن يعمل نهاراً ينام ليلاً ..

وقد وصف القرآن المجيد النوم بأنه سبات أى قاطع للأعمال ، مريح للأبدان فقال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِيَاسَا وَالنَّوْمَ سُباتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا ﴾ (١) .

وقال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُباتًا ﴾ (٢) .

وسمى القرآن الكريم النوم وفاة ، ويؤمن أن الله تعالى يقبض الأرواح عند النوم وعند الموت ، لكن الروح تعود لكامل تعلقها بالبدن عند اليقظة ، وتظل في عالم البرزخ بعد الموت .. فقال تعالى : ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٣) .

فالنوم أخو الموت ، واليقظة تشبه البعث ، وتلك آية متكررة تنبه الإنسان إلى حقيقة وجوده ، وضرورة الاستعداد للقاء الله ، والحرص على الاستقامة والطهر حتى يبعث مع السعداء في الجنة خالدين فيها أبداً .. قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (٤) .

ولهذا علمنا الرسول ﷺ أدب النوم وأدب اليقظة . ففي الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « إذا جاء أحدكم فراشه فلينفذه بصنفة (٥) توبه ثلاث مرات وليقل : باسمك ربي وضعت جنبي وبك أرفعه ، إن أمسكت نفسي فاغفر لها وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين » .

وفي الصحيح أيضاً عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال ، قال رسول الله

(١) سورة الفرقان الآية : ٤٧ . (٢) سورة النبا الآية : ٩ .
(٣) سورة الرمر الآية ٤٢ . (٤) سورة الأنعام الآية : ٦٠ .
(٥) الصنفة بفتح الصاد المهملة وكسر الهمزة وفتح الفاء طرف الثوب .

ﷺ : « إِدْ أَتَيْتَ مُضْجِعَكَ فَتَوَضَّأَ وَضُوعَكَ لِلصَّلَاةِ ثُمَّ اضْجَعْ عَلَى شِقِّكَ الْأَيْمَنِ ثُمَّ قُلْ : اَللّٰهُمَّ اَسْلَمْتُ وَجْهِيْ اِلَيْكَ ، وَفَوَضْتُ اَمْرِيْ اِلَيْكَ ، وَالْحَاتُ ظَهْرِيْ اِلَيْكَ رَغْبَةً وَرَهْبَةً اِلَيْكَ ، لَا مَلْجَأَ وَلَا مَنْجىَ مِنْكَ اِلَّا اِلَيْكَ ، اَمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِى اَنْزَلْتَ ، وَبِنَبِيِّكَ الَّذِى اَرْسَلْتَ ، فَاِنْ مِتَ مِنْ لَيْلَتِكَ فَانْتِ عَلَى الْفِطْرَةِ ، وَاجْعَلْهُنَّ آخِرَ مَا تَتَكَلَّمُ بِهِ » .

أما دعاء الاستيقاظ من النوم فهو كما فى صحيح البخارى : « الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور » ..

وخلال النوم يتراءى للإنسان عالم فسيح يتخطى حجب الزمان والمكان ، ويلتقى فيه الماضى والحاضر والمستقبل ، وقد يشف عن بشائر من وراء العيب ، وتظهر حقائق من الملأ الأعلى ..

ذلك العالم هو عالم الرؤى والأحلام ، وقد قال رسول الله ﷺ : « أصدقكم رؤيا أصدقكم حديثاً ، ورؤيا المسلم جزء من خمس وأربعين جزءاً من النبوة ، والرؤيا ثلاثة : رؤيا الصالحة بشرى من الله ، ورؤيا تحزين من الشيطان ، ورؤيا مما يحدث المرء نفسه ، فإن رأى أحدكم ما يكره فليقم وليصل ولا يحدث بها الناس » .

وقد قامت دراسات وبحوث حول النوم والأحلام ، والشعور واللاشعور ، والباطن والظاهر ، والنفس والروح .. إلخ .

وكلها تدفعنا إلى اليقين بأن الله هو الخالق المدبر ، بيدع ما نبصر وما لا نبصر ، ويخلق ما قد نعرف أسرارهِ ونواميسهِ وما قد نقف أمامهِ حيارى .. !!

٦ - آية الدواب والطيور

خلق الله تعالى الدواب والطيور لحكم جليلة ومنافع عظيمة ، لو تأملها الإنسان لخر ساجداً لله ، مقرأً بربوبيته ، خاضعاً لألوهيته ، خاشعاً لقداسته .. فالدواب والأنعام والطيور^(١) مسخرة للإنسان رغم كبرها أو صغرها ، وقربها أو بعدها ، وقوتها أو ضعفها .

(١) الدواب ما يدب على الأرض ، قيل ماعدا الإنسان والطيور ، والأنعام هى الإبل والبقر والغنم والمعز .

وجعلها القرآن آية وبرهاناً على كمال القدرة الإلهية فقال : ﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ . وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ . وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ ﴾ ^(١) .

وجعلها نعمة تستحق الشكر وتستوجب الطاعة لله فقال : ﴿ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ . لَيْسَتْ عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ . وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ﴾ ^(٢) .

ودعا القرآن إلى التأمل فيها والبحث عن أسرارها فقال : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا الرِّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴾ ^(٣) . وقال : ﴿ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾ ^(٤) .

ثم سلك القرآن هذه الدواب والأعنام والطيور مع منظومة الكون كله في تسييح خاشع للحالق الأعظم ، وسجود مطلق للبارئ المصور ، وانقياد كامل لله رب العالمين . ولم يتبد عن هذه المنظومة القدسية إلا الإنسان الظلوم الجهول الذي خان الأمانة ونقص العهد .. قال تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقٌّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ ^(٥) .

وقال جل شأنه : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ ^(٦) .

(١) سورة غافر الآيات ٧٩ - ٨١ .

(٢) سورة الرحمن الآيات ١٢٠ - ١٤ .

(٣) سورة الملك الآية ١٩ .

(٤) سورة العنكبوت الآية ١٧ .

(٥) سورة الحج الآية ١٨ .

(٦) سورة النور الآية ٤١ .

واللعماء وجهان في فاعل « علم » . هما :

١ - علم (الله) صلاته وتسبيحه : أى أن الله يعلم صلاة وتسبيح كل شىء .

٢ - علم (هو) والضمير يعود على كل : أى علم كل من في السموات والأرض والطير كيف يصلى ويسبح لله سبحانه وتعالى .

كما أن للعلماء رأيين في معنى التسبيح هما .

١ - التسبيح المقالى : أى أن لهذه الكائنات تسبيحاً ودعاءً بلغة خاصة بها ، الله يعلمها .

٢ - التسبيح الحالى : أى أن هذه الكائنات دالة على تسبيح الله وتنزيهه ، وهى خاضعة خضوعاً مطلقاً لإرادة الله ومشيتته ولا تملك الخروج عن قصته وحكمته سبحانه .

وساق القرآن موقفاً إحصازياً على عهد سليمان بن داود عليهما السلام ، حين وقف الهدهد غير بعيد ، وأحبر سليمان بما غاب عنه وخصى عليه من نبأ ساء ، وتعجب الهدهد عما شديداً من أمر عقيدتهم الفاسدة وسياستهم الخاطئة فقال : ﴿ إِنِّى وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ . وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ . أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِى يَخْرِجُ الْحَبَّ مِنَ الْقَبْأِ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ . اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ (١) .

كما ساق القرآن موقفاً بالغ التحدى ارتبط بأضعف المخلوقات ، وهو الذناب ، وذلك حين دعا الآلهة المزعومة وعبادها الجهلاء أن يحلقوا ذباباً أو أن يستردوا ما يسلبه الذناب منهم ..

قال جل شأنه . ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاستَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لَا يَسْتَفِيدُوا مِنْهُ ضَعْفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ ﴾ (٢) .

(١) سورة النمل الآيات ٢٤ - ٢٦ . (٢) سورة الحج الآية ٧٣ .

هذا وقد تحدث القرآن كثيراً عن منافع الدواب والأنعام والطيور في السلم والحرب ، في الحضر والسفر ، في الرخاء والشدة .

لقد أحل الله لحوم الأنعام وشحومها ، فقال : ﴿ .. أَحَلَّتْ لَكُمْ بِهِمَةَ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ ... ﴾ (١) .

وأخرج لنا ألباناً عذبة المذاق ، شهية الطعم ، غنية الفائدة فقال : ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ ﴾ (٢) .

وجعل من رحيق النحل شفاء وغذاء ، فقال : ﴿ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ * ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٣) .

وهياً الله لنا من الجلود والأصواف الدفاء والجمال ، فقال : ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْتَارُهَا وَأَشْعَارُهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ ﴾ (٤) .

وذلل الله الخيل في ميدان القتال ، والحمير والبغال والإبل لحمل الأثقال ، والكلاب للصيد في الفياض والخلاء .

فمن الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ١٩

ومن الذي أبدع الكائنات ونوعها ١٩

ومن الذي ألهم المخلوقات وسخرها ١٩

ومن الذي أحصى كل شيء عددا ١٩

إنه الله الواحد القهار .

(١) سورة المائدة الآية : ١ .

(٢) سورة النحل الآية . ٦٦ ، والفرث ما في كرش الحيوان من فضلات الطعام .

(٣) سورة النحل الآية - ٦٨ ، ٦٩ .

(٤) سورة النحل الآية . ٨٠ .

٧ - آية الأرض :

وحه القرآن بصائر دوى التمييز إلى بداية الخلق للأرض والسماء ، ونشأة الكون فقال : ﴿ أَوْ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ كُلِّ شَيْءٍ حَيًّا أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾ ^(١) .

وذكر القرآن مراحل الخلق وجعلها ثلاثاً متساوية فى الزمن :

- ١ - مرحلة خلق الأرض فى يومين .
- ٢ - مرحلة خلق الكائنات ونهضة الكون لحياة البشر فى يومين .
- ٣ - مرحلة خلق السماء والملكوت الأعلى فى يومين .

قال تعالى : ﴿ قُلْ أَنتَ كُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِى مِنْ تَحْتِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِى أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً ^(٢) لِلنَّاسِ لِيَوْمٍ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ فَفَضَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحٍ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ ^(٣) .

وأشار القرآن إلى تشابه خلق الأرض والسماء ، فقال : ﴿ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ... ﴾ ^(٤) .

وهذه الإشارات القرآنية تفتح آفاقاً واسعة أمام البحث العلمى ، والدراسات الكونية التى تنقب عن نشأة الكون وبداية الخلق وأسرار الطبيعة ، وبواميس الكائنات .

فما المقدار الزمنى لليومين ؟

-
- (١) سورة الأنبياء الآية : ٣٠ .
 - (٢) سواء أى تحت عملية الخلق فى أربعة أيام كاملة مستوية ، وقوله للسائلين . أى هذا الجواب لأجل من سأل فى كم خلقت الأرض وما عليها ؟
 - (٣) سورة فصلت الآيات : ٩ - ١٢ .
 - (٤) سورة الطلاق الآية : ١٢ .

وكيف انفصلت الأرض عن السماء ؟

وما مفهوم متلية الأرض للسماء ؟

وكيف تهيأت الأرض لسكنى البشر ؟

تساؤلات لم يقطع العلم بالجواب عنها ، وسيظل يواصل مسيرة بحثه جيلاً بعد جيل ، ولن يعرف الكلمة الأخيرة .

والإنسان فى وجوده على ظهر هذه الأرض ليس هو الأول ، وليس هو الآخر ، بل سقته أجيال وكائنات ، ويلحق به أجيال وكائنات ، يخلف بعضهم بعضاً فى حركة دائمة لا تعرف الانقطاع حتى يأتى وعد الله ، ويجمع الله الأولين والآخرين لميقات يوم معلوم .

وهذا الاستخلاف المتوالى قد يكون نتيجة سنة إلهية كونية هى الموت ، أو نتيجة سنة إلهية عقابية هى عذاب الاستعصال الذى يلاحق المستكبرين الطغاة .

وقد وصف القرآن الكريم البشر بأنهم خلائف فقال : ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (١) .

وأكد القرآن الكريم ضرورة أخذ العبرة من التاريخ ، فقال : ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ۚ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ (٢) .

وأعلى القرآن الكريم الحقيقة الكاملة وهى أن البداية من الله ، وأن النهاية إلى الله ، وأن الكون بأجمعه والكائنات كلها تبنى ، وأن البقاء الحقيقى المطلق إنما هو لله وحده ، فقال : ﴿ .. وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ (٣) .

(١) سورة الأنعام الآية ١٦٥ .

(٢) سورة يونس الآيات ١٣ ، ١٤ .

(٣) سورة آل عمران الآية ١٨٠ .

﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾^(١) .

إن الأرض وضعها الله لخلقه ، وجعلها ذلولاً هيبة صالحة لاستقرار الشر واستمرار حياتهم ، ومهدّها تمهيداً طيباً مباركاً موائماً لمصالح الأحياء ، وهى وعاء ومهاد وفرّاش بضم هؤلاء الأحياء أثناء حياتهم وبعد مماتهم ، فهى المستقر والمستودع .. قال تعالى : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ۚ أَحْيَاءَ وَأَمْوَاتًا ﴾^(٢) .

إن هذه الآية الكبرى لم تكن مصادفة ولا عبثاً ، وإنما هى تدبير العليم الحكيم ، والذين يحاولون تشويه الفطرة والانحراف بالبحث العلمى ويطلقون دعاوى كاذبة حول بدء الخلق وتفسير الحياة بمفهوم مادى - هؤلاء يحددون أنفسهم أولاً ، ويظلمون العلم ثانياً ، ويضللون البشر ثالثاً ، ويقعون فى خطأ عقدي وفكري لا حصر لها .

قال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴾^(٣) .

وقال جل شأنه : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ۚ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾^(٤) .

ويأتى السؤال الأهم ، ويقترن به صوت الفطرة ينادى بالجواب الصحيح : ﴿ قُلْ لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ۚ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾^(٥) .

٨ - نعمة الماء :

الماء عنصر ضرورى لكل كائن حى ، وقدرة الله فائقة فى تيسيره لبني

(١) سورة القصص الآية ٨٨ .

(٢) سورة المرسلات الآيات ٢٥ ، ٢٦ .

(٣) سورة ص ، الآية : ٢٧ .

(٤) سورة الدخان الآيات ٣٧ ، ٣٨ .

(٥) سورة المؤمنون الآيات ٨٤ ، ٨٥ .

الإسان ، فالماء يتبخر من البحار والمحيطات ، ويتصاعد فى أجواء الفضاء فتحمله السحب ، ويسطره الله فى السماء كيف يشاء فيصيب به من يشاء ، ويصرفه عمن يشاء .

وقد أطلق على السحاب فى القرآن الكريم لفظ السماء ، وهى كل ماعلاك ، قال جل جلاله : ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا ... ﴾ ^(١) ، كما أطلق عليه لفظ المعصرات وهى السحاب المحملة بالماء تعصر فيخرج منها الماء ، قال سبحانه : ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ﴾ ^(٢) .

وقد اقتضت حكمة الله تعالى أن ماء المطر لا يضيع لوقته ، ولا يذهب سدى ، وإنما قدرة الله سلكته ينابيع فى الأرض ، وهى العيون والجارى المائية حتى ينتفع به الناس على مدار حياتهم .

كما شاعت إرادة الله أن ينزل الماء بقدر حاجة البشر لا بزيادة فيحصل الطوفان ، وبلا نقص فيحصل القحط العام ، قال تعالى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَكَاهُ فِي الْأَرْضِ ... ﴾ ^(٣) .

لكن لتذكر دائماً أن القادر على المنح قادر على المنع ، وأن توافر النعمة لا يحول دون سلبها متى توجهت الإرادة الإلهية ، ولهذا قال جل شأنه فى ختام الآية السابقة : ﴿ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴾ .

وفى تعجب عجيب يوجه القرآن المجيد تساؤلاً لبنى البشر هو : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ ﴾ ^(٤) بدهة لا تملك إلا أن نقول : الله رب العالمين .

إن من مظاهر نعمة الله فى الماء أنه يصادف الأرض القاحلة الجرداء فتتحول بقدرة الله المبدعة إلى أنواع شتى من النباتات ، مختلفة الأشكال والأحجام ،

(١) سورة ق ، الآية : ٩ .

(٢) سورة النبا الآية : ١٤ .

(٣) سورة المؤمنون الآية : ١٨ .

(٤) سورة الملك الآية : ٣٠ .

والطعوم ، والروائح ، قال جل ذكره : ﴿ وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَبَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَيْتُونٌ وَنَخِيلٌ صِنَوَانٌ وَغَيْرُ صِنَوَانٍ يُشْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفْضِلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (١) .

لقد نبه القرآن الكريم إلى ضرورة التأمل في هذه الظاهرة وجعلها دليلاً على قدرة الله على بعث الإنسان من قبره ، وقيامته للحساب والجزاء ، وأطلق القرآن على الأرض قبل نزول المطر أوصافاً معبرة :

وهي أرض هامدة ، لا حراك فيها ، فإذا هطل المطر تحركت ، فانشقت الأرض وخرج النبات ، وعلت الخضرة ، وتنوعت البركات ، ونشطت الزراعة والتجارة والصناعة ، وكثر سعي الناس .

قال تعالى : ﴿ .. وَتَوَّى الْأَرْضُ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَبْتَسَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُخَيِّ الْمَوْتَى وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴾ (٢) .

وهي أرض ميتة ، لا حياة فيها أو عليها ، فإذا نزل الماء تكاثرت الأحياء النباتية والحيوانية والإنسانية ، فالنبات أنواع شتى ، والكائنات الحية تتحرك في خوف الأرض وعلى ظهرها ، والإنسان يجد ما به حياته من المأكول والمشرب والمأوى .. فالحياة كلها مرتبطة بالماء .

قال تعالى : ﴿ وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيِّتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ * وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ * لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ (٣) .

وهي أرض خاشعة ، ساكنة ، لا شيء يتحرك فوقها ، ولا شيء يهتز في

(١) سورة الرعد الآية : ٤ .

(٢) سورة الحج الآيات ٦ ، ٧ .

(٣) سورة يس الآيات ٣٣ - ٣٥ .

جناتها ، وكل ما يحيط بالإنسان ساكن لا تسمع له همساً .. فإذا حاء المطر وسالت الأودية بدأ كل شيء يخرج عن سكونه ، ويظهر آثار وجوده ، ويتقلب ذات اليمين وذات الشمال ، وتسمع هدير الماء وتعيد الطيور وخفيف الأشجار ، وأصوات جميع الكائنات ، فالكل فى حركة ونشاط وتكاثر .

قال تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْتَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أُخْضِيَ لَمْخِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (١) .

وهى أرض جرز ، حلت من النبات ، وأصبحت جرداء قاحلة ، فإذا وصلها الماء وتغلغل فى أحشائها أثمرت من كل زوج بهيج ، وتجمع فيها الناس وتقاطر عليها الدواب والأنعام ، وقام العمران البشرى ، وشيدت الحضارة ، وانتفع الجميع بآثار رحمة الله .

قال تعالى : ﴿ أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴾ (٢) .

هذا ومن دلائل نعمة الماء على قدرة المولى العظيمة أننا نجد بين جنبات الأرض أنهاراً عذبة وبحاراً ملحة ، وقد يكونان متجاورين متلاقين ، لا فصل بين المائين فى رأى العين ، ومع ذلك لا يتمازجان ، ويبقى لكل منهما خصائصه ومميزاته .

قال تعالى : ﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ ﴾ (٣) .

ومن تمام النعمة أن هذه المجارى المائية تحوى تروات ضخمة ، معدنية وحيوانية ، عبر عنها القرآن المجيد بقوله : ﴿ وَمَا يَشْتَرِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٍ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا يَمْلَحُ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاجِرَ لَبَسْتُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (٤) .

(١) سورة فصلت الآية : ٣٩ .

(٢) سورة السجدة الآية : ٢٧ .

(٣) سورة الرحمن الآية : ١٩ .

(٤) سورة فاطر الآية : ١٢٠ .

ولعل السر في ملوحة البحار والمحيطات أنها ساكنة ، غير متجددة كالأنهار ،
فلو كانت عذبة لفسدت على مدى الزمن ، وفسد الوجود تبعاً لها ، هواء وحيوانا .
لكنها حكمة الله وقدرته !!

٩ - الجبال الراسيات :

يولد الإنسان على الأرض ، ويعيش على ظهرها ، ويدفن في جوفها ..
ولا يدري كيف تهيأت له سكناً وسعياً !!؟

ولا كيف مهدت له هذا التمهيد الموائم لمصلحته والموافق لطبائعه ومعابته ؟
إن من المعلوم جغرافياً أن اليابسة تمثل نسبة صغيرة من حجم الكرة الأرضية
التي تسبح في بحيرة مائية عاتية .

ولو تركت وشأنها لتأرجحت ، ولما استطاع الكائن الحي أن يستقر عليها .
ولكن حكمة الخلق وإبداع الصنع اقتضى أن تكون الجبال الراسيات أوتاداً
للأرض حتى لا تضطرب بمن عليها .

وقد عبر القرآن العظيم عن هذا المعنى بأكثر من أسلوب بياني معجز .
قال الله تعالى : ﴿ وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ ... ﴾ ^(١) .
أي خلق على الأرض جبلاً ثوابت لئلا تضطرب ولا تصلح حيث لا سكنى بنى
البشر .

وقال سبحانه في معرض الامتنان على خلقه : ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ
شَامِخَاتٍ ﴾ ^(٢) .

أي جعل في الأرض جبلاً لها قمم عالية وارتفاعات شاهقة حتى تثبت على
الأرض وتثبتها .

ومن المعروف جيولوجياً أن الجبال مكن المعادن والثروات الطبيعية ، وقد أشار
القرآن المجيد إلى ذلك فقال :

(١) سورة السجدة الآية . ١٥ . (٢) سورة المرسلات الآية ٢٧ .

﴿ .. وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٍ ﴾^(١) .

الجدد جمع جدة - بالضم - وهى الطريقة ، والغرايب جمع غريب - على وزن قنديل - وهو الأسود الخالك السواد .

والجبال قد خلقت مختلفة الألوان ، بل إن اللون الواحد فى بعضها قد تتخلله ألوان مغايرة ، فهذا التباين فى الألوان هو نابع من تباين الطبيعة الصخرية للجبال ، ومن تباين المعادن المتراكمة عليها .

أفلا تستحق هذه الشوامخ التى تطل علينا ، نظرة تأمل ، ووقفه عبرة فى إطار الكون البديع ١٩ ؟

هل وُجدت هذه الشوامخ مصادفة ومن غير حكمة ١٩ ؟

ومن الذى استودعها هذه الحيرات التى تتجلى عبر القرون والأجيال ١٩ ؟

إن النظرة الدقيقة الفاحصة تصل بالإنسان العاقل إلى أن الجبال أثر من آثار القدرة الإلهية المبدعة ﴿ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ .

وصدق الله حيث يقول : ﴿ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾^(٢) ١٩ ؟

ولعل السر فى الجمع بين الإبل والسماء ، والجبال والأرض هو التقاط صورة للكون بأجمعه أمام العربى فى باديته حين نزل القرآن ، فالعربى يرعى إبله التى تمثل ثروته الأساسية ، فى بطون أودية الجبال ، والسماء فوقه ، والأرض تحته ، وعلى مدى البصر .

وهذه الصورة للكون بأجمعه تتراءى بلفظها أو معناها للإنسان فى كل زمان ومكان ، تدعوه إلى نظر الاعتبار والتعجب .

* * *

(١) سورة فاطر الآية ٢٧٠ .

(٢) سورة الفاشية الآيات ١٧ - ٢٠ .

المبحث الثانى

الإيمان ضرورة حياة

- * الإيمان ضرورة علمية .
- * الإيمان ضرورة نفسية .
- * الإيمان ضرورة أخلاقية .
- * الإيمان ضرورة تاريخية .
- * تنبيه وتقرير .

الإيمان ضرورة حياة

(١) الإيمان ضرورة علمية :

هناك شبه أسطورة تقول : إن الدين والعلم نقيضان ، وقد تكونت تلك الأسطورة منذ عصر النهضة في أوروبا بعد أن قاسى البحث العلمى من عوامل التدمير ومعاول الهدم على أيدي رجال الكنيسة الذين أزهدوا الأرواح ، ونكلوا بالعلماء في صورة من الوحشية والقسوة باسم الكنيسة والمسيحية .
ومن الأمثلة على ذلك ^(١) :

١ - كوبر نيكوس :

عاش داخل الكنيسة احتيالا على رجالها حتى يستطيع دراسة العلوم ، لأن التعليم كان مقصوراً على طبقة الكهان .

وقد تفرغ لدراسة علم الفلك بعد أن اعتاد أن يتسلق سور الكنيسة ليلاً لمواصلة بحثه الذي انتهى بأن الأرض تدور حول الشمس ، وأن حركة النجوم حول الأرض حركة ظاهرية يمكن تفسيرها بدوران الأرض حول محورها مرة كل يوم .

وحين توصل إلى هذه النتيجة كان قد بلغ سن الأربعين ، وظل محتفظاً باكتشافاته خوفاً من غضب رجال الكنيسة ، ولم يبح بها إلا لفئة قليلة ومن أخلص أصدقائه ، وقبل وفاته قرر أن يعلن كتاباته ، فظهر كتابه عام ١٥٤٣م وهو العام الذي مات فيه ، وظلت الكنيسة تطارد كتبه بعد ذلك وتصادرها .

٢ - برونو :

كان قسيساً وقام بدور مهم في دراسة علم الفلك سراً في صومعته ، ولكن

(١) راجع كتاب « نافذة على الكون » د. امام إبراهيم أحمد ص ٤٤ - ٥٢ ، ط دار القلم سنة ١٩٦٥م .

أمره وصل إلى رؤسائه فهددوه بأشد العقاب ، فاضطر إلى الهرب من وطنه إيطاليا إلى سويسرا ، واعتبرته الكنيسة عدوها الأول ، وظلت تطارده حتى ألقى القبض عليه وأودع السجن ثماني سنوات عسى أن يرجع عن رأيه ، وأخيراً أعدم حرقاً في روما عام ١٦٠٠ م .

٣ - جاليليو :

أول من استخدم المنظار لدراسة الأجرام السماوية ، واكتشف مجموعة من الكواكب ، الأمر الذى أثار عليه غضب رجال الكنيسة الذين أرسلوه إلى روما لمحاكمته ، وتحت تأثير التعذيب تراجع عن آرائه وأعلن ذلك أمام جمهرة كبيرة فى الكنيسة .. ومع ذلك ظل سجيناً لا يتحدث إلى أحد حتى مات عام ١٦٤٢ م .

* * *

وحسب القارئ لهذه الفترة أن يصدم بصكوك الغفران ، ومحاكم التفتيش ليرى كيف كانت الكنيسة حجرة عثرة فى سبيل التقدم العلمى .
ومن هنا انطلق الباحثون فى شبه بليلة فكرية إلى إنكار مباحث الألوهية والقول بأن الكون يقوم وحده .

غير أن الحقيقة الضائعة هنا أن هؤلاء الباحثين لم يستطيعوا التفرقة بين الدين كرسالة إلهية سامية ورجال الكنيسة كبشر ، فتكونت عقدة نفسية لدى الباحثين استحكمت حلقاتها .

حتى إن الفيلسوف الفرنسى جان حاك روسو (١٧١٢ - ١٧٧٨ م) يقسم المسيحية إلى قسمين ^(١) :

١ - مسيحية الإنجيل .

٢ - مسيحية القساوسة .

ويعتقد أن المسيحية الأولى ليست مملكتها فى هذا العالم ، وهى تشر بالعبودية

(١) راجع كتاب العقد الاجتماعى ترجمة عادل رعبتر أو عبد الكريم أحمد

والطاعة ، وروحها ملائمة للطغيان ، فإن استطاع طاغية أن يفرض نفسه على مواطنيه ويستولى على السلطة فسرعان ما يصير موضع تكريم ، لأنه إرادة الله ، وإذا أساء الحاكم فى تصرفاته نظر إليه باعتباره العصا التى يعاقب بها الرب عباده .

والجندي المسيحى يعرف كيف يموت أكثر مما يعرف كيف ينتصر ، وما يقال عن انتصارات الصليبيين لا ينسب إلى المسيحيين الحقيقيين بالمعنى الحرفى .

فالإنجيل لا يؤسس دولة ، والمسيحيون الحقيقيون خلقوا ليكونوا عبيداً ، وكل حرب مقدسة عند البصارى تكون مستحيلة ، لأن استعمال العنف وسفك الدماء لا يتفق مع الوداعة المسيحية .

وأما مسيحية القساوسة فتعطى للناس تشريعين ورئيسين ووطنين ، أحدهما دينى والآخر مدنى ، وتخضعهم لواجبات متناقضة ، وتقوم على أكاذيب تخدع الناس وتجعلهم بلهاء يؤمنون بالخرافات ، ويعرقون عبادة الله الحقيقية فى طوفان من الطقوس الجوفاء ، وهى دين متعصب يجعل الشعب سفاكاً لا يعيش إلا على دماء القتلى والمذابح وفى صراع دائم مع جميع الشعوب .

وقد نادى الفيلسوف الألمانى فردريك نيتشه (١٨٤٤ - ١٩٠٠ م) بموت الإله ووصف طلاس الكنيسة وكهنوت رجالها وصفاً ساحراً فقال^(١) :

« انظروا إلى المساكن التى باها هؤلاء الكهنة وقد سموها كنائس وما هى إلا كهوف تبعث منها روائح التعفن ، وهل للروح أن ترتفع إلى مستواها تحت لآلئ هذه الأنوار الكاذبة ، وهى هذا الجو الكثيف حيث لا يسود إلا عقيدة تصم الناس بالخطيئة وتأمرهم بصعود درجات الهيكل زحفاً على الركب ؟! »

إننى لأفضل أن أنظر إلى اللحظات الفاحشة من أن أرى هذه العيون أطبقت أجفانها معلنة خشوعها واستغراقها .. ويستطرد فى وصف الكهنة قائلاً :

لقد أراد هؤلاء الكهنة أن يعيشوا كأشلاء الموتى فسربلوا جثثهم بالسواد ، فإذا ألقوا مواعظهم انتشرت منها رائحة اللحد .

(١) هكذا تكلم زرادشت ترجمة فليكس فارس .

إن من يجاور هؤلاء الناس فكأنما هو ساكن على ضفة الأنهار السوداء حيث لا يسمع إلا نقيق الضفادع الحزين » .

وعندما تحطمت الكنيسة وسقطت أغلالها بجهود العلماء والناشرين ، وتم فصل الدين عن الدولة في أوروبا انحلت العقدة وظهرت الحقيقة التي لا مرية فيها وهي أن الكون لا بد له من مبدع .. وأن الحياة لا بد لها من واهب .

وهذا هو مدير أكاديمية العلوم في نيويورك يقول في كتابه (الإنسان لا يقوم وحده) :

« إن البشر لا يزالون في فجر العلم ، وكلما ازداد العلم ضياء جلا لنا شيئاً فشيئاً صنعة خالق مبدع ، ففي السنوات التسعين^(١) التي مضت منذ عهد دارون تمت للعلماء مكتشفات هائلة ، والتقدم في العلم يدنو بنا شيئاً فشيئاً إلى معرفة الله ، فطريق العلم يسير بنا إلى الإيمان به ولا يتعد بنا عن ذلك أبداً .

والمعادلات الرياضية إذا طبقناها على نظام الكون تجعل عامل المصادفة في ظهور الحياة احتمالاً لا يبلغ واحداً من ملايين .

كما أن سعة حيلة الحياة في تحقيق أغراضها يدل على عقل منبث في أنحائها جميعاً .

وحكمة الحيوان تنطلق بلسان لا ترد حجته بأن لها خالقاً كريماً بث الغريزة فيها ، فالرحلات الطويلة الوعرة التي يقوم بها كل من سمك السالمون وثمان البحر تتم في ظروف تجعلنا لا نستطيع أن نعلل ذلك بالتكيف والملاءمة بل لا بد وأن هذه الرحلات تتم على هدى غريزة موهوبة ممنوحة .

وذاث يوم قام الصحفي (جون كلوثر مونسما) بتقديم هذا السؤال :

هل تعتقد في وجود الله ؟

وكيف دلتك دراستك وبحوثك عليه ؟

وتوجه به إلى طائفة من العلماء المتخصصين في سائر فروع العلم من الكيمياء

(١) كان ذلك في أوائل السبعينات .

إلى الفيزياء ، إلى الأحياء ، إلى الفلك ، إلى الرياضيات ، إلى الطب .. إلى غير ذلك .

وأجاب هؤلاء العلماء مبينين الأسباب العلمية التي تدعوهم إلى الإيمان بالله وصدر كتاب يحمل اسم : (الله يتجلى فى عصر العلم)^(١) .

وقد ناقش أحدهم وهو الدكتور (فرانك ألن) عالم الطبيعة البيولوجية قضية المصادفة وقال :

« إذا لم تكن الحياة قد نشأت بحكمة وتصميم سابق فلا بد أن تكون قد نشأت عن طريق المصادفة ، فما هى تلك المصادفة إذن حتى تدبرها ونرى كيف تخلق الحياة ؟ »

إن نظريات المصادفة والاحتمال لها الآن من الأسس الرياضية السليمة ما يجعلها تطبق على نطاق واسع حيثما انعدم الحكم الصحيح المطلق ، وتضع هذه النظريات أمامنا الحكم الأقرب إلى الصواب مع تقدير احتمال الخطأ فى هذا الحكم .

ولقد تقدمت دراسة نظرية المصادفة والاحتمال من الوجهة الرياضية تقدماً كبيراً حتى أصبحنا قادرين على التنبؤ بحدوث بعض الظواهر التى نقول إنها تحدث بالمصادفة ، والتى لا نستطيع أن نفسر ظهورها بطريقة أخرى مثل (قذف الزهر فى لعبة النرد) وقد صرنا بفضل تقدم هذه الدراسات قادرين على التمييز بين ما يمكن أن يحدث بطريق المصادفة وما يستحيل حدوثه بهذه الطريقة ، وأن نحسب احتمال حدوث ظاهرة من الظواهر فى مدى معين من الزمان ، ولننظر الآن إلى الذى تستطيع أن تلعبه المصادفة فى نشأة الحياة :

إن البروتينات من المركبات الأساسية فى جميع الخلايا الحية وهى تتكون من خمسة عناصر هى : الكربون ، والهيدروجين ، والنيتروجين ، والأكسجين ، والكبريت ، ويبلغ عدد الذرات فى الجزيء البروتينى أربعين ألف ذرة (٤٠٠٠٠) ذرة ، ولما كان عدد العناصر الكيميائية فى الطبيعة ٩٢ عنصراً موزعة كلها توزيعاً عشوائياً ، فإن احتمال اجتماع هذه العناصر الخمسة لكى تكون جزيئاً من جزيئات

(١) ترجمة د. الدمرداش د. الهجيد سرحان

البروتين يمكن حسابه لمعرفة كمية المادة التي ينبغي أن تخلط خلطاً مستمراً لكي تؤلف هذه الجزيء ، ثم لمعرفة طول الفترة الزمنية اللازمة لكي يحدث هذا الاجتماع بين ذرات الجزيء الواحد .

وقد قام العالم الرياضى السويسرى (تشارلز يوجين جاى) بحساب هذه العوامل جميعاً فوجد أن الفرصة لا تنهياً عن طريق المصادفة لتكوين جزيء بروتينى واحد إلا بنسبة واحدة إلى رقم عشرة مضروباً فى نفسه مائة وستين مرة (١٠ - ١٦٠) وهو رقم لا يمكن النطق به أو التعبير عنه بكلمات ، وينبغى أن تكون كمية المادة التى تلزم لحدوث هذا التفاعل بالمصادفة بحيث ينتج جزيء واحد أكبر مما يتسع له كل هذا الكون بملايين المرات .

ويتطلب تكوين هذا الجزيء على سطح الأرض وحدها عن طريق المصادفة بلايين لا تحصى من السنوات قدرها العالم السويسرى بأنها عشرة مضروبة فى نفسها مائتين وثلاثاً وأربعين مرة من السنين (١٠ - ٢٤٢) .

إن البروتينات تتكون من سلاسل طويلة من الأحماض الأمينية ، فكيف تتألف ذرات هذه الجزيئات ١٩ إنها إذا تألفت بطريقة أخرى غير التى تتألف بها تصير غير صالحة للحياة ، بل تصير فى بعض الأحيان سموماً ، وقد حسب العالم الإنجليزى (ج . ب . ليترز) الطرق التى يمكن أن تتألف بها الذرات فى أحد الجزيئات البسيطة من البروتينات فوجد أن عددها يبلغ البلايين (١٠ - ٤٨) وعلى ذلك فإنه من المحال عقلاً أن تتألف كل هذه المصادفات لكي تبنى جزيئاً بروتينياً واحداً .

ولكن البروتينات ليست إلا مواد كيميوية عديمة الحياة ، ولا تدب فيها الحياة إلا عندما يحل فيها ذلك السر العجيب الذى لا ندرك من كنهه شيئاً ، إنه العقل اللانهائى ، وهو الله وحده الذى استطاع أن يدرك ببالغ حكمته أن مثل ذلك الجزيء البروتينى يصلح لأن يكون مستقراً للحياة فبناه وصوره وأغدق عليه سر الحياة ١٨ هـ (١) .

* * *

(١) الله يتجلى فى عصر العلم ص ٩ .

(ب) الإيمان ضرورة نفسية :

الإيمان ضرورة تحتّمها الحياة النفسية لبني البشر ، والإنسان إذا أظلم عليه السبيل أو هاله ليل أو جاءته ريح عاصف - رجع إلى صوت الفطرة وتضرع إلى الله وحده رجاء كشف الضر فتداركه عناية الله وتسبغ عليه من النعم ظاهرها وباطنها ، لكنه هو الإنسان الظلوم الجهول ما يكاد يستشعر سطة جسم أو فضل نعمة حتى يقول - كما قال قارون : ﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي 》 .

وصدق الله حيث يقول : ﴿ قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنُكَوِّنَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ 》^(١) .

وفى تصوير معجز لحال الإنسان المضطربة أمام اعترافه بخالفه والمهيمن عليه يقول القرآن المجيد أيضاً :

﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَٰهَ 》^(٢) : أى أنه فى حال شدة البحر وإشراف الإنسان على الفرق ينسى جميع الشركاء ولا يعتقد إلا فى قدرة الله جل جلاله ، فيحقق الله رجاءه وينقذه مما فيه من أهوال ولكن الإنسان تلهيه النعمة : ﴿ فَلَمَّا نَجَّيْنَاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا 》 .

وهل نسى الإنسان أن إله البحر هو إله البر ، وأن صاحب الهيمنة المطلقة هو الله وحده .

﴿ أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا 》^(٣) .

وأيضاً أليس من الممكن أن تعود الشدة ويقف الإنسان نفس الموقف السابق يحيط به الموج من كل مكان .

(١) سورة الأنعام الآية ٦٣ .

(٢) سورة الإسراء الآية ٦٧ .

(٣) سورة الإسراء الآية : ٦٨ .

﴿ أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيَرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا ﴾ ^(١) .

وأذكر وأنا مقيم في المدينة الجامعية للطلاب كان بالحجرة المقابلة طالب يتظاهر بالإلحاد ، ويجادل في الله بغير سلطان ، وأشهد الله أنى سمعته وهو نائم يقول بأعلى صوته : يا رب ، يا رب ، مما جعلنى أوقظه وأنقذه من الصراع النفسى الدائر فى ثنايا ضميره والذي يتظاهر بإخفائه !!

إن الإيمان هو الأمل فى هذه الحياة ، وهو الضياء لمسيرة الإنسان وهو السعادة الكاملة وبدونه تصبح الحياة شقاء وبلاء وجحيماً لا يُطاق .

إن الحياة قائمة على المتقابلات من صحة أو مرض ، ومن غنى أو فقر ، ومن أولاد أو عقم ، ومن شباب أو كهولة ... إلخ . تلك سنة جارية لا تتخلف وليس هناك من ناموس يحكم هذه المتقابلات ، ويهب الناس السكينة تجاهها إلا الإيمان بالله ، ذلك أن الحياة فى منطق الإيمان مبنية على قانون عام هو الابتلاء والامتحان ، فالله جل جلاله يتلى الإنسان بالمال كما يتليه بالفقر ، ويتليه بالقوة كما يتليه بالضعف ، قال تعالى : ﴿ .. وَتَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ... ﴾ ^(٢) .

وشأن المؤمن أن يكون شاكراً عند النعمة والعطاء ، صابراً فى مواقع القضاء .. وإذا ضاقت نفس الإنسان فما عليه إلا أن يلجأ إلى الله وحده فهو سبحانه الرحمن الرحيم ، وهو جل شأنه الحكيم الخبير ، فما من عسر إلا ويعقبه يسر ، وما من ضائقة إلا ولها فرج قريب ، قال تعالى : ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۚ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۚ ﴾ .

ولن يغلب عسر يسرين ، فإن أهل اللغة يقولون : إن المعرفة إذا أعيدت معرفة كانت عينها ، وإن النكرة إذا أعيدت نكرة كانت غيرها ، كما أن فى التعبير بلفظ « مع » الدال على الصحة ما يؤكد قرب اليسر المترقب كأنه مقارن للعسر .

وإذا كانت الحياة تنتهى حتماً بالموت الذى قد يواجه الإنسان طفلاً أو شاباً أو كهلاً أو شيخاً كبيراً ..

(١) سورة الإسراء الآية ٦٩ .

(٢) سورة الأنبياء الآية : ٣٥ .

وهذا مما يؤرق البشر كثيراً ويقض مضاجعهم !!

فإن المؤمن لا ينظر إلى هذا المصير المحتوم نظر تشاؤم ومأساة ، بل هو حلقة ضرورية للمخلود الأبدى .. فإن الإنسان لم يخلق للعدم وإنما خلق للبقاء ، وهذا البقاء أو الخلود يمر بمراحل في الرحم أو على ظهر هذه الأرض ، أو في القبر ، أو في القيامة ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا ...﴾ (١) .

ومع تلك النظرة فليس من حق الإنسان أن يتمنى الموت مهما اشتدت حوله الخطوب ، فإن الأمل في الله أكبر ، وفي صحيح الحديث أن رسول الله ﷺ قال : « لا يتمنين أحدكم الموت لضر أصابه ، فإن كان لابد فاعلا فليقل : اللهم أحييني ما كانت الحياة خيراً لي ، وتوفني إن كانت الرفاة خيراً لي » .

وإذا كان مجرد تمنى الموت خطيئة في نظر الإسلام فما بالك بمن يقدم على الانتحار ؟

إن الإنسان لا يملك نفسه ، فالأنفس كلها لله ، وقتل النفس كقتل الغير سواء بسواء ، وفي صحيح الحديث يقول رسول الله ﷺ : « من تردى من جبل فقتل نفسه فهو في نار جهنم يتردى فيها خالداً مخلداً فيها أبداً ، ومن تحصى سماً فقتل نفسه فسمه في يده يتحساه في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً ، ومن قتل نفسه بحديدة فحديدته في يده يجرأ بها في بطنه في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً » .

وذلك لأن أفكار السوء ووساوس الشيطان إنما تأتي الإنسان الفارغ من الإيمان ، أما المؤمن الحق فهو دائماً مسدد الخاطر ، ملهم الضمير ، يمنحه الله هداية يفرق بها بين الحق والباطل ، والطيب والخبيث ، قال سبحانه : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَشَاقَوْا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا ...﴾ (٢) .

فتقوى الله هي النجاة من كل كرب الدنيا والآخرة ، وهي الأمل وسط ظلمات الحياة ومادياتها .

(١) سورة آل عمران الآية : ٣٠ .

(٢) سورة الأنفال الآية ٢٩ .

ولننظر ماذا يجرى بين الماديين المغمسين في شهوات النفس الآثمة ، والذين وصلوا إلى درجة التشبع فى الجنس والثروة .. ولنقرأ هذه الرسالة الصحفية التى كتبها ويليام بوردرز فى صحيفة النيويورك تايمز ونشرها الأهرام فى (٢٠ / ٣ / ١٩٨٠) :

أعلنت إحدى المؤسسات البريطانية فى لندن أنها تنوى نشر كتاب خاص للراغبين فى الانتحار ، ومن المعروف أن هذه المؤسسة التى يطلق عليها اسم « الخروج من الحياة » تدعو لما تسميه « بالحق فى الموت بصورة مشرفة » .

ومن المنتظر أن يحتوى الكتاب على أساليب عديدة للانتحار تُعد سهلة نسبياً حتى بالنسبة للمعوقين الراغبين فى الانتحار ، وسوف يحتوى الكتاب أيضاً على قائمة بأسماء العقاقير الطبية ورأى الطب فيما يكفى من كل من هذه العقاقير لإنهاء حياة الراغبين فى الانتحار .

وبالرغم من أن الكتاب لن ينشر قبل شهر أو اثنين إلا أن الطلب على الكتاب فى تزايد مستمر ، كما أن المؤسسة الناشرة تتسلم يومياً مئات من الخطابات الاستفسارية والتى يكتب معظمها الراغبون فى الانتحار .

وصرح السكرتير العام للمؤسسة بأن الطرق التى تدعو لها المؤسسة فى الانتحار أصبحت مقبولة إلى درجة كبيرة ، كما أنها مفضلة عن وسائل الانتحار التقليدية والتى عادة ما تسبب ميتة بطيئة مؤلمة .

وأضاف السكرتير العام بأن أعضاء المؤسسة يكافحون من أجل حق إنسانى وهو الحق فى الموت !!

وكتاب الانتحار الذى تنوى مؤسسة « الخروج من الحياة » نشره سيكتبه مجموعة من رجال القانون والطب وآخرون من أعضاء اللجنة التنفيذية للمؤسسة ، وسيكتب مقدمته الكاتب الإنجليزى آرثر كويستلر ، وهو عضو بارز فى المؤسسة .

وفى اجتماع أخير للمؤسسة اقترح آرثر كويستلر فكرة توزيع الكتاب على أعضاء المؤسسة فقط والذين مضى على عضويتهم أكثر من ثلاثة شهور ، وذلك لضمان عدم فرض سبل الانتحار المذكورة فى الكتاب على الذين لا يستوعبون اتجاهات المؤسسة « ا هـ » .

هكذا يفكر من لا إيمان له !!

(ج) الإيمان ضرورة أخلاقية :

إن الإنسانية فى حقيقة أمرها تجمع أخلاقى يرتبط بالإرادة الحرة التى يكون على أساسها التكليف والمسئولية .

ولكن ما هو المقياس الأخلاقى ؟

إن القوانين مهما أحكمت لا تستطيع أن تسيطر على قوى الإنسان الداخلية ، ثم إن القانون يحتاج إلى إنسان يقوم على حمايته وعلى أمر تنفيذه ، وهذا الإنسان بدوره يحتاج إلى حماية لأنه لن يكون معصوماً . إن الإيمان وحده هو الذى يتولى تأصيل القيم والمبادئ داخل النفس الإنسانية ، وإن النفس المؤمنة تسارع إلى الخير بمقتضى فطرتها ، أما النفس الملحدة فتساق من ظاهرها برهة السوط وعين القانون ، ومتى أخطأ السوط أو عفل القانون فهناك مجالات رجة من فوضى الأخلاق والمعاملات وصراع الطبقات وغلبة الأقوياء ، وسريان قانون الغاب .

ولقد علمنا الإسلام المراقبة الذاتية عندما حكى القرآن قول لقمان لابنه : ﴿ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ (١) .

ولعل وصية الرسول ﷺ تشير إلى هذا المعنى عندما قال : « اتق الله حيثما كنت ... » .

وقد تجاوب المؤمنون الصادقون مع تلك التربية الإيمانية فقدموا نماذج فذة وفريدة ، وفى تعبير حكيم وتمثيل رائع وصادق عن قصة أصحاب الغار الثلاثة يقول الرسول ﷺ - كما فى صحيح مسلم :

« بينما ثلاثة نفر يتمشون ، أخذهم المطر فأووا إلى غار فى جبل فانحطت على فم غارهم صخرة من الجبل فانطبقت عليهم ، فقال بعضهم لبعض : انظروا أعمالاً عملتموها صالحة لله فادعوا الله تعالى بها لعل الله يفرجها عنكم ..

(١) سورة لقمان الآية : ١٦ .

فقال أحدهم : اللهم إنه كان لى والدان شيخان كبيران ، وامرأتى ولى صبية صغار أرعى عليهم ، فإذا أرحت عليهم حلبت فبدأت بوالدى فسقيتهما قبل بنى ، وإنه نأى بى ذات يوم الشجر فلم أت حتى أمسيت فوجدتهما قد ناما ، فحلبت كما كنت أحلب ، فجئت بالحلاب فقممت عند رءوسهما أكره أن أوقظهما من نومهما ، وأكره أن أسقى الصبية قبلهما ، والصبية يتضاغون عند قدمى ، فلم يزل ذلك دأبى ودأبهم حتى طلع الفجر .. فإن كنت تعلم أنى فعلت ذلك ابتغاء وجهك ، فافرج لنا منها فرجة نرى منها السماء .. ففرج الله منها فرجة فرأوا منها السماء .

وقال الآخر : اللهم إنه كانت لى ابنة عم أحببتها كأشد ما يحب الرجال النساء ، وطلبت إليها نفسها فأبت حتى آتيتها بمائة دينار ، فتمت حتى جمعت مائة دينار فجمعتها بها ، فلما وقعت بين رجلها قالت : يا عبد الله اتق الله ولا تفتح الخاتم إلا بحقه ، فقممت عنها .. فإن كنت تعلم أنى فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج لنا منها فرجة .. ففرج لهم .

وقال الآخر : اللهم إنى كنت استأجرت أجيراً بفرق^(١) أرز فلما قضى عمله قال أعطنى حقى فعرضت عليه فرقه فرغب عنه ، فلم أزل أزرقه حتى جمعت منه بقرأ ورعاءها فجاءنى فقال اتق الله ولا تظلمنى حقى .. قلت : اذهب إلى تلك البقر ورعاءها فخذها .. فقال : اتق الله ولا تستهزئ بى .. فقلت : إنى لا أستهزئ بك ، خذ ذلك البقر ورعاءها .. فأخذها فذهب به ، فإن كنت تعلم أنى فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج لنا ما بقى .. ففرج الله ما بقى ، وخرجوا من الغار يمشون .

هكذا يفعل الإيمان عندما يتغلغل فى أعماق النفس الإنسانية .

وتؤكد أيضاً الضرورة الأخلاقية للإيمان لتصحيح مسار العلاقات الاجتماعية التى تنمو على أساس مبدأ المحبة لله ، والمحبة فى الله ذلك المبدأ الذى يتسامى على أهواء النفس ودنایا المادة ، فتتروى الأحقاد وتنأى الخصومات ، ويعيش الناس عباد الله إخواناً .

وعلى أساس هذا المبدأ أخى الرسول صلوات الله عليه وسلامه بين المهاجرين والأنصار ، وأصبحت الأموال والعقارات بينهم كالماء فى الأنابيب المستطرقة ،

(١) الفرق : نوع من الآتية يسع ثلاثة أصع .

وتوارث المسلمون بصلة الدين وكأنها لحمه النسب إلى أن استقرت الأمور ، فنزل قوله تعالى : ﴿ .. وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ ﴾^(١) فاقترن التوارث على النسب .

ومن طريف ما يروى أن سعد بن الربيع الأنصاري قال لعبد الرحمن بن عوف : أى أخى !! أنا أكثر أهل المدينة مالاً فانظر شطر مالى فخذ ، وتحتى امرأتان فانظر أيتهما أعجب إليك حتى أطلقها .

فقال عبد الرحمن بن عوف : بارك الله لك فى أهلك ومالك ، دلونى على السوق ، فدلوه فذهب فاشترى وباع فربح ، حتى قال بعد ذلك :

فلقد رأيتنى ولو رفعت حجراً لرجوت أن أصيب ذهباً أو فضة !!

إن الناس بغير الإيمان يأكل قويهم ضعيفهم ، ويستعبد غنيهم فقيرهم ، ويتربصون الدوائر بعضهم بعضاً .

ولننظر ماذا يقول فيلسوف ملحد مثل فردريك نيتشه (١٨٤٤ - ١٩٠٠ م) فى كتابه (هكذا تكلم زرادشت) :

« إذا ما رأيتم متداعياً إلى السقوط فادفعوه بأيديكم وأجهزوا عليه ، وكل إنسان تعجزون عن تعليمه الطيران علموه - على الأقل - أن يسرع بالسقوط » .

ويرى نيتشه أنه لا رحمة بين الناس ، وأن الإحسان يجرح عزة النفس ويولد الأحقاد لدى المحرومين ، ويدعو من يستطيع أن يقتطف ثمار الحديقة عنوة أن يتقدم فليس فى الإقدام على الغصب ما فى قبول العطاء من مهانة .

ولا يشير نيتشه بمحبة القريب ويعتبرها أنانية مضللة هدفها إعواء القريب واحتواؤه وينفر من الصداقة ويقول :

دع الصداقة إذا كنت عبداً ، ولا تطمح إلى اكتساب الأصدقاء إذا كنت عاتياً .
وشعار المجتمع عنده هو اقتسام المظالم فمن يقدر على إرهاب الناس بظلمه فعليه أن يحتمل هو الظلم أيضاً .

(١) سورة الأنفال الآية . ٧٥ .

وليس من الإنسانية - فى زعمه - أن يرفع المظلوم عن الانتقام ويقول فى عبارة ضاحكة باكية :

إذا كان لكم عدو فلا تقابلوا شره بالخير لأنه يستصغر بذلك نفسه ، بل أكدوا له أنه أحسن بعمله إليكم ، والأجدر بكم أن لا تحتقروا أحداً ، تظاهروا بالغضب . وإذا وجهت اللعنة إليكم فلا يسرنى أن تمنحوا البركة . وإذا ما نزلت بكم مظلمة كبيرة فبادروا المعتدى بمثلها وأرفقوها بخمس مظلالم صغرى !!

ويرى نيتشه أن « إرادة الحق » هو شعار المذلة !!
وأن جوهر الوجود وحقيقته هو « إرادة القوة » !!
هكذا تكون أخلاق الملحدين !!

(د) الإيمان ضرورة تاريخية :

إن التاريخ هو طريق الإنسانية إلى الله ، والمواقف الحاسمة فيه مرتبطة بالدين ، وأبوابه الرئيسية هى قصة الصراع الفكرى بين الإيمان والكفر . ولن تفهم حضارة التاريخ إلا من خلال مسيرة الأديان التى اعتنقها أجيال البشر والتى اتفقت - بغض النظر عن الحقيقة أو الأسطورة - على فطرة مركوزة فى النفس بأن الحياة لا بد لها من واهب ، وأن الكون لا بد له من مدبر ، وأن للإنسان حياة أخرى للحساب والجزاء .

وقد تفجرت عن تلك الفطرة علوم ومعارف وفنون ، وارتبطت بها منشآت وهياكل وقصور .

ففى مصر الفرعونية عاش الناس بالدين وللدين ، وقامت معابد الكرنك والأقصر وأهرامات الجيزة ، وتقدمت علوم الطب والهندسة ، وازدهرت فنون النحت والتصوير والنقش والكتابة ؛ لتثبت أن الإيمان صانع المعجزات .

وحدثنا التاريخ عن حضارة نابل وآشور حديثاً بلغ حد الأسطورة فى روعة البناء وجمال الطبيعة وسطورة الملك ، ولا يمكن فهم هذا التاريخ إلا من خلال قصة نوح والطوفان ، وقصة إبراهيم الخليل وجهاده مع قومه وجداله مع الرؤساء .

ولا ينسى التاريخ دور موسى عليه السلام وبنى إسرائيل من بعده فى صياغة فصوله وأبوابه .. وخاصة ملك داود ، وسليمان عليهما السلام الذى عبر عنه القرآن المجيد بقوله :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَرْبِيَ مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَآلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ * أَنْ اْعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * وَلَسَأَلْنَاهُ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَزَوَاجُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِبِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ * يَتَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِبٍ وَتَمَائِيلٍ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ اْعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ ^(١) .

وإذا اتجهنا إلى الإغريق فسنجد تاريخهم مرتبطاً بعالم الآلهة كما تخيله «هوميروس» وعالم المثل كما نادى به «أفلاطون» .

ولما قامت النصرانية واحتضنتها «روما» بسطت لواءها على أطراف الأرض قروناً من الزمان ، ودارت الحرب سجالاتاً بينها وبين الفرس .

وقد أشار القرآن المجيد إلى قصة ذلك الصراع فى مفتتح سورة الروم :

﴿ اَلَمْ يَغْلِبِ الرُّومُ * فِي اَدْنَى الْاَرْضِ وَهُمْ مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَافِلُونَ * فِي يَضَعُ سِنِينَ لِلّٰهِ اَلْاَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللّٰهِ يَنْصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ^(٢) .

وجاء فى تفسير الزمخشري :

« احتربت الروم وفارس بين أذربعات وبصرى ، فغلبت فارس الروم ، فبلغ الخبر مكة فشق على النبي ﷺ والمسلمين ، لأن فارس محوس لا كتاب لهم ، والروم أهل الكتاب ، وفرح المشركون وشمتموا وقالوا : أنتم والنصارى أهل الكتاب ، ونحن وفارس أميون ، وقد ظهر إخواننا على إخوانكم ، ولنظهرن نحن عليكم فتزلت (أى هذه الآيات) فقال لهم أبو بكر رضى الله عنه :

(١) سورة سبأ الآيات ١٠٠ ، ١٣

(٢) سورة الروم الآيات ١ - ٥ .

لا يقرر الله أعينكم فوالله لتظهرن الروم على فارس بعد بضعة سنين .
فقال له أنبي بن خلف : كذبت ، اجعل بيننا أجلاً أناحبك عليه (والمناحية
المراهنه) ، فناحبه على عشر قلائص^(١) من كل واحد منهما وجعلنا الأجل ثلاث سنين .
فأخبر أبو بكر رضى الله عنه رسول الله ﷺ فقال : البضع ما بين الثلاث إلى
التسع .

فزايدة فى الخطر أى المراهنة وماده فى الأجل ، فجعلناها مائة قلووس إلى تسع
سنين .

ومات أنبي بن خلف وظهرت الروم على فارس يوم الحديبية ، وذلك عند رأس سبع
سنين ، فأخذ أبو بكر الرهان من ذرية أنبي ، وجاء به إلى رسول الله ﷺ فقال : تصدق به .
وهذه الآية من الآيات البينة الشاهدة على صحة النبوة ، وأن القرآن من عند
الله ، لأنها إنباء عن علم الغيب الذى لا يعلمه إلا الله .

هذا ويوم أن أشرقت الأرض بنور ربها وعرف الناس طريقهم إلى الإسلام شرعة
ومنهاجاً قادهم إلى أمة هى من التاريخ غرته ، ومن الزمان ربيع ، وأبدعوا حضارة
شملت العالم من أقصاه إلى أقصاه وحفظت للإنسانية قرائحها ، وجادت عليها
بأسمى ما ترنوا إليه فى العلم والحضارة .. وكانت المراكز الإسلامية فى الأندلس
وصقلية والقاهرة ودمشق وبغداد مشاعل أضاءت الطريق للحضارة الحديثة .

وهكذا كان الإيمان يقود خطى البشرية دائماً ، ولن تجد فترة زمنية ذات نال إلا
وللإيمان هيمنة عليها وسلطان فيها .

ولا يعيننى هنا أن اعتقاد القوم كان صحيحاً أو فاسداً فتلك قضية أخرى ، وإنما
الهدف من تأكيد الضرورة التاريخية للإيمان هو رؤية الارتباط بين الحضارة المادية
والإيمان بالله واليوم الآخر .

على أن القوم حينما أشركوا فى الألوهية أو انحرفوا فى تصور العقيدة
الصحيحة كان زعمهم اتخاذ الوساطة أو محاولة تمثل العظمة الإلهية .. وإلى هذا
يشير أحمد شوقي :

(١) القلائص : جمع قلووس وهى الناقة الشاة .

رب شقت العباد أزمان لا كد	سب بها يهتدى ولا أنبياء
ذهبوا فى الهوى مذاهب شتى	جمعتها الحقيقة الزهراء
فإذا لقبوا قوياً إلهاً	فله بالقوى إليك انتماء
وإذا آثروا جميلاً بتزيب	فإن الجمال منه حياء
وإذا أنشأوا التماثيل غرا	فإليك الرموز والإيماء
وإذا قدروا الكواكب أربا	بأ فمئك السنا ومنك السناء
وإذا ألهموا النبات فمن آ	ثار نعماك حسنه والنماء
وإذا يحموا الجبال سجوداً	فالمراد الجلالة الشماء
وإذا يعبد الملوك فإن المـ	لك فضل تحبوا به من تشاء

(و) تنبيه وتقرير :

ليعلم الملحدون أننا فى بحثنا عن الله سبحانه وتعالى واستدلانا على وجوده لا نتجاوز وضعنا الإنسانى ونجعله سبحانه كمعادلة نحلها أو متركب كيميائى ينتجه أو جزيرة نكتشفها .

إن كل ما نعلمه - ييقن العقل وصادق الفطرة - هو أن الكون والكائنات جميعاً تسبح بحمد ربها وتدل على أنه الواحد ذو الجلال والإكرام ، وصولاً إلى الحقيقة الكبرى التى عبر عنها القرآن المجيد فى قوله : ﴿ ذَلِكْ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ (١) .

أما محاولة الخوض فى ذات البارى وحقيقة صفاته فهذا ليس فى نطاق العقل المحدود ، ومن المنطق أن نسلم حيث انتهى الشوط ، والتسليم هنا هو تسليم العلماء لا الجاهلين ، وتسليم المعرفة لا التقليد .

ولتوضيح ذلك أدع ابن خلدون يقول :

« واعلم أن الوجود عند كل مدرك فى بادئ رأيه - منحصر فى مداركه لا يعدوها ، والأمر فى نفسه بخلاف ذلك ، والحق من ورائه .
ألا ترى الأصم كيف ينحصر الوجود عنده فى المحسوسات الأربع والمعقولات ،

(١) سورة الحج الآية ٢٠ .

ويسقط من الوجود عنده صنف المسموعات ١١

وكذلك الأعمى أيضاً يسقط عنده صنف المراثيات ، ولولا ما يردهم إلى ذلك تقليد الآباء والمشيخة من أهل عصرهم والكافة لما أقروا به ، لكنهم يتبعون الكافة في إثبات هذه الأصناف لا بمقتضى فطرتهم وطبيعة إدراكهم .

ولو سئل الحيوان الأعجم ونطق لوجدناه منكراً للمعقولات وساقطة لديه بالكلية . فإذا علمت هذا فلعل هناك ضرباً من الإدراك غير مدركاتنا ، لأن إدراكاتنا مخلوقة محدثة وخلق الله أكبر من خلق الناس ، والحصر مجهول ، والوجود أوسع نطاقاً من ذلك ، والله من ورائهم محيط .

فإنهم إدراكك ومدركاتك في الحصر ، واتباع ما أمرك الشارع به من اعتقادك وعملك فهو أحرص على سعادتك ، وأعلم بما ينفعك ، لأنه من طور فوق إدراكك ، ومن نطاق أوسع من نطاق عقلك » .

ثم يؤكد ابن خلدون قيمة العقل وصدق حكمه في نطاقه الإنساني المحدود ، وأن قصوره عما وراء ذلك ليس اتهاماً فيقول :

« وليس ذلك بقادح في العقل ومداركه ، بل العقل ميزان صحيح ، فأحكامه يقينية لا كذب فيها غير أنك لا تطمع أن تزن به أمور التوحيد والآخرة ، وحقيقة النبوة وحقائق الصفات الإلهية ، وكل ما وراء طوره ، فإن ذلك طمع في محال » .
ثم يسوق ابن خلدون مثلاً تقريباً له فيقول :

« ومثال ذلك مثال رجل رأى الميزان الذي يوزن به الذهب فطمع أن يزن به الجبال ، وهذا لا يدرك على أن الميزان في أحكامه غير صادق لكن العقل قد يقف عنده ولا يتعدى طوره ، حتى يكون له أن يحيط بالله وبصفاته ، فإنه ذرة من ذرات الوجود الحاصل منه » ^(١) .

وبعد .. فالإيمان ضرورة تقتضيها الفطرة وتحميها مثل الأخلاق وقواعد السلوك ، وتلح عليها حضارة الإنسان .

(١) للفتنة ص ٢٧٣ - طبعة المطبعة الأزهرية سنة ١٣١١ هـ .

المبحث الثالث

توحيد الله تعالى

* الوحدانية في الإسلام .

* المخالفون في الوحدانية :

– اليهود .

– النصارى .

– المجوس .

– عباد الأصنام .

– الصابئة .

– القائلون بالحللول والاتحاد .

* دلائل التوحيد في سورة البقرة :

– فضل سورة البقرة .

– إبداع الصنع .

– انفراد السلطان .

– وحدة المعبود الحق .

– التفرد بصفات الجلال والكمال .

– حوار في الله ومع الله .

– أحدية الله في الخلق والجزاء .

الوحدانية في الإسلام

وحدانية الله تعالى عنوان الإسلام كله ، وأصله الذى لا بديل عنه ، وبالشهادتين يبدأ المسلم حياته وعليها يلقي الله تعالى ، وفى حديث رواه الحاكم وغيره قال عليه الصلاة والسلام : من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة .

وهذه الوحدانية فى المفهوم الإسلامى تعنى مايلى :

أولاً : الله تعالى واحد فى ذاته ، وهذا يتضمن شيئين :

أ - لا تعدد فى الآلهة فليس هناك ذات تشبه ذات الله فى كمالها وجلالها وسلطانها ..

ب - لا تركيب فى الذات الإلهية فلا والد لله تعالى ولا ولد ، ولا يحل فى شىء ولا يتحد مع شىء ، ولا يتركب من أجزاء .

قال الله تعالى ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ ، وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ * عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ ^(١) .

ثانياً : الله تعالى واحد فى صفاته ، وهذا يشمل أمرين :

(أ) لا تعدد فى صفة من صفات الله كقدرتين وإرادتين وعلمين وحياتين ... إلخ ؛ لأن كل صفة من صفات الله هى الكمال المطلق فلا نقص فيها .

(ب) لا تشابه بين صفات الخالق وصفات المخلوق ، فالله تعالى منزّه عن مشابهة خلقه ..

(١) سورة المؤمنون الآيات ٩١ ، ٩٢ .

وقد جاء القرآن الكريم يصف الله تعالى بأنه ﴿ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ ^(١) ،
 و﴿ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾ ^(٢) و﴿ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ ^(٣) و﴿ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ﴾ ^(٤)
 و﴿ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴾ ^(٥) و﴿ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴾ ^(٦) و﴿ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴾ ^(٧)
 و﴿ خَيْرُ الرَّحِيمِينَ ﴾ ^(٨) ..

كما أكد القرآن قضية التنزيه المطلق لله تعالى فقال : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ ^(٩) .

وقال : ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ ^(١٠)

ثالثاً : الله تعالى واحد في أفعاله ، فلا يقبل المساعدة أو المشاركة أو المساندة ، وكل ما في الكون والكائنات فهو أثر من آثار قدرة الله وحده .

قال تعالى : ﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى اللَّهُ خَيْرُ مَا يُشْرِكُونَ * أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَلِللهِ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ * أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَلِللهِ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَلِللهِ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ * أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلِ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَلِللهِ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ * أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَلِللهِ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ^(١١) .

فحيثما توجه الإنسان بعقله وقلبه ، وأيضا حل ببدنه وجسمه ، وعلى امتداد

- | | |
|------------------------------------|---------------------------------|
| (١) سورة المؤمنون الآية : ١٤ . | (٢) سورة الأعراف الآية : ٨٧ . |
| (٣) سورة المائدة الآية : ١١٤ . | (٤) سورة آل عمران الآية : ١٥٠ . |
| (٥) سورة الأعراف الآية : ٨٩ . | (٦) سورة الأعراف الآية : ١٥٥ . |
| (٧) سورة الأنبياء الآية : ٨٩ . | (٨) سورة المؤمنون الآية : ١٠٩ . |
| (٩) سورة الشورى الآية : ١١ . | (١٠) سورة الاحقاص الآية : ٤ . |
| (١١) سورة الملل الآيات : ٥٩ - ٦٤ . | |

بصره وبصيرته لا يجد غير آثار مبدع حكيم ، وفعل قادر مقتدر ، وإرادة فعال علام العيوب .

رابعاً : الله تعالى هو وحده المعبود الحق ، فيجب أن يُطاع فلا يُعصى ، وأن يُشكر فلا يجحد ، وأن يذكر فلا يُنسى ، بحيث يكون الدين كله لله .

وهذا يتضمن اتجاهين :

١ - اختصاص العبادة لله فلا يصرف شيء منها لغيره سبحانه ، فلا يستعان إلا بالله ، ولا يتوكل إلا على الله ، ولا يدعى غير الله ، ولا يذبح إلا باسم الله ، ولا يحلف إلا بالله ... إلخ .

قال تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ * أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَخُكِّمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴾ ^(١) .

٢ - تجنب الرياء والبعد عن التسمع ، وهذا هو الشرك الأصغر الذي يتسلل إلى قلوب العباد فيحبط أعمالهم ، ويجعلهم قاب قوسين أو أدنى من الضلال البعيد .. وفي الصحيح المتفق عليه عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة ، ويقاتل حمية ، ويقاتل رياء : أى ذلك فى سبيل الله ؟ فقال رسول الله ﷺ : من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو فى سبيل الله .

فشأن المسلم الموحد أن يعمل العمل خالصاً لوجه الله ، لا ينتظر محمداً الناس ولا يتعلق قلبه بحطام الدنيا ، ولا يتباهى بزخرف الحياة الفاني ، فتواب الله بخير ، وفي صحيح مسلم بسنده عن أبي هريرة مرفوعاً : قال الله تعالى : « أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملاً أشرك معي فيه غيرى تركته وشركه » .

وفي مقارنة بين المرائي والمخلص بين الرسول ﷺ ونفسية كل منهما والهدف لحياتهما .

(١) سورة الزمر الآيتان ٢ ، ٣ .

فالمرائي عبد الشهوة والشهوة لا يعرف قيمة رفيعة ولا كرامة نبيلة .
والمخلص يضحى بالنفس والنقيس ابتغاء مرضاة الله ولا يضيره أن علم الناس أو
لم يعلموا ، ويكفيه شرفاً علم الله به وثناء الله عليه في الملأ الأعلى ، ويوم يقوم
الأشهاد .

يقول عليه الصلاة والسلام في صحيح الحديث : « تعس عبد الدينار ، وتعس
عبد الدرهم ، وتعس عبد الحمصة ، وتعس عبد الحميلة .. إن أعطى رضى ، وإن لم
يعط سخط ، تعس وانتكس ، وإذا شيك فلا انتقش .

« طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل الله ، أشعث رأسه ، مغبرة قدماه ، إن
كان في الحراسة كان في الحراسة ، وإن كان في الساقة كان في الساقة ، إن استأذن
لم يؤذن له ، وإن شفع لم يشفع » .

* * *

المخالفون في الوجدانية

انطلاقاً من مفهوم الوجدانية في الإسلام يتحدد المخالفون لتلك الوجدانية ،
الخارجون عن مقتضى الفطرة ، الناقضون لعهد الله وميثاقه ، المشركون بالله ..
وهؤلاء المخالفون طوائف شتى منهم :

١ - اليهود :

وعقيدة اليهود قائمة على تشبيه الخالق بالخلق ، ووصف الله تعالى بما لا يليق ،
وإثبات فريق منهم النبوة لله سبحانه .

وقد بدأ شرك العقيدة اليهودية على عهد موسى عليه السلام حين طلبوا رؤية
الله في الدنيا بالأبصار الحسية ، فعاجلهم الله بعقوبة رادعة صعدت هؤلاء السفهاء .

قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً
فَأَخَذْنَاكُمْ الصَّاعِقَةَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ * ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ
تَشْكُرُونَ ﴾ (١) .

وأيضاً حين أرادوا عبادة الأصنام بعدما عبر بهم موسى البحر ، ولم يستوعبوا
الحدث المعجز ، وظلت نفوسهم على الشرك الأول قبل بعثة موسى عليه السلام .

قال تعالى : ﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى
أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ
تَجْهَلُونَ ﴾ (٢) .

وتوالى بعد ذلك شرك اليهود وكفرهم بآيات الله فادعوا أن عزيزاً ابن الله ،
وألحدوا في صفات الله .

(١) سورة البقرة الآيات ٥٥ - ٥٦ .

(٢) سورة الأعراف الآية : ١٣٨ .

قال تعالى : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ... ﴾ (١) .

٢ - النصارى :

وعقيدة النصارى مضطربة فى شأن شخصية المسيح عليه السلام ، فهم أحزاب و فرق تزعم أن المسيح إله أو ابن إله أو ثالث ثلاثة .

ويتوهمون أن المسيح مركب من لاهوت وناسوت ، ويقولون بالحللول والاتحاد .

ولهذا سلكهم القرآن مع الكافرين المشركين فقال : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (٢) .

ثم ذكر القرآن الكريم هؤلاء النصارى بحقيقة شخصية المسيح وأنها تتنافى كلية مع مقام الألوهية الرفيع فقال : ﴿ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمْ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ (٣) .

ثم سلك القرآن الكريم النصارى واليهود فى سلك الوثنيين القدماء ، وسجل عليهم أنهم خلطوا عقائد الشرك برسالات الوحي ، وحرفوا التنزيل المقدس ، فقال : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْرَاهِهِمْ يُضَاهَوْنَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ (٤) .

وأكد القرآن الكريم أن هؤلاء اليهود والنصارى صرفوا العبودية لغير الله ،

(١) سورة المائدة الآية : ٦٤

(٢) سورة المائدة الآيات : ٧٢ ، ٧٣ .

(٣) سورة المائدة الآية : ٧٥ .

(٤) سورة التوبة الآية : ٣٠ .

ومنحوا حق التحليل والتحريم بغير علم إلى الأحيار والرهبان ، فقال : ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ ^(١) .

ولهذا كان عبد الله بن عمر رضى الله عنه يرفض الزواج من نساء أهل الكتاب ويقول - كما فى صحيح البخارى - : لا أعلم شركاً أعظم من أن تقول إن ربها عيسى ، وقد قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا... ﴾ ^(٢) .

٣ - المجوس :

وعقيدة المجوس تتعلق بالهين هما النور والظلمة ، أو إله الخير وإله الشر ، ولهم اختلافات كثيرة حول هذين الإلهين : هل هما أزليان يتساويان فى القدم ويختلفان فى الجوهر والفعل ، أو أحدهما قديم وهو النور ، والآخر محدث وهو الظلمة ؟ وقد رفض القرآن الكريم هذه الفرية وقال : ﴿ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَإِنِّي فَازَهُبُونَ ﴾ ^(٣) .

وأعلى القرآن الكريم أن النور والظلمة وكل ما فى الكون مخلوق لله تعالى وأثر من آثار قدرة الواحد القهار ، فقال : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى خَلَقَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمٰتِ وَالنُّوْرَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ ^(٤) .

وأكد القرآن أن كل ما يعترى الإنسان من منح ومحن ، إنما هو ابتلاء من الله لعباده ، والله وحده هو القابض الباسط ، وهو الرافع الخافض ، وهو المعز المذل ، وهو المحيى المميت .

قال تعالى : ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِى الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * تُوَلِّى اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُوَلِّى النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَتُخْرِجُ

(١) سورة التوبة الآية ٣١ .

(٢) سورة البقرة الآية ٢٢١ ، ولكن جمهور العلماء على حواز هذا الكاح .

(٣) سورة النحل الآية : ٥١ . (٤) سورة الأنعام الآية ١ .

الْمَيْتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١﴾ .

٤ - عباد الأصنام :

وعقيدة عباد الأصنام ترتبط بتماثيل وأشكال تتخذ من المعدن أو الصخر أو الشجر ، يقدمون إليها القرابين ، ويقفون بين يديها ضارعين .. وقد تهكم بهم القرآن الكريم على ألسنة رسل الله في مواضع شتى من المصحف الشريف .

ففي سورة الأعراف مثلاً وضح القرآن الكريم العجز المطلق لهذه المعبودات ، فهي مخلوقة مصنوعة نحتها الإنسان وأقامها ، فهي أعجز من أن تمنح الوجود لشيء ، لأن فاقده الشيء لا يعطيه ، وهي فاقدة لكل معاني الحياة فهي ساكنة عمياء بكماء ، فكيف تستجيب لدعاء عابديها ١٩

قال تعالى : ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ * وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ * وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ * إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادًا أُمَّنَّا لَكُمْ فَاذْعُوهُمْ فَلْيُصْغَبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * أَلَهُمْ أَزْجَلُ يَمُوتُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أُنْدٌ يَتَّبِعُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُصِيرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تُنْظَرُونَ ﴾ (٢) .

ويلحق بعباد الأصنام عابِدو الحيوان الأعجم كالهندوس الذين يقدسون البقرة ، ويضحون بكرامة الإنسان أمام هذه العجماوات ١١

فالإنسان خليفة في أرض الله ، وكل ما في الكون مسخر لخدمته ، فلا يليق بالإنسان أن يمتن كرامته أمام حجر أو شجر أو حيوان أو بشر .

٥ - الصابئة :

وعقيدة الصابئة تجعل الكواكب والنجوم محل التقديس والعبادة ، وترى أن

(١) سورة آل عمران الآيات ٢٦ - ٢٧ .

(٢) سورة الأعراف الآيات : ١٩١ - ١٩٥ .

لهذه الكواكب هيمنة على الكون وتأثيراً في الوجود وتدييراً للكائنات .

وقد كان الصابغون على عهد إبراهيم الخليل عليه السلام ، واكتشف هدهد سليمان عليه السلام وجودهم في اليمن ، وأمتد فكرهم إلى فلاسفة اليونان قبل الميلاد ، وتأثر بهم فلاسفة المسلمين فتبنوا نظرية العقول العشرة التي تزعم أن للكواكب أرواحاً مدبرة ، حتى تنتهي إلى عقل فلك القمر الذي يدبر العالم الأرضي . كل ذلك ينافي عقيدة التوحيد ويصل بأصحابه إلى درك الشرك ومهاوى الضلال البعيد .

فالشمس والقمر آيتان من آيات الله ، أهدعهما الله تعالى لمصلحة الخلق ومنافع الحياة .

قال تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ ^(١)

والكواكب والنجوم كلها مسخرة بأمر الله ، تجري بنواميس لا يملك أحد غير الله تبديلها أو تغييرها أو التأثير فيها .

قال تعالى : ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * وَالْقَمَرَ قَدْرَ نَافِ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ * لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ ^(٢) .

وقد رتب الله الأسباب والمسببات بإرادته وقدرته ، وليس لشيء في الوجود فعل ذاتي ، ولو شاء الله غير ذلك لكان .

وفي صحيح الحديث عن زيد بن خالد رضي الله عنه ، قال صلى لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الصبح بالحديبية على إثر سماء ^(٣) كانت من الليل ، فلما انصرف أقبل على الناس فقال : هل تدرون ماذا قال ربكم ؟ قالوا : الله ورسوله

(١) سورة فصلت الآية : ٣٧ .

(٢) سورة يس الآيات : ٣٨ - ٤٠ .

(٣) أي مطر .

أعلم . قال : قال : وأصبح من عبادى مؤمن بى وكافر ، فأما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته ، فذلك مؤمن بى كافر بالكواكب ، وأما من قال مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بى مؤمن بالكواكب .

٦ - القائلون بالحلول والاتحاد :

وعقيدة الحلول والاتحاد تقوم على الغلو فى بعض البشر بدعوى أن فيهم جزءا إلهيا يمنحهم سلطاناً فوق الناس ، فيحل هذا الجزء الإلهي فى شخص ما ، أو يتحد معه ، فتكون شخصية هذا الإنسان مزيجاً أو خليطاً من اللاهوت والناسوت .

وتناسى هؤلاء أن العبد عبد ، وأن الإله إله ، وشتان بينهما ، وأن الله تعالى يقول : ﴿ لَنْ يَشْكِكَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَشْكِكْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَشْكِكْ فَسَيُخْشَرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴾ ^(١) .

وغفل هؤلاء عن أن العبادة توفيق ، وأن الهداية منحة ، وأن العبد مهما أطاع واتفق فهو متقلب فى نعم الله التي لا تعد ولا تحصى ، ولا يملك من أمر نفسه أو غيره شيئاً .

ومن قال : إنه الحق !!

أو : ليس فى الجبة إلا الله !!

أو : أنا من أهوى ، ومن أهوى أنا .

أو :

لقد صار قلبي قابلاً كل صورة

وبيت لأوثان وكعبة طائف

أدين بدين الحب أنى توجهت

أدين بدين الحب أنى توجهت

كل هؤلاء إما مخبولون فقدوا وعيهم وزاغ منهم البصر .

وإما منافقون يحملون وثنيات الأمم ويريدون أن يصدوا عن سبيل الله .

* * *

(١) سورة النساء الآية : ١٧٢ .

دلائل التوحيد في سورة البقرة

١ - فضل سورة البقرة :

دلالة القرآن المجيد على توحيد الله وتنزيهه دلالة قوية كبيرة ، متعددة الوسائل ، شاملة لجوانب الاستدلال ، تخاطب العقل والقلب معاً وتناجى الفطرة في أعماقها البعيدة ، وتنادى النفس في خلجاتها القريبة ، وتشد الإنسان إلى آفاق علوية نورانية ، وتهديه إلى مظاهر الجلال والكمال والجمال في ذات الله تعالى .

وسورة البقرة لوحة من تلك اللوحات القرآنية الفريدة .

فهذه السورة أطول سور القرآن ، وهي سورة مدنية ، آياتها ست وثمانون ومائتان ، تشتمل على تسعة عشر رباعاً ونصف الربع ، فهي حزاء وثلاثة أرباع ونصف .

وفي فضلها جاءت أحاديث نبوية شريفة ، منها قول النبي ﷺ - في صحيح مسلم - : « لا تجعلوا بيوتكم مقابر ، إن الشيطان ينفر من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة » .

وسماها الرسول ﷺ الزهراء ، فقال : « اقرأوا الزهراوين ، سورة البقرة وسورة آل عمران ، فإنهما يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان ، أو كأنهما غيايتان ، أو كأنهما فرقان من طير صواف تحاجان عن صاحبهما » ^(١) .

وأخبر صلى الله عليه وسلم أن سورة البقرة ، وسورة آل عمران في مقدمة سور القرآن التي تشفع لقارئ القرآن العامل به ، فقال - كما رواه مسلم - : « يؤتى يوم القيامة بالقرآن وأهله الذين كانوا يعملون به في الدنيا تقدمه سورة البقرة وآل عمران تحاجان عن صاحبهما » .. وفي سورة البقرة آية الكرسي ^(٢) وهي أعظم آية في القرآن ، وجاء في فضلها قول رسول الله ﷺ لأبي بن كعب رضي الله عنه :

(١) العمامة والغاية عمى واحد وهو ما أظل الإنسان فوق رأسه ، والفرقان الجماعتان ، والصواف جمع صاففة وهي ما يسقط حناحيه في الهواء .
(٢) الآية رقم ٢٥٥ من سورة البقرة .

يا أبا المنذر أتدرى أى آية من كتاب الله معك أعظم ؟
فقال أبى بن كعب : الله لا إله إلا هو الحى القيوم .
فضرب رسول الله فى صدره وقال : ليهنك العلم أبا المنذر « رواه مسلم .
وفى سورة البقرة أطول آية فى القرآن ، وهى آية المداينة :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَيْتُمْ بِدِينٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْشِبُوهُ ... ﴾ (١) .

وآخر هذه السورة له منزلة سامية وثواب جليل ، ففى الصحيحين عن أبى مسعود البدرى رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ قال : « من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة فى ليلة كفتاه » (٢) .

٢ - إبداع الصنع :

قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (٣) .

بدأت الآيات هنا بخطاب عام لبني الإنسان يدعوهم إلى عبادة الخالق المبدع الحكيم .

لقد وجد بنو الإنسان بعد عدم ، وتعاقبت البشرية جيلاً بعد جيل ، ولا يدعى أحد منهم أن له يداً فى خلق نفسه ، أو خلق بنى جنسه ، وليس هناك ادعاء لكائن من كان بقدرة على خلق البشر .

وتنحصر قصة الخلق فى مصدر واحد هو الله مانح الوجود وخالق الأحياء ..
وينظر الإنسان حوله فيجد أرضاً ممهدة ذات فجاج ، وسمااء مرتفعة ذات أبراج ، ويرى ماء مدراراً يتنزل من السحاب ، فتتحول الأرض القاحلة إلى حدائق ذات بهجة وثمرات مختلفة ألوانها ، وزروع من كل زوج كريم .

(١) سورة البقرة الآية ٢٨٢ .

(٢) أى كفتاه المكروه تلك الليلة ، أو كفتاه عن قيام الليل .

(٣) سورة البقرة الآيات ٢١ ، ٢٢ .

ويتلفت العقل فلا يقبل دعوى لكائن بشرى فى تصريح هذه الأمور وتديرها ،
ولا يعلم أحداً غير الله أبدعها وقدرها وسواها .

إن استقامة الخلق على سنن ثابتة ، وإبداع الصنع فى عجائب مدهشة ، وكثرة
النعم وعموم نفعها مع امتداد الزمان والمكان ، كل ذلك يؤكد وحدة المصدر وانفراد
التدبير وتوحيد الخالق .

فالمسألة واضحة جلية ، والقضية حقيقة ثابتة ، والإقرار بها هو الحل الصحيح ،
والعقل الرشيد ، والرأى الصائب ، والفطرة النقية ، ولهذا كان النهى عن خداع
النفس ومغالطة العقل ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

لكن الإقرار وحده لا يكفى ، بل لابد أن يندفع الإنسان اندفاعاً ذاتياً بلا تردد
إلى العبادة والخضوع والطاعة لولى النعمة ورب الخلائق ومبدع الكائنات حتى
تتحقق الوقاية من أمراض الشرك وسوءات الانحراف وضلالات الهوى وخرافات
الوهم .

وهنا يصبح الإنسان تقياً نقياً حنيفاً مسلماً .

٣ - انفراد السلطان :

قال الله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ
مِّنْ ذُوْنِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ ^(١) .

تأتى هذه الآية بأسلوب تقرير العلم الإنسانى بقضية التوحيد الكبرى ، المبنية
على أساس أن الملك كله بلا منازع - لله خلقاً وتديراً .

فهذه القضية من الوضوح والجلاء بحيث ندرك إدراكاً جازماً أنه لا أحد غير
الله يملك فى الكون مثقال ذرة ..

ولا أحد يشفع عند الله إلا بإذنه ..

ولا أحد يقهر الله أو يغالبه ..

فلا ملجأ ولا منجى من الله إلا إليه ..

(١) سورة البقرة الآية ١٠٧٠ .

ويتأكد هذا المعنى في سياق الآية التالية : ﴿ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولَّوْا فَحُفَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ ^(١) .

فحيثما توجه الإنسان ببصره وبصيرته ، لا يجد أمامه إلا الله إبداعاً في الكون ، وتديراً للكائنات ، وعلواً عليها ، وقهراً لها ، وإحاطة بها .

ولهذا فمن العار والجهل أن يدعى الإنسان ولداً لله ، فالجميع عباد الله ، خاضعون لجلاله ، خاشعون لكماله ، واقعون في سلطانه .

قال تعالى : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَّهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِثُونَ ﴾ ^(٢) .

إن ادعاء الولد لله تعالى يتنافى مع التنزيه المطلق الواجب لله عز شأنه ، فإذا كان الولد في النطاق البشري يسعد أبويه ، أو يزيدهما رفعة ، أو يبقى لهما ذكراً ، أو يحتاجان إليه في كبرهما ، فهذه معان تدل على النقص البشري الذي يتكامل بغيره ، ويسعى لاكتساب فضل ممن سواه ، أما الإله الحق ذو الحلال والإكرام فهو منزّه عن الوالد والولد .

فإن الله سبحانه هو الخالق وما عداه مخلوق .

وهو سبحانه له الأمر كله وما عداه مأمور .

وهو سبحانه القاهر فوق عباده وما عداه مقهور .

وهو سبحانه الغنى وما عداه فقير .

وهو سبحانه الكبير المتعال وما عداه صغير ، ضعيف لا حول له ولا طول .

ولهذا قال جل شأنه : ﴿ بَدِيعُ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضٰى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ ^(٣) .

والتعبير القرآني ﴿ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ له دلالة في سرعة التحقيق والتنفيذ للإرادة الإلهية بلا معقبات وبلا عقبات وبلا منازع .

(١) سورة البقرة الآية : ١١٥ .

(٢) سورة البقرة الآية : ١١٦ .

(٣) سورة البقرة الآية : ١١٧ .

٤ - وحدة المعبود الحق :

قال تعالى : ﴿ وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ * إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَلَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرَى فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَخْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَضْرِيفِ الرِّيحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (١) .

تبسط الآيات هنا بين يدي الإنسان آثار رحمة الله في الكون والكائنات ، وتدعوه إلى التأمل الواعي والتعقل الرشيد ، ليدرك حقيقة توحيد الله في ربوبيته واستحقاقه وحده للعبادة .

إن المعبود الحق لا يتعدد ، كما أن الخالق لا يتعدد ، وهناك صلة قوية متلازمة بين الإبداع الكوني واستحقاق العبادة ، فكيف يُعبد من لا يخلق ولا يرزق ولا يملك من الأمر شيئاً ؟ اللهم إلا إذا انقلبت الموازين وصاعت القيم واستبدت الأهواء واستحكمت الظلمات .

إن ربنا جل جلاله يتجلى علينا برحمته وبره وإحسانه حيثما توجه النظر . وسأقت الآية هنا عشر نعم جليلة تستوعب الحياة بأسرها ، وتشمل الكون بأجمعه ، فتصعد بنا في أجواء الفضاء ، وتهبط في أغوار المياه ، وتسبح في البر والبحر ، وترشد إلى أنواع الزهور وألوان النبات وأشكال الثمار ، وتبعث الحياة بكل أعادها فيما عظم وفيما صغر ، مما نعلم وما لا نعلم .

فهل يعقل الناس قضية التوحيد الخالص لله رب العالمين ؟ وما يعقلها إلا العالمون .

إن فريقاً من البشر جعلوا لله أنداداً سفهاً بغير علم ، وصرف إليهم الحب والرغبة والرغبة والاستعانة والتوكل والحشوع والتقوى .

(١) سورة البقرة الآية : ١٠٠ - ١٦٤ .

وهذا كله اعتداء صارخ على العقل ، ووأد للفطرة ، وخروج عن مقتضى الحكمة .

والمؤمن وحده هو الذى يضع الأمور فى نصابها ، فيتوجه بقلبه وقالبه إلى الله وحده حاشاً وضراعة ودعاء .

إن المؤمن يعبد الله وحده ، والعبادة هى قمة الحب الإلهى ، قال تعالى : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ...﴾ (١) .

ثم إن المسألة ليست متروكة للأهواء ، يضل من يضل ، وينحرف من ينحرف ، بلا مسئولية ولا جزاء ، وإلا ضاعت كرامة الإنسان !!

إن الحساب والجزاء هو تأكيد لكرامة البشر الذين تحملوا أمانة التكليف وشرف الأمر والنهى .

ومن هذا المنطلق تأتى ملاحقة العدل الإلهى للمكذبين الكافرين المشركين .. قال تعالى : ﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرْوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ (٢) .

إن مسألة الشرك واتخاذ الأنداد تأتى فى الغالب انسياقاً مجرداً عن الوعى ، وتقليداً أعمى بلا تعقل ، ومسايرة بلهاء لكبراء أفسدوا فى الأرض ، وقهروا الناس على عبادة الطواغيت .. وتلك حال مؤسفة ؛ لأنها تسلب عقول المستضعفين وتخدع عقول المستكبرين ، وتجعل الكل فى غيبوبة عقلية .

وما كان الله ليظلمهم ، لقد منحهم العقل وبسط لهم دلائل التوحيد ، وأقام لهم آيات الأنفس والآفاق ، وأنزل لهم الوحى ، وقدم لهم النور .. فاستحبوا العمى على الهدى ، وأثروا متاع الحياة الرحيص ، واستهوتهم الشياطين .

فلا يلومن أحد إلا نفسه ، وستأتى لحظة - لا ريب فيها - يتبادل الناس فيها الاتهامات ويتقاذفون المسئولية ، ويتبرأ كل من كل ، ولات حين مناص !!

(١) ، (٢) سورة البقرة الآية : ١٦٥ .

قال تعالى : ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ۚ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا كُنَّا نَسْتَبْرَأُ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴾ ^(١) .

٥ - التضرّد بصفات الجلال والكمال :

قال تعالى : ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾ ^(٢) .

هذه آية جامعة تأخذ بالألباب ، تبدأ بالاسم العلم الجامع لصفات المحامد والחסن ، إنه لفظ الجلالة « الله » .

ثم تتبعه بكلمة الإخلاص والتوحيد « لا إله إلا هو » .

ثم تصفه بدوام الحياة والقيومية « الحي القيوم » .

من غير غفلة أو نسيان ، ومن غير فتور أو تعب « لا تأخذه سنة ولا نوم »

مع عظم الملك واتساع الملكوت « له ما فى السموات وما فى الأرض » .

ثم تسوق الآية نماذج لهذا السلطان الأعظم وذلك التدبير الأعلى .

فلا احد يملك مع الله من الأمر شيئاً ..

ولا أحد يستطيع التأثير على مسار القدرة الإلهية التى تواصل إبداعها دون

وساطة أو حاجة أو مساندة .

وتنطلق القدرة الإلهية بناء على العلم الشامل الذى لا يعزب عنه مثقال ذرة فى

السماء ولا فى الأرض .

وهو سبحانه يمنح العلم والقدرة لمن يشاء تفضلاً وبقدر ، فالكمال والجلال لله

وحده « من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه !؟ »

(١) سورة البقرة الآية : ١٦ ، ١٦٧ .

(٢) سورة البقرة الآية ٢٠٥ .

﴿ يَظُنُّ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ﴾ .

ومع اتساع الملك الإلهي وسعة العلم الرباني وطلاقة القدرة وهيمنة الحكم وفهر السلطان ، ورحمة الربوبية والقيام على كل شيء ، فإن الله سبحانه لا يناله تعب أو نصب ، ولا يعجزه شيء ، فهو جل شأنه على متعال ، عظيم ، كبير ، متكبر ..وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ .

٦ - حوار في الله ومع الله :

إن الله وحده هو الذى خلق وأبدع .. ولم يصنع الخلق عبثاً ولن يتركه هملأً ،
فإنه تعالى خلق ودبر وسيحاسب كل نفس بما تسعى ..

وتسوق سورة البقرة ثلاثة حوارات حول هذا المعنى :

- حواراً بين إبراهيم الخليل والملك الطاغية .

- حواراً بين الله تعالى والرجل الصالح .

- حواراً بين الله تعالى وإبراهيم الخليل .

في الحوار الأول ادعى الملك الربوبية لنفسه اختيلاً بقوته واغتراراً بسلطانه ، فحاجه إبراهيم عليه السلام ، وبين له أن الحياة والموت بيد الله وحده ، وأن الملك مغرور نسي خلقه وتناسى نهايته ، فاستكبر الطاغية وتعامى ، فقال : أنا أحي وأميت !!

وأتى بشخصين محكوم عليهما بالإعدام ، فعفا عن أحدهما وقتل الآخر ..
وتلك صورة ساذجة ليس فيها خلق الحياة ولا خلق الموت ، وانتقل إبراهيم إلى مشهد آخر للقدرة الإلهية المبدعة لا يطاول ولا ينفع معه الادعاء ، إنه مشهد الشمس فى شروقها وغروبها وثبات ناموسها ، فانتقطعت حجة الطاغية ووقف حائراً مبهوراً .

قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُعْبَدُ وَنُحِيتُ قَالَ أَنَا أُخِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ ^(١) .

(١) سورة البقرة الآية ٢٥٨ .

وفى الحوار الثانى مرّ رجل صالح ، قيل هو عزيز ، على قرية خربة ، باد أهلها وسقطت حيطانها ، فوقف متأملاً وقال : أننى يحيى هذه الله بعد موتها ؟ أى كيف أو متى يبعث الله أهل هذه القرية بعد موتهم ؟ أو يعيد هذه القرية إلى سابق عهدها بعد حرابها ؟

فأجرى الله تعالى عليه تجربة ذاتية ولقنه درساً من نفسه ، فأماته مائة عام ، ثم أعاده إلى الحياة ، فقام الرجل ينظر حوله وتسأل : كم مضى من الوقت فى غيبته أو غيبوته عن الحياة ؟

وظن ذلك يوماً أو بعض يوم ، لكنه التفت فوجد شيئاً عجيباً . إن طعامه وشرابه لم يتغير ، وإن حماره الذى يركبه قد أصبح عظماً بخره !! يا لهول الموقف ..
الطعام لم يفسد ، والحمار تفرقت عظامه !!
وإذا بالنداء الإلهى : قال بل لست مائة عام !!

وهاهى ذى تجربة إحياء الموتى : العظام تتجمع وتتآلف فى تناسق عجيب ، وتتوالى عليها لحومها ودمائها ، وتدب الحياة فيها ، وينطلق الحمار بصاحبه يحمل متاعه ويسير على الطريق .

قال تعالى : ﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ .

وفى الحوار الثالث تسأل إبراهيم الخليل عليه السلام عن كيفية إحياء الله الموتى ، ليس شكاً فى القدرة الإلهية ، ولكن انتقالاً من علم اليقين إلى عين اليقين ، فأمره الله تعالى بإمساك أربعة طيور وتقطيعها إرباً إرباً ، والرمى بها على رؤوس الجبال .

فإن ذلك لن يعجز الله ، ولن يمنع قدرته على إحياء الموتى .

(١) سورة البقرة الآية ٢٥٩ .

لقد وقف إبراهيم عليه السلام ودعا الأجزاء المبعثرة والمتباعدة ، فأسرع كل جزء إلى مثله ، وتجمعت أجزاء كل طائر على حدة ، وبعث الله فيه الحياة وعاد الطائر طليقاً كما كان .

أليس ذلك القادر واحداً في تدبيره ، واحداً في علمه ، واحداً في قدرته ، واحداً في سلطانه ، واحداً في عدله وحكمه ، واحداً في حسابه وجزائه ، واحداً في ثوابه وعقابه ، متفرداً بالجلال والكمال والجمال ؟ ١٩ .

قال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُخَيِّمُ الْمَوْتَى قَالَ أُولَئِكَ ثُمُنٌ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيُطَمِّئَنَّ قُلُوبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءً ثُمَّ اذْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (١) .

٧ - أحدية الله في الخلق والجزاء :

وتأكيداً لحقيقة أن الخالق الواحد الأحد هو الفتاح العليم ، وهو الحكم العدل اللطيف ، جاءت الآيات بعد ذلك تدعو إلى تجريد العمل لله وحده ، وإخلاص النية له سبحانه ، فنهت عن الرياء ، وضربت لذلك الأمثال .

قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ (٢) .

فالمرائي لا ثواب له عند الله رغم بذله وانفاقه وكثرة صدقاته ، ومثله كمثل صفوان : أي حجر كبير أملس ، عليه تراب يشبه تربة الأرض ، فنزل عليه المطر شديداً عظيم القطر ، فلم يثبت الماء ولم يبق التراب وتركه المطر بلا أثر صلباً ، لا نبات فيه ، ولا ثمر ، ولا يصلح لشيء مما ينفع الناس .

(١) سورة البقرة الآية - ٢٦٠ .

(٢) سورة البقرة الآية : ٢٦٤ .

أما المخلصون لله وحده فإن أعمالهم تتنامى ، وثوابهم يتضاعف كمثل حديقة غناء فى موقع مرتفع من الأرض يصيبها المطر الشديد والقطر الخفيف ، ولا ينقطع ثمرها لجودة أرضها وخصوبة موقعها ، فيظل الانتفاع بها دائماً .

قال تعالى : ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَخْشِيَةً مِّنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلَّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ ^(١) .

ونقترب من ختام السورة لتأتى آخر آية نزلت من القرآن تبين ختام قصة الحياة وأن المنتهى إلى الله ، وأن هناك الحساب والحزاء بميزان العدل الإلهى .

قال تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُزْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ ^(٢) .

فالله جل جلاله هو الأول والآخر ، وهو سبحانه الواحد الأحد فى الخلق والتدبير والحزاء .

* * *

(١) سورة البقرة الآية . ٢٦٥ .

(٢) سورة البقرة الآية ٢٨١

المبحث الرابع

جدال في الله

- * أهمية الجدل .
- * أنواع الجدل .
- * دليل الحدوث .
- * اعتراض الفلاسفة الإسلاميين .
 - قضية الجوهر الفرد .
 - قضية التسلسل .
 - الإرادة والقدرة الإلهيتان .
- * دليل الإمكان .
- * إشارات ابن سينا .
- * دليل التوارد والتمانع .
- * الوسوسة .

جدال فى الله

أهمية الجدال :

الجدل والحوار والمناقشة والمحااجة والمناظرة قد تلتقى وقد تختلف ، ولسنا فى مجال تحقيق القول فى ذلك ، لكننا نريد أن نقتصر على لفظ الجدل ومشتقاته فى البيان القرآنى ، وبداية فإن كتب اللغة تبين أن مادة الجدل تدور حول الشدة مطلقاً ، تقول :

جدلت الحبلى إذا شددت فتله .
جدل الحب فى سنبله إذا قوى واشتد .
ورجل جليل إذا قوى فى الخصومة .
وغلام جادل إذا اشتد .

هذا وقد جعل القرآن الجدل من طبيعة الإنسان ، فقال : ﴿ .. وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴾ ^(١) .

فإن الجدل مرتبط بالبيان ، والقدرة على البيان هى خاصة الخصائص لبنى الإنسان ، قال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴾ ^(٢) .

وجاء التأكيد القرآنى فى مناهج الدعوة إلى الله على أهمية الجدل بالتي هى أحسن بمعنى صدق الدليل واحترام الخصم والتلطف معه والحرص عليه .. قال تعالى : ﴿ اذْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ ^(٣) .

(١) سورة الكهف الآية : ٥٤ .

(٢) سورة يس الآية : ٧٧ .

(٣) سورة النحل الآية : ١٢٥ .

وقال جل شأنه : ﴿ وَلَا تَجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ... ﴾ (١) .

إن الجدل ذو أهمية كبيرة في حياة الناس الخاصة والعامة ، ولهذا جاءت في القرآن سورة تسمى سورة المجادلة (بفتح الدال على المصدر) أو المجادلة (بكسر الدال - اسم فاعل) ، لتحكى قصة امرأة ظاهر منها زوجها ، فجاءت تشكو إلى رسول الله ﷺ وتستفتيه في أمر علاقتها الزوجية ، وكان الظهار طلاقاً في الجاهلية ، وظلت المرأة تراجع رسول الله ﷺ ، وتجادله حرصاً منها على مستقبل أولادها وظروف حياتها ، وقالت : يا رسول الله أكل مالى ، وأفنى شبابى ، ونثرت له بطنى حتى إذا كبرت سنى وانقطع ولدى ظاهر منى .

هنا نزل القرآن بحكم حديد هو كفارة الظهار ، وجاءت السورة تحمل اسم المجادلة ، قال تعالى : ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُزَكَمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ (٢) .

وتتجلى أهمية الجدل في الدنيا والآخرة ، فإن موقف الحساب والجزاء يوم القيامة تجتمع فيه من الشواهد والبيّنات والوثائق ما لا يمكن إنكاره أو التكرار له ، ويتولى كل إنسان الدفاع عن نفسه بلا واسطة ، وتوضع موازين القسط .. قال تعالى : ﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (٣) .

* * *

(١) سورة العنكبوت الآية : ٤٦ .

(٢) سورة المجادلة الآية : ١ .

(٣) سورة الحل الآية . ١١١ .

أنواع الجدل

الجدال قد يكون محموداً ، وقد يكون مذموماً ، شأنه فى ذلك شأن كثير من أمور هذه الحياة .. تمدح بالنية أو الوسيلة ، وقد تذم بأحدهما أو بهما معاً . فالجدل المحمود ما كان دفاعاً عن الحق ، ونصرة للفضيلة ، وتأيداً لمسالك الرشد ومحاسن الأخلاق .

وقد قام به الأنبياء والمصلحون والدعاة فى كل زمان ومكان ، يحملون دلائل الحق واضحة وضوح الشمس فى رابعة النهار ، ويقدمون براهين الحقيقة عذبة كأنها ماء الحياة .

فشيخ الأنبياء نوح عليه السلام نصح قومه ، وكشف لهم بينات الهدى ، ووضح لهم طريق الرشاد ، وناقشهم مناقشة ضافية حول قدرة الله تعالى وإبداع صنعه ، ولكنهم أصروا واستكبروا استكباراً :

﴿ قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾^(١)

والجدال المذموم ما كان دفاعاً عن الباطل ، أو ترويحاً للكذب ، أو تزييماً للقبيح ، أو تأييداً للبدعة أو إشاعة للمنكر ..

وقد حكى القرآن المجيد جدال المشركين حول قضايا التوحيد وأصول الدين حين قالوا : ﴿ أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾^(٢) .

﴿ .. مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾^(٣) .

﴿ .. لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾^(٤) .

(٢) سورة ص ، الآية ٥ .

(٤) سورة الرحمن الآية ٣١

(١) سورة هود الآية ٣٢

(٣) سورة يس الآية ٧٨

﴿.. لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ...﴾ (١) .

وهذا كله جدل بالباطل في الله وآياته لا يصدر عن فكر ولا يقدم دليلاً ولا يسلك مسلك البرهان .. قال تعالى : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾ ثَانِي عَظِيمُهُ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلِلَّذِينَ يَزْمُونَ الْقِيَامَةَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٢﴾ .

فهؤلاء فقدوا العلم الضروري ، والنظر السليم والوحي الصحيح ، فليس لديهم سند لمعتقدهم ، وإنما ساقهم إلى الجدل بالباطل الكبرياء على الحق والكبر على الخلق .

وقد عبر القرآن عن هذا المعنى في آية أخرى هي قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (٣) .

وأكد القرآن أن الجدل بالباطل موجود في كل أمة ، ويتبناه المفسدون في كل جيل ، ويتصارع مع الحق في كل عصر ، لكن تبقى العاقبة لقوة الحق ونور الحقيقة .. قال تعالى : ﴿.. وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالبَّاطِلِ لِيُذْهِبُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ (٤) .

وتلك العاقبة الحميدة للحق لن تتخلف .

وهذه النهاية المشئومة للباطل لن تتبدل .

﴿وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مُّجِيبٍ﴾ (٥) .

* * *

(١) سورة الزخرف الآية : ٢٠ .

(٢) سورة الحج الآيتان : ٨ ، ٩ .

(٣) سورة عافر الآية : ٥٦ .

(٤) سورة غافر الآية : ٥ .

(٥) سورة الشورى الآية : ٣٥ .

دليل الحدوث

. استدلل المتكلمون على وجود الله تعالى بدليل الحدوث ، ويعنون به أن العالم - وهو كل ما سوى الله تعالى - حادث وجد بعد عدم ، وأن مولده هو الله وحده ، ويصوغون الدليل هكذا :

العالم حادث ، وكل حادث لابد له من محدث قديم .

إذن فالعالم لابد له من محدث قديم .

فالقضية الأولى « العالم حادث » هي صغرى القياس من الشكل الأول .

والقضية الثانية « كل حادث لابد له من محدث قديم » هي كبرى القياس من الشكل الأول .

والقضية الثالثة « العالم لابد له من محدث قديم » هي نتيجة القياس .

والمقدمتان الأولى والثانية نظريتان تحتاجان إلى استدلال كي نسلم بالنتيجة .

دليل المقدمة الأولى :

العالم حادث :

استدلل المتكلمون على حدوث العالم بالتغير وقالوا :

العالم متغير ، وكل متغير حادث .. إذن فالعالم حادث .

فنحن بالمشاهدة ندرك التغير في الليل والنهار ، والحركة والسكون ، والحرارة والبرودة ، والسواد والبياض ، والحياة والموت ... إلخ .

وما قد نشاهده على حال واحدة فإن تغيره ممكن وواقع قد يدركه جيل بعدنا ، فالجبال الشوامخ ألفناها ثابتة قروناً عديدة ، وهي الآن تُزال وتُدمر تدميراً ، وإن العلم الحديث يثبت أن الكواكب السيارة يمكن أن تخرج عن مسارها وتتفجر في أية لحظة .

فكل شيء متغير ..

الإنسان يكون نطفة وعلقة ومضغة ، وطفلاً وشاباً وكهلاً .
والذرة تتحول إلى طاقة .

والعناصر تتفاعل .. إن تركيب الأكسجين والهيدروجين بنسبة معينة ينتج الماء ،
وهذا الماء تحت ضغط حرارة معينة يتحول إلى بخار ، والبخار يمكن تكثيفه فيعود إلى
ماء .

وقد حاول الأقدمون تقسيم العالم إلى جواهر وأعراض^(١) وحكموا على
الأعراض بالتغير والحدوث بالمشاهدة ، وحكموا على الجواهر بالتغير والحدوث
بملازمة الأعراض .
ولهم سلسلة من الاستدلالات .

لقد أثبتوا حدوث الأعراض بمطالب سبعة نظمها بعضهم في قوله :
زَيْدٌ ، م قام ، ما انتقل ، ما كمنّا ، ما انفك ، لا عُذْمٌ قديم ، لاحنا^(٢)

لقد أثبت المتكلمون : أولاً : زيادة الأعراض على الجواهر بالمشاهدة .

وثانياً : نفوا أن يقوم العرض بنفسه لأنه لا يعقل صفة من غير موصوف .

وثالثاً : نفوا أن ينتقل العرض من جوهر إلى جوهر ، لأنه في حال الانتقال
يكون قائماً بنفسه وهو ما يتناقض مع تعريف العرض .

ورابعاً : نفوا أن يكون العرض كامناً في الجوهر عند طريان ضده ، لأنه يلزم
عليه الجمع بين التقيضين أو الضدين في محل واحد .

وخامساً : نفوا أن ينفك الجوهر عن الأعراض مطلقاً ، لأنه لا يعقل خلو جوهر
عن الحركة والسكون معاً ، فذلك رفع للتقيضين محال .

وسادساً : نفوا أن يكون العرض قديماً ، ثم عدم في حال طريان ضده ، لأن

(١) الجوهر ما قام بنفسه ، والعرض ما قام بغيره .

(٢) لاحنا نحت من قولهم : استحالة حوادث لا أول لها ، وقوله : «عُذْمٌ» بضم العين وسكون
الدال ، وقوله : «ما انتقل» سكون اللام للورن ، وقوله : «م قام» بحذف ألف ما السافية للورن .

راجع حاشية على شرح أم الرازي تأليف محمد بن أحمد بن عرفة الدسوقي المتوفى سنة ١٢٣٠ هـ
وبهامشه شرح أم الرازي للشيخ القوسي ط ١٣٥٨ هـ ص ١٥٢ .

القديم الواجب لا يقبل العدم وإلا كان قلباً للحقائق .

وسائياً : نفوا أن تكون الأعراض حادثة بلا بداية ، فما من حادث إلا وقبله حادث ، لأن مفهوم الحادث ما له بداية ، فكيف يعقل حادث لا بداية له .
ويعد أن انتهى المتكلمون من إثبات حدوث الأعراض حكموا بحدوث الجواهر بدليل الملازمة هكذا :

الجواهر ملازمة للأعراض الحادثة ، وكل ما لازم الحادث فهو حادث .
إذن الجواهر حادثة .

دليل المقدمة الثانية :

وكل حادث لا بد له من محدث قديم :

الحادث هو ما وجد بعد عدم .
وهذا الوجود قائم على إبداع وحكمة وإتقان .
وليس معقولاً أن يكون الحادث الذى هو العالم وجد مصادفة ، فإن المصادفة لا تخلق نظاماً .

وليس يعقل أن يكون الحادث أوجده حادث مثله ، لأنهما متساويان ، يجرى فى أحدهما ما يجرى فى الآخر ، فيحتاج كل منهما إلى محدث قديم ، وإلا دار الأمر أو تسلسل وكلاهما باطل .

فالدور توقف شئ على شئ قد توقف على الأول بمرتبة أو مراتب ، كتوقف وجود « أ » على (ب) ، وتوقف (ب) على (أ) .

أو توقف (أ) على (ب) ، وتوقف (ب) على (ح) ، وتوقف (ج) على (د) ، ثم توقف (د) على (أ) .

فالدور باطل ، لأنه يقتضى التقدم والتأخر فى لحظة واحدة ، أو الوجود والعدم فى وقت واحد ، وهذا جمع بين التقيضين محال .

فهو يقتضى وجود (أ) باعتباره محدثاً ، ويقتضى فى اللحظة نفسها عدم (أ) باعتباره حادثاً .

أما التسلسل فهو تعاقب الحوادث فى الماضى بلا بداية ، فما من حادث إلا وقبله حادث إلى ما لا نهاية .. وهذا باطل ، لأن ما حصره الوجود فهو حادث له بداية ، وهو يختلف عن حوادث المستقبل ؛ لأنها مجرد تخيل ويمكن للذهن أن يتصور حوادث بعدها حوادث مستقبلاً بلا انقطاع .

هذا وليس يعقل أن يكون الحادث وجد من ذاته وطبيعته ، لأن ما بالذات لا يتخلف ، فإذا كان من طبيعته الوجود تحتم القدم له ولزمه الوجود وانقلبت حقيقته من الحادث إلى القديم ، ومن الممكن إلى الواجب ، وقلب الحقائق محال . فلا بد أن ينتهى الحادث إلى محدث قديم ، منعه الوجود وأبدع صنعه وتولى شقونه .

ذلكم المحدث القديم هو الله تعالى واجب الوجود بذاته .

* * *

اعتراض الفلاسفة الإسلاميين

الفلاسفة يقولون بقديم العالم ، ويشبتون وجود الله تعالى ، ويتبنون ما يسمى بنظرية العقول العشرة ، ويزعمون أن العالم صدر عن الله تعالى صدور العلة عن معلولها ، ويصفون العالم بالقديم الزماني ، وهو ما لا يسبقه عدم ويحتاج إلى مؤثر ، هو الله تعالى الموصوف وحده بالقديم الذاتي .

ويذهبون إلى أن الله تعالى واحد من كل وجه ، فلا يصدر عنه إلا واحد .. وهذا الواحد الصادر عن الله متكرر بالاعتبار ، فهو متصف بالإمكان من حيث إن غيره أثر فيه ، وبالوجوب من حيث إنه علة للقديم ، فهذا الواحد قديم بقديم علته .

ويتوالى الفيض ويتكاثر الصدور حتى تصل الأفلاك إلى تسعة ، والعقول إلى عشرة ، ويصبح فلك القمر هو الفلك التاسع ، ويصير عقل فلك القمر هو العقل العاشر المسمى عندهم بالعقل الفعال ، وهو الذى يدير العالم الأرضي^(١) .

وعلى هذا فالعالم فى جملته عندهم قديم بالزمان ، حادث بالذات ، ولا أول له ، لأن العلة والمعلول مقترنان ، ويرون أن الجزئيات والأفراد حادثة ذاتاً وزماناً .

وهناك بحوث مطولة ونزاع كبير حول قدم العالم وحدوثه ، اشترك فيها الفلاسفة والمتكلمون وأنصار الاتجاه السلفى ، وقد كَفَّرَ الإمام أبو حامد الغزالى الفلاسفة لقولهم بقديم العالم^(٢) ، وجاء ابن رشد ليهون من نظرية قدم العالم ، ويرى أن نصوص الكتاب العزيز تشير إلى مادة أزلية سابقة على خلق العالم المشاهد مثل الماء فى قوله تعالى : ﴿ .. وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى السَّمَاءِ ... ﴾ ومثل الدخان فى قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ ... ﴾^(٣) .

(١) راجع كتابا (المجتمع المثالى فى الفكر الفلسفى وموقف الإسلام منه) ص ١٩٦ - ٢١٠ طعة دار المعارف بمصر ، وكتاب (آراء أهل المدينة الفاضلة) للغزالي .

(٢) راجع كتاب (نهضة الفلاسفة) تحقيق د. سليمان دينا ، ط دار المعارف بمصر .

(٣) راجع كتاب (مناهج الأدلة فى عقائد الملة) تحقيق د. محمود قاسم - ط مكتبة الأنجلو المصرية

ثم تبنى أنصار الاتجاه السلفى القضية القائلة بجواز حوادث لا أول لها فى الماضى وجعلوها أظهر الأقوال ، وانتصروا للرأى القائل بأن العالم مخلوق من مادة ، وكأن المادة ليست من العالم .

وقال شارح العقيدة الطحاوية :

وأما قول من قال بجواز حوادث لا أول لها من القائلين بحدوث لا آخر لها ^(١) فأظهر فى الصحة من قول من فرق بينهما فإنه سبحانه لم يزل حياً ، والفعل من لوازم الحياة ، فلم يزل فاعلاً لما يريد كما وصف بذلك نفسه حيث يقول ، ﴿ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ ﴾ ^(٢) .

وحمل الشارح الآية على أن الفعل أكمل من عدم الفعل ، وأن الفعل والإرادة متلازمان ، ووصف القائلين بأن الحوادث لها أول بأنهم معطلة ^(٣) .
لقد تمحضت مسألة حدوث العالم أو قدمه عن قضايا جدلية كثيرة منها :

١ - قضية الجوهر الفرد :

اعتمد المتكلمون فى إثبات حدوث العالم على نظرية ديمقريطس اليونانى (ت ٣٦٠ ق . م تقريباً) فى الذرة ، وهى جزيئات مادية غير قابلة للانقسام ، لا تختلف إلا بصورها وأحجامها ، وقد رفض هذه النظرية كثير من العلماء ، وخاصة فى العصر الحديث ، حيث تبين أن الذرة نفسها مركبة وأنها قابلة للانصهار والتحول من المادة إلى الطاقة .

ومن السهل أن نلقى بقضية الجوهر الفرد فى اليم ، ولا يضير ذلك مسألة حدوث العالم ، فالتغير قائم فى كل شئ ، وقضية وجود الله تعالى أعمق من كل دليل ، وأصح من كل برهان ، وأقوى من كل حجة .

(١) من الناس من ذهب إلى أولية الحوادث ونهايتها ، فقال بمساء الحية والبار مثل حهم بن صفوان ، ومنهم من قال بعدم أولية الحوادث وعدم آخرتها كالأنصار الاتجاه الفلسفى والسلفى ، ومنهم من فرق فأحال عدم أولية الحوادث وأحاز عدم نهايتها كجمهور العلماء .

(٢) سورة البروج الآيتان ١٥ ، ١٦ .

(٣) شرح العقيدة الطحاوية ص ١٣٧ - طبعة المكتب الإسلامى .

﴿ .. قُلِ اللَّهُ ثُمَّ دَرَزَهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾^(١) .

٢ - قضية التسلسل :

انتصر القائلون بحدوث العالم لقضية استحالة التسلسل إلى غير بداية في الماضي ، وشنعوا على من قال بحدوث لا أول لها .

وقد تبني قضية « حوادث لا أول لها » فلاسفة وسلفيون ، ووقعوا في تناقض ظاهر حين جمعوا بين الحدوث والقدم ، فإن مفهوم الحادث ما له أول ، وهو يناقض قولهم : لا أول له ، وما تركب من حوادث فهو حادث قطعاً .

ثم إن حديث القرآن عن الخلق سبقه كلمة بدأ ، أو يبدأ ، أو يبدئ ، مما يدل دلالة قوية على أن للخلق أولية ، وللحدوث بداية ، ولكل شيء في الكون نقطة ابتداء سبقها عدم المحض الذي ليس بشيء .

وجاء ذلك في أساليب بيانية متنوعة ، منها :

* أسلوب التأكيد بأن ، كما في قوله تعالى : ﴿ .. إِنَّهُ يَتَدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾^(٢)

* أسلوب التأكيد بالجملة الاسمية وضمير الفعل وحرف التأكيد كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ هُوَ يَتَدَأُ وَيُعِيدُ ﴾ ، وهذه الآية من سورة البروج ، تسق بآيتين قوله تعالى : ﴿ فَعَالٍ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ وكأنها تفسير لمعنى الفعل الذي لا يكون إلا حدوثاً له بداية .

* أسلوب الاستفهام الإنكارى الذى ينزع فعل الخلق من الشركاء المزعومين ويثبتته لله وحده ، وهو فعل له بدء وليس قديماً .. قال تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَّنْ يَتَدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَتَدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴾^(٣)

(١) سورة الأعمام الآية ٩١٠

(٢) سورة يونس الآية ٤٠ .

(٣) سورة يونس الآية : ٣٤

« أسلوب الاستفهام التقريرى للحقيقة نفسها ، وهى بدء الخلق ، كما فى قوله تعالى : ﴿ أَتَمْنِ يَتَدَا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَلِلَّةٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ^(١) .

« أسلوب الاستفهام التقريرى للعلم بهذه الحقيقة ، وكأن بدء الخلق من الوضوح والظهور بحيث لا يخفى على ذى فطنة ، كما فى قوله تعالى : ﴿ أَوْ لَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ ^(٢) .

« أسلوب الأمر بالبحث عن حقيقة بدء الخلق وأول النشأة لهذا الكون الفسيح وتلك المخلوقات العجيبة ، كما فى قوله تعالى : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ^(٣) .

فقضية « حوادث لا أول لها » وهم كبير وخدعة لا تخفى على ذى لب !!

٣ - الإرادة والقدرة الإلهيتان :

تساءل الفرقاء عن الإرادة والقدرة الإلهيتين : هل هما متلازمتان ؟ فما أرادته الله أولاً أوجده أولاً ، ولا تنفك الإرادة عن الفعل ولا ينفصل الفعل عن الإرادة ١٩

لقد رفض القائلون بقديم العالم ما يسمى عند المتكلمين بالصلوحى القديم والتنجيزى الحادث ، بمعنى صلاحية القدرة فى الأزل للإيجاد فيما لا يزال .

وجرت مداخلات فكرية حول قوله تعالى : ﴿ فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ ، وظن البعض أن الفعل أكمل من عدم الفعل ، وذهبوا إلى القول بقديم العالم ، ووقعوا فى تصور خاطئ حين أخذوا القضية على إطلاقها ، لأنه لا أحد يقول : إن الله لا يفعل مطلقاً حتى يقال له : إن الفعل أكمل من عدم الفعل .

وإنما الخلاف حول مفهوم الإرادة والاختيار ، فال مختار المريد يفعل ما يشاء متى شاء وكيف شاء ، وعدم الفعل ليس عجزاً ، والفعل نفسه ليس قهراً وقسراً .

(١) سورة السمل الآية . ٦٤ .

(٢) سورة العنكبوت الآية : ١٩ .

(٣) سورة العنكبوت الآية : ٢٠ .

ورغم أن القضية برمتها من أفق سام يتعلق بالذات الأقدس ، ويفوق التصور البشرى إلا أن الأقرب إلى الفهم هو القول ببدء الخلق وأولية النشأة وبداية التكوين وحدوث العالم .

وإن تلازم الفعل للإرادة أزلاً بحيث يؤدي إلى قدم العالم وحوادث لا أول لها هو قول بالعلة ، ونفى للاختيار لا يتناسب مع جلال الله وكماله ، ويتنافى مع قوله تعالى : ﴿ وَرَبُّكَ يُخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ... ﴾^(١) .
﴿ لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ ﴾^(٢) .

وليتأدب الفرقاء فإن هذه المسألة من غيب الغيوب ، وقد قال الله تعالى : ﴿ مَا أَشْهَدُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَصَدًا ﴾^(٣) .

* * *

(١) سورة القصص الآية : ٦٨ .

(٢) سورة الأنبياء الآية : ٢٣ .

(٣) سورة الكهف الآية : ٥١ .

دليل الإمكان

يستدل الفلاسفة على وجود الله تعالى بدليل الإمكان ، ويرفضون دليل الحدوث ، لأن العالم عندهم قديم بالزمان ، لم يسبقه عدم ، وهو يحتاج إلى مؤثر ، فقدم العالم تابع لقدم الله تعالى بطريق العلة التي لا تتخلف عن المعلول .

وقد يسمون هذا المعنى بالحدوث الذاتي .

والتكلمون لا يمنعون الاستدلال بدليل الإمكان ، لأن كل ممكن عندهم حادث بالزمان : أى سبقه عدم .

ويصاغ دليل الإمكان هكذا :

العالم ممكن لذاته ، وكل ممكن لذاته مفتقر إلى واجب الوجود لذاته ، فتكون النتيجة : العالم مفتقر إلى واجب الوجود لذاته .

ونشرح هذا الدليل على النحو التالي :

١ - الممكن يستوى طرفا وجوده وعدمه ، فليس وجوده من ذاته وإلا صار واجب الوجود لا يقبل العدم .. وليس عدمه من ذاته ، وإلا صار مستحيلاً لا يقبل الوجود أصلاً .. فقبول العالم للوجود والعدم دليل إمكانه .

٢ - وجود الممكن يحتاج إلى مرجح ، لأن وجوده ليس ذاتياً .

٣ - هذا المرجح إما أن يكون نفس الممكن أو غير الممكن .

٤ - إذا كان المرجح نفس الممكن فهو باطل ، لأنه يقتضى التقدم باعتباره فاعلاً ، والتأخر باعتباره مفعولاً ، كل ذلك فى لحظة واحدة ، وهذا جمع بين التقيضين محال .

٥ - إذا كان المرجح غير الممكن فهو أحد أمرين لا ثالث لهما :

(أ) المستحيل . (ب) واجب الوجود .

٦ - إذا كان المرجح هو المستحيل فهو باطل ، لأن المستحيل عدم ، فلا يعقل أن يمنح الوجود ، لأنه فاقد له ، وفاقد الشيء لا يعطيه .

٧ - فلا يبقى إلا أن يكون المرجح واجب الوجود ، وهو الله تعالى .

إشارات ابن سينا

قدم الشيخ الرئيس ابن سينا (ت ٤٢٨ هـ) الدليل الفلسفى على وجود الله تعالى فى إشاراتهِ وتنبيهاته بألفاظهِ الموجزة وتعبيراته الدقيقة ، فقال :

الفصل التاسع : تنبيه :

كل موجود إذا التفت إليه من حيث ذاته من غير التفات إلى غيره :

فإما أن يكون بحيث يجب له الوجود فى نفسه أو لا يكون .

وإن لم يجب لم يحز أن يقال : إنه ممتنع بذاته بعدما فرض موجوداً ، بل إن قرن باعتبار ذاته شرط مثل شرط عدم علته صار ممتنعاً ، أو مثل شرط وجود علته صار واجباً .

وإن لم يقرن بها شرط ، لا حصول علة ولا عدمها ، بقى له فى ذاته الأمر الثالث وهو الإمكان ، فيكون باعتبار ذاته الشيء الذى لا يجب ولا يمتنع .

فكل موجود :

إما واجب الوجود بذاته .

أو ممكن الوجود بذاته .

* * *

الفصل العاشر : إشارة :

ما حقه فى نفسه الإمكان فليس يصير موجوداً من ذاته ، فإنه ليس وجوده من ذاته أولى من عدمه ، من حيث هو ممكن .

فإن صار أحدهما أولى فلحضور شيء أو غيبته .

فوجود كل ممكن هو من غيره .

الفصل الحادى عشر : تنبيه :

إما أن يتسلسل ذلك إلى غير النهاية ، فيكون كل واحد من آحاد السلسلة ممكناً فى ذاته ، والجملة متعلقة بها ، فتكون غير واجبة أيضاً ، وتجب بغيرها .. ولنزد هذا بياناً .

الفصل الثانى عشر : شرح :

كل جملة ، كل واحد منها معلول ، فإنها تقتضى علة خارجة عن آحادها ، وذلك لأنها :

• إما أن لا تقتضى علة أصلاً ، فتكون واجبة غير ممكنة ، وكيف يتأتى هذا وإنما يجب بآحادها ١٩

• وإما أن تقتضى علة هى الآحاد بأسرها ، فتكون معلولة لذاتها ، فإن تلك الجملة والكل شىء واحد .

وأما الكل بمعنى كل واحد فليس تجب به الجملة .

• وإما أن تقتضى علة هى بعض الآحاد ، وليس بعض الآحاد أولى بذلك من بعض ، إذا كان كل واحد منها معلولاً ، لأن علته أولى بذلك

وإما أن تقتضى علة خارجة عن الآحاد كلها وهو الباقي

* * *

الفصل الثالث عشر : إشارة :

كل علة جملة هى غير شىء من آحادها ، فهى علة أولاً للآحاد ، ثم للجملة ولا فلتكن الآحاد غير محتاجة إليها .

فالجملة إذا تمت بآحادها لم يحتج إليها ، بل ربما كان شىء ما علة لبعض الآحاد دون بعض ، فلم تكن علة للجملة على الإطلاق .

* * *

الفصل الرابع عشر : إشارة :

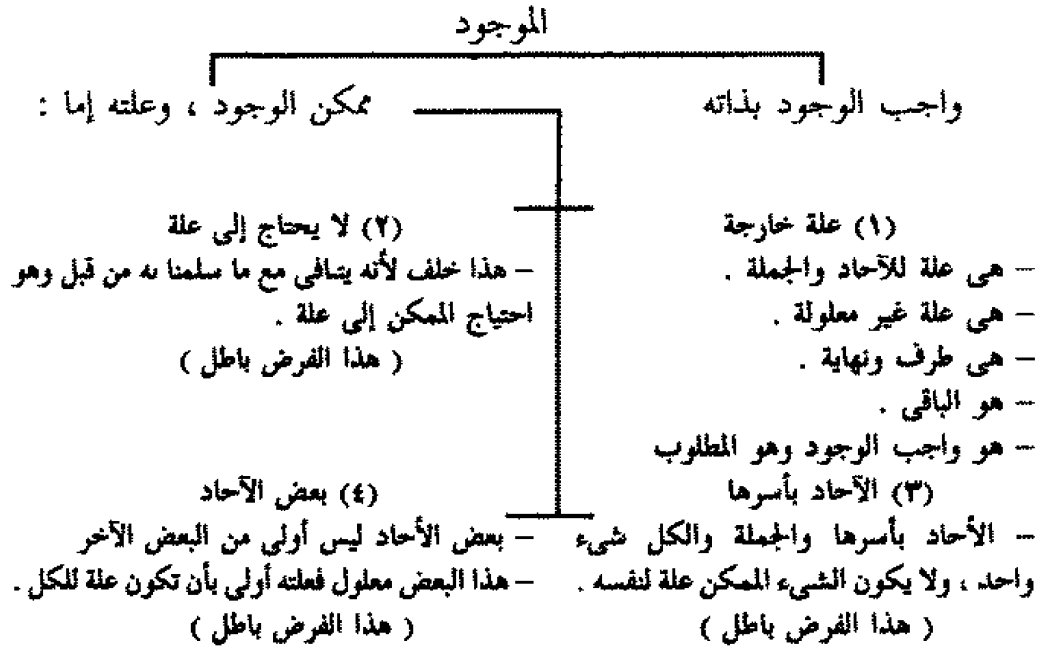
كل جملة مترتبة من علل ومعلولات على الولاء ، وفيها علة غير معلولة فهي طرف ، لأنها إن كانت وسطا فهي معلولة .

الفصل الخامس عشر : إشارة :

كل سلسلة مترتبة من علل ومعلولات - كانت متناهية أو غير متناهية - فقد ظهر أنها إذا لم تكن فيها إلا معلول احتاجت إلى علة خارجة عنها ، لكنها تتصل بها لا محالة طرفاً .

وظهر أنه إن كان فيها ما ليس بمعلول فهي طرف ونهاية ..
فكل سلسلة تنتهي إلى واجب الوجود بذاته ^(١) .

رسم توضيحي لفكرة ابن سينا



(١) الإشارات والتبسيطات لأبي علي بن سينا ، مع شرح نصير الدين الطوسي تحقيق د. سليمان دنيا - القسم الثالث - الطبعة الثانية - دار المعارف .

دليل التوارد والتمانع

يقدم المتكلمون مجموعة أدلة على وحدانية الله تعالى ، أشهرها ما يسمى دليل التوارد والتمانع ، ويستخلصونه من مثل قوله تعالى : ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾^(١) .

وقوله جل شأنه : ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَغْضُهُمْ عَلَى بَغْضِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾^(٢) .

ويصاغ الدليل هكذا :

لو فرض إلهان مستجمعان لشرائط الألوهية بحيث يكون كل منهما كامل القدرة ، كامل الإرادة ، كامل العلم ، له كل الجلال والجمال والكمال .

لترتب الفساد المفوضى إلى عدم وجود العالم .

وكل ما أدى إلى الفساد يكون باطلاً .

فالنتيجة : لو فرض إلهان لكان ذلك باطلاً .

فهذا قياس اقتراني ، مقدمته الصغرى شرطية ، ومقدمته الكبرى حملية^(٣) .

دليل التلازم :

والدليل على التلازم بين المقدم والتالي في القضية الصغرى الشرطية : أى

الدليل على ترتب الفساد على فرض وجود إلهين هو ما يلي :

لو فرض إلهان ، فإما أن يتفقا أو يختلفا .

وعلى كل يترتب الفساد المفوضى إلى عدم وجود العالم .

وفرض الاتفاق يسمى دليل التوارد ، وفرض الاختلاف يسمى دليل التمانع .

(١) سورة الأنبياء الآية : ٢٢ .

(٢) سورة المؤمنون الآية : ٩١ .

(٣) القضية الحملية هي التي حكم فيها بثبوت شيء لشيء أو نفيه عنه ، والشرطية هي التي حكم فيها بالتلازم أو العاد بين شيئين أو نفيه بينهما ، والقياس الاقتراني هو الذي لم تذكر فيه النتيجة ولا نقبضها بالفعل وإنما ذكرت بمادتها فقط .

دليل التوارد :

لو فرض وجود إلهين يتفقان على وجود (س) مثلاً ، فهناك عدة صور يتخيلها العقل ، وكلها باطلة وهى :

١ - إن اتفق الإلهان على وجود (س) استقلاً في لحظة واحدة ، بأن يوجد كل واحد منهما على انفراد في وقت واحد ، فهذه صورة باطلة ، لأنها تؤدي إلى اجتماع مؤثرين على أثر واحد ، إذ كل إله مؤثر له أثر ، وتتعدد الآثار بتعدد المؤثرين ، لكن الأثر هنا واحد ، وهو ما اتفقا عليه ، وهو ما رمزنا إليه بالحرف (س) .

وقد يعبر عن ذلك بامتناع مقدور بين قادرين .

٢ - إن اتفق الإلهان على إيجاد (س) استقلاً ، مرتباً ، بأن يوجد كل واحد من الإلهين مستقلاً عن الآخر ، في وقتين متتالين ، بحيث يبدأ الأول وينتهي ثم يبدأ الثانى وينتهى .

فهذه صورة باطلة لأن الأثر قد وجد بالأول ، فماذا يوجد الثانى ؟

فيلزم تحصيل الحاصل وهو باطل .

٣ - إن اتفق الإلهان على تقسيم العمل ، بحيث يوجد كل واحد منهما جزءاً من الشئ المتفق عليه ، فهذا عجز يتنافى مع كمال الألوهية ، فالذى يقبل المشاركة والتقسيم يكون محدود القدرة والإرادة ، ممنوعاً من العمل فيما عمل فيه الآخر ، فلا يكون كل منهما إلهاً .

٤ - إن اتفق الإلهان على التعاون والعمل المشترك ، يبدأ بيد ، من غير تحديد أو تقسيم ، فتلك أيضاً مصيبة ، لأن الذى يقبل المعونة هو العاجز الذى لا يستطيع تدبير أموره كلها بنفسه .

٥ - هناك صورة خامسة محتملة وهى أن يتنازل أحد الإلهين المفترضين ، ويترك العمل مطلقاً ، ويرضى بما يفعله الآخر .

وهذه صورة موهلة في البطلان ، لأنها تعطيل لصفات الإله وعزل له عن ممارسة اختصاصاته فلا يكون إلهاً .

فهذه كلها صور احتمالية للاتفاق على فرض وجود إلهين ، وكلها تؤدي إلى الفساد الذى هو عدم وجود الكائنات .

ويسمى هذا الدليل دليل التوارد أى التوافق .

دليل التمانع :

لو فرضنا وجود إلهين مستجمعين لشرائط الألوهية ، واختلفا حول إيجاد شيء معين ، فإما أن ينفذ مرادهما معاً ، أو لا ينفذ مرادهما معاً ، أو ينفذ مراد أحدهما فقط .

وهذه كلها صور باطلة لما يأتي :

١ - إن نفذ مرادهما معاً أصبحنا أمام شيء موجود ، معدوم في لحظة واحدة ، وهذا جمع للتقيضين محال .

٢ - وإن لم ينفذ مرادهما معاً أصبحنا أمام إلهين عاجزين عن تنفيذ مرادهما ، وبالتالي فلا يعقل أن يكونا إلهين ، ثم إنه يؤدي إلى أن يكون الشيء غير موجود نظراً لعدم نفاذ مراد من أراد إيجاده ، وغير معدوم نظراً لعدم نفاذ مراد من أراد إعدامه . وهذا رفع للتقيضين محال^(١) .

٣ - وإن نفذ مراد واحد فقط كان الآخر - وهو الذي لم ينفذ مراده - عاجزاً ، فلا يعقل أن يكون إلهاً .

ثم إن الفرض أنهما متماثلان في كل شيء ، فما يثبت لأحدهما يثبت للآخر ، ومن ثم ينسحب العجز على الذي نفذ مراده ، لأنه مماثل للآخر ، فيكون كل منهما عاجزاً ، والعاجز ليس إلهاً .

فهذه الصور الثلاث احتمالات باطلة لما يسمى دليل التمانع والتخالف ..

ومن هنا فإن كل صور التوارد والتمانع باطلة فبطل ما أدى إليها ، وهو فرض وجود إلهين ، وثبت أنه إله واحد ، لا شريك له ، يختص وحده بالجلال كله والكمال بأجمعه .

﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِّنَ الدُّلِّ وَكَبْرَةُ تَكْبِيرًا ﴾^(٢) .

(١) التقيضان لا يجمعان ولا يرتفعان معاً ، بل لابد أن يثبت أحدهما كالوجود والعدم ، أو الحركة والسكون ، فالشيء إما موجود أو معدوم ، وإما ساكن أو متحرك ولا يحلوا عن أحدهما

(٢) سورة الإسراء الآية ١١١ .

الوسوسة

عقيدة التوحيد مستقرة في الفطرة السليمة ، يطمئن إليها العقل والقلب اطمئناناً يسعد به الإنسان ، فتصدر السلوكيات - على مقتضى تلك العقيدة - نوراً في الحياة ورحمة بالأحياء ، ويمارس المرء حياته العملية مستشعراً قدرة الله وحكمته .

وإذا كان إبليس اللعين قد أخذ على نفسه العهد أمام الله عز وجل أن يقعد للناس الصراط المستقيم ، ويجلب عليهم كل وسائل الإغراء والخديعة ، فإن الله تعالى قد استثنى عباده المخلصين من عمل الشيطان وجنبهم سوءاته وخطواته ، ولن يجد الشيطان سبيلاً على المؤمنين الصادقين في كبائر الإثم والفجور .

قال تعالى : ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾^(١) .

لكن الشيطان يظل متربصاً بالإنسان ، ويحيط به من كل جانب ، وقد يجد لدى بعض المؤمنين منفذاً عن طريق الوسوسة ، وإثارة الشبهات ، وطرح تساؤلات باطلة ، كأن يلقى في روع الإنسان هذا السؤال :

إذا كان الله قد خلق السماء والأرض وما بينهما فمن خلق الله ؟

وطرح السؤال في حد ذاته باطل عقلاً ، لأنه يفترض حدوث واجب الوجود ، وهذا قلب للحقائق مستحيل ، فإن الواجب لا ينقلب ممكناً ، وإن الممكن لا ينقلب واجباً أو مستحيلاً ، وإن المستحيل لا ينقلب واجباً أو ممكناً .. فحقائق الأشياء ثابتة .

وقد استشعر الصحابة رضي الله عنهم مثل هذه الوسوسة ، وتلك الخواطر العابرة ، وجاءت أحاديث تفيد هذا المعنى .

ففي صحيح مسلم هذه الروايات :

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : جاء ناس من أصحاب النبي ﷺ فسألوه :

(١) سورة الحجر الآية ٤٢ .

إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به ، قال : وقد وجدتموه ١٩ قالوا : نعم .
قال : ذاك صريح الإيمان .

« عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : سئل النبي ﷺ عن الوسوسة قال :
« تلك محض الإيمان » .

« عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يزال الناس
يتساءلون ، حتى يقال : هذا خلق الله الخلق ، فمن خلق الله ١٩ فمن وجد من ذلك
شيئاً فليقل آمن بالله » .

« عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يأتي الشيطان
أحدكم فيقول : من خلق كذا وكذا ، حتى يقول له من خلق ربك ١٩ فإذا بلغ ذلك
فليستعذ بالله ولينته » .

وفى التعليق على هذه الأحاديث نلتقط من شرح الإمام النووي ما يلي :

« قوله ﷺ « ذاك صريح الإيمان » ، « تلك محض الإيمان » معناه استعظامكم
الكلام به هو صريح الإيمان ، فإن استعظام هذا وشدة الخوف منه ومن النطق به ،
فضلاً عن اعتقاده إنما يكون لمن استكمل الإيمان استكمالاً محققاً ، وانفتحت عنه
الريبة والشكوك .

وقيل معناه : إن الشيطان إنما يوسوس لمن أيس من إغوائه ، فينكد عليه
بالوسوسة لمعجزه عن إغوائه ، وأما الكافر فإنه يأتيه من حيث شاء ، ولا يقتصر في
حقه على الوسوسة ، بل يتلاعب به كيف أراد .

فعلى هذا فمعنى الحديث سبب الوسوسة محض الإيمان ، أو الوسوسة علامة
محض الإيمان .

« قوله صلى الله عليه وسلم : « فليقل آمن بالله » ، « فليستعذ بالله ولينته »
معناه الإعراض عن هذا الخاطر الباطل ، والالتجاء إلى الله تعالى في إذهابه .

قال الإمام المازري رحمه الله : ظاهر الحديث أنه صلى الله عليه وسلم أمرهم
أن يدفعوا الخواطر بالإعراض عنها والرد لها من غير استدلال ولا نظر في إبطالها .

والذى يقال فى هذا المعنى أن الخواطر على قسمين :
فأما الخواطر التى ليست بمستقرة ولا اجتنبتها شبهة طرأت فهى التى تدفع
بالإعراض عنها ، وعلى هذا يحمل الحديث ، وعلى مثلها ينطلق اسم الوسوسة ،
فكأنه لما كان أمراً طارئاً بغير أصل دفع بغير نظر فى دليل إذ لا أصل له ينظر فيه .
وأما الخواطر المستقرة التى أوجبتها الشبهة فإنها لا تدفع إلا بالاستدلال والنظر
فى إبطالها .. والله أعلم « ^(١) .

* * *

(١) شرح النووى على صحيح مسلم ، ج ٢ ، ص ١٥٤ .

الفصل الثاني

الأسماء والصفات

- أهمية الأسماء الحسنى .
- بين التقييد والإطلاق .
- اسم الله الأعظم .
- بين الاختصاص والعموم .
- جماع المعانى .
- الصفات الإلهية بين العقل والنقل :
 - الصفات العقلية .
 - وأخر متشابهات :
 - ١ - التفويض .
 - ٢ - التشبيه .
 - ٣ - التأويل .
 - ٤ - الإثبات بضوابط .
 - تعقيب ورأى :
 - ١ - حكمة التشابه .
 - ٢ - نبذ التشبيه .
 - ٣ - حرية الاختيار .
 - ٤ - وجهة نظر .

أهمية الأسماء الحسنی

لا يعرف الله إلا الله ، وللعقل الإنسانى مجاله الممتد فى آيات الأنفس والآفاق ، كى يرى عظمة الله وجلاله وكبريائه وسلطانه ، وحتى يسير العقل فى تأملاته سيراً حسناً ، فإن له فى الأسماء الحسنی لله تعالى معلم هداية وموقف حكمة ، ومات تفكير ، ومجال تأمل ، وملجأ عاصماً من الزلل فى الدلالة على أكمل الصفات وأجلها وأعلاها لربنا جل شأنه .

وقد جاء التعبير بالأسماء الحسنی فى القرآن المجید فى أربع آيات ، نقف معها متأملين خاشعين :

الآية الأولى :

قال الله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ^(١) .

والمعنى أن لله أسماء هى أحسن الأسماء لدلالاتها على التمجيد والتقديس ، والمؤمن الحق يدعو الله ويعبده بما سمي به نفسه ، ويلتزم التزاماً صادقاً وأميناً بما شرع الله تعالى لا يتعداه ، أما الذين ينحرفون فى أسماء الله تعالى ويحرفونها فيطلقونها على الأصنام كما أطلق العرب اللات من لفظ الله ، والعزى من لفظ العزيز ، أو يكذبون بها ويصفون الله تعالى بما لا يليق كما قال اليهود : يد الله مغلولة ، إن الله فقير ، فإن لهم موعداً لن يخلف سيلقون فيه جزاء كفرهم وإلحادهم .

الآية الثانية :

قال الله جل شأنه : ﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴾ ^(٢) .

(١) سورة الأعراف الآية ١٨٠ .

(٢) سورة الإسراء الآية ١١٠ .

جاء فى أسباب النزول عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : تهجد رسول الله ﷺ ذات ليلة بمكة فجعل يقول فى سجوده : يا رحمن يا رحيم فقال المشركون : كان محمد يدعو إلهاً واحداً فهو الآن يدعو إلهين اثنين ، الله والرحمن ، ما نعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة ، يعنون مسيلمة الكذاب ، فأنزل الله هذه الآية (١) .

ومعنى قوله : ﴿ .. اذْعُرُوا اللَّهَ أَوْ اذْعُرُوا الرَّحْمَنَ ﴾ سموا الإله الحق باسم الله أو باسم الرحمن واذكروه بهذا أو ذاك ، فإن الله جل شأنه واحد أحد له الأسماء الحسنى المتعددة ، وتعدد الأسماء لا يدل على تعدد الذات وإنما يدل على أن كمالات الله لا تنهاى .

الآية الثالثة :

قال الله سبحانه : ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ (٢) .

وقد جاءت هذه الآية عقب آيات كريمات فى صدر سورة طه تتحدث عن الله جل جلاله فى واسع سلطانه ، وعظيم ملكه ، وكريم جوده على خلقه ، فقد أنزل القرآن حيراً وبركة الذى وسع ملكه السموات والأرض وأحاط علمه بكل شىء ، وله تدبير الكون والكائنات .

﴿ طه * مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى * إِلَّا تَذَكُّرٌ لِّمَن يَخْشَى * تَنْزِيلًا مِّنْ خَلْقِ الْأَرْضِ وَالسَّمَلَاتِ الْغُلَى * الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى * لَهُ مَا فِي السَّمَلَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى * وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ (٣) .

ثم جاءت الآية الكريمة عقب ذلك ببيان أن هذا الإله الخالق المدبر العليم الحكيم - واحد أحد فى ذاته ، له أسماء بالغة الحسن فى التعظيم والتقديس .

الآية الرابعة :

قال الله عز وجل : ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِى لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ

(١) أسباب النزول للواحدي ص ٢٢٣ ط مكتبة المشى بالقاهرة .

(٢) سورة طه الآية ٨٠ . (٣) سورة طه الآيات : ١ - ٧ .

الْمُؤْمِنُ الْمُهَيِّجُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ
الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ
الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ .

فقد بدأ هذا النص الكريم بتعداد بعض الأسماء التي تطلق على الله تعالى ، ثم
جاء قوله : ﴿ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ كتعميم بعد تخصيص .

وإذا انتقلنا إلى السمة النبوية المطهرة وجدنا حديثاً صحيحاً خرجه الإمام مسلم
بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « لله تسعة وتسعون اسماً
من حفظها دخل الجنة وإن الله وتر يحب الوتر » وفي رواية :

« إن لله تسعة وتسعين اسماً ، مائة إلا واحداً ، من أحصاها دخل الجنة » .

والمراد من حفظها وإحصائها الإيمان بها ، وتعقل معناها ، وفهم دلالتها ،
والتخلق بها على قدر الطاقة البشرية ، فإذا كان الله عالماً رحيماً قادراً ... إلخ فشأن
المسلم أن يحرص على العلم النافع وأن يرحم عباد الله ، وأن يستعمل قدرته في
خدمة الضعفاء وذوى الحاجات .. وهكذا .

وفي معنى : « إن الله وتر يحب الوتر » قال الإمام النووي :

الوتر الفرد ، ومعناه في حق الله تعالى الواحد الذي لا شريك له ، ولا نظير ،
ومعنى « يحب الوتر » تفضيل الوتر في الأعمال وكثير من الطاعات ، فجعل الصلاة
خمساً ، والطهارة ثلاثاً ، والطواف سبعاً ، والسعى سبعاً ، ورمى الحمار سبعاً ، وأيام
التشريق ثلاثاً ، والاستنجاء ثلاثاً ، وكذا الأكفان ، وفي الزكاة خمسة أوسق ،
وخمس أواق من الورق ، ونصاب الإبل وغير ذلك ، وجعل كثيراً من عظيم
مخلوقاته وترأ ، منها السموات والأرضون والبحار ، وأيام الأسبوع ، وغير ذلك .
وقيل : إن معناه منصرف إلى صفة من يعبد الله بالوحدانية ، والتفرد مخلصاً له
والله أعلم ^(١) .

* * *

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ، ج ١٧ ، ص ٦ .

بين التقييد والإطلاق

كثير من المسلمين يحفظون الأسماء الحسنى على النحو التالى :

١ - الله ^(١)	٢ - الرحمن	٣ - الرحيم	٤ - الملك
٥ - القدوس ^(٢)	٦ - السلام ^(٣)	٧ - المؤمن ^(٤)	٨ - المهيمن
٩ - العزيز	١٠ - الجبار ^(٥)	١١ - المتكبر	١٢ - الخالق
١٣ - البارئ	١٤ - المصور	١٥ - الغفار	١٦ - القهار
١٧ - الوهاب	١٨ - الرزاق	١٩ - الفتاح ^(٦)	٢٠ - العليم
٢١ - القابض	٢٢ - الباسط	٢٣ - الخافض	٢٤ - الرافع
٢٥ - المعز	٢٦ - المذل	٢٧ - السميع	٢٨ - البصير
٢٩ - الحكيم	٣٠ - العدل	٣١ - اللطيف ^(٧)	٣٢ - الخبير ^(٨)
٣٣ - الحليم	٣٤ - العظيم	٣٥ - الغفور	٣٦ - الشكور
٣٧ - العلى	٣٨ - الكبير	٣٩ - الحفيظ	٤٠ - المغيث
٤١ - الحسيب ^(٩)	٤٢ - الجليل	٤٣ - الكريم	٤٤ - الرقيب

(١) لعظ الخلافة اسم خاص بذاته تعالى ، لا يطلق على غيره ، قيل : إنه علم جامد ، وقيل : مشتق من إليه إذا عند وأصله الإله ، ثم حذفت الهمزة تحفيظاً ، وأدغمت اللام الأولى فى الثانية ، وقيل : من وله إذا تحير وأصله ولاه ، فأبدلت الواو همزة لانكسارها ، فقيل : إله كما فى وشاح وإشاح ، ثم أدخلت الألف واللام وحذفت الهمزة ، فقيل : الله .

(٢) القدوس : المنزه المعظم .

(٣) السلام : السالم عن النقائص أو مانع السلام لعباده .

(٤) المؤمن - المصدق لنفسه ورسوله بالمعجزات والآيات ، أو الذى يسمح الأمان لعباده المؤمنين يوم الفرع الأكبر .

(٥) الجبار : من الحسب بمعنى الإصلاح ومنه جبر العظم ، وقيل بمعنى الإكراه : أى يحجر خلقه على ما يريد ، وقيل : مبيح لا يبال ، عرير لا يغالب ، عظيم لا مثل له .

(٦) الفتاح . ميسر العسير ، أو خالق الفتح : أى النصر ، أو الحاكم .

(٧) اللطيف : خالق اللطف والتيسير ، وقيل : العالم بالحقائق .

(٨) الخبير : العالم بال دقائق ، المخصوص لما قبل الذر ، المطلع على السرائر والبواطن .

(٩) الحسيب : الكافى بخلق ما يكفى العباد ، أو المحاسب لعباده على ما قدمت أيديهم .

٤٥ - المجيب	٤٦ - الواسع ^(١)	٤٧ - الحكيم	٤٨ - الودود
٤٩ - المجيد	٥٠ - الباعث	٥١ - الشهيد ^(٢)	٥٢ - الحق
٥٣ - الوكيل ^(٣)	٥٤ - القوي	٥٥ - المتين ^(٤)	٥٦ - الولي ^(٥)
٥٧ - الحميد	٥٨ - المحصي	٥٩ - المبدي	٦٠ - المعيد
٦١ - المحيي	٦٢ - المميت	٦٣ - الحي	٦٤ - القيوم
٦٥ - الواجد ^(٦)	٦٦ - الماجد ^(٧)	٦٧ - الواحد	٦٨ - الصمد ^(٨)
٦٩ - القادر	٧٠ - المقتدر	٧١ - المقدم	٧٢ - المؤخر
٧٣ - الأول	٧٤ - الآخر	٧٥ - الظاهر ^(٩)	٧٦ - الباطن ^(١٠)
٧٧ - الوالي ^(١١)	٧٨ - المتعالي	٧٩ - البر	٨٠ - التواب
٨١ - المنتقم	٨٢ - العفو	٨٣ - الرؤوف	٨٤ - مالك الملك
٨٥ - ذو الجلال والإكرام	٨٦ - المقسط ^(١٢)	٨٧ - الجامع ^(١٣)	٨٨ - العني
٨٩ - المغني	٩٠ - المانع	٩١ - الضار	٩٢ - النافع
٩٣ - النور ^(١٤)	٩٤ - الهادي	٩٥ - البديع ^(١٥)	٩٦ - الباقي
٩٧ - الوارث ^(١٦)	٩٨ - الرشيد	٩٩ - الصبور ^(١٧)	

- (١) الواسع : عظيم الجود والكرم ، كبير السلطان والملك .
(٢) الشهيد : العالم بكل شيء في الماضي والحاضر والمستقبل .
(٣) الوكيل : المتكفل بأمر خلقه .
(٤) المتين : الكامل القدرة على كل شيء .
(٥) الولي . المتولي أمور خلقه .
(٦) الواحد . العي وقيل . العالم .
(٧) الواحد : العلي الشأن ، العظيم المكانة .
(٨) الصمد : المقصود من الخواص ، المستغنى عن خلقه .
(٩) الظاهر . المعلوم بالأدلة الواضحة الجلية ، وقيل . الغالب الذي لا يقهر .
(١٠) الباطن . المحتجب عن الخواص ، ولا تدركه الأبصار . وقيل . العالم بالخفيات .
(١١) الوالي . الحاكم . (١٢) المقسط . العادل .
(١٣) الجامع . الذي يجمع الأولين والآخرين لميقات يوم معلوم .
(١٤) النور : منور السموات والأرض والأكوان كلها .
(١٥) البديع : الخالق على غير مثال سبق ، نظام وإحكام وإتقان .
(١٦) الوارث . الباقي بعد فناء خلقه .
(١٧) الصبور : الذي لا يعجز العقوبة ويهمل ولا يهمل .

وهذا الترتيب والتقيد للأسماء الحسنی جاء فی رواية الترمذی وحکم علیها بأنها حديث غریب .

وفی رواية أخرى أخرجه الطبرانی جاءت المخالفة فی بعض الأسماء علی النحو التالي :

القائم ، الدائم	بدلاً من	القابض الباسط .
والشديد	بدلاً من	الرشيد
والأعلى ، المحيط ، مالك يوم الدين ،	بدلاً من	الودود ، المجيد ، الحكيم ،

ورواها ابن خزيمة فقال :

الحاكم	بدل	الحكم
والقريب	بدل	الرقيب
والمولى	بدل	الوالى
والأحد	بدل	المغنى

وقارن العلماء بين رواية لزهير ، ورواية لصفوان فوقت المخالفة فی ثلاثة وعشرين اسماً هي :

الفتاح - القهار - الحكم - العدل - الحسيب - الجليل - المحصى - المقتدر -
المقدم - المؤخر - البر - المنتقم - المغنى - النافع - الصبور - البديع - الغفار -
الحفيظ - الكبير - الواسع - الواحد - مالك الملك - ذو الجلال والإكرام .

فجاء فی رواية زهير بدلاً منها :

الرب - الفرد - الكافي - القاهر - المبين - الصادق - الجميل - البادى -
القديم - البار - الوفي - البرهان - الشديد - الواقى - القدير - الحافظ - العادل
المعطى - العالم - الأحد - الأبد - الوتر - ذو القوة .

ولهذا ترجح بين العلماء أن سرد الأسماء ليس مرفوعاً إلى رسول الله ﷺ ،
ولم يثبت أن النبى الكريم عين الأسماء المذكورة ، وإنما هي من جمع الرواة وإلحاقهم
إياها بالحديث الصحيح القائل : « إن لله تسعة وتسعين اسماً »^(١) .

(١) راجع تفصيل الروايات فى فتح البارى ، ج ١١ ، ص ٢١٤ .

وقال الإمام ابن حزم : وجاءت أحاديث في إحصاء التسعة والتسعين اسماً مضطربة لا يصح منها شيء أصلاً ، وإنما تؤخذ من نص القرآن ، ومما صح عن النبي ﷺ ^(١) .

وإذا كانت هذه النصوص الواردة بشأن إحصاء التسعة والتسعين اسماً على تلك الشاكلة من الاضطراب والغرابة فهل قوله صلى الله عليه وسلم : « إن لله تسعة وتسعين اسماً ، مائة إلا واحداً من أحصاها دخل الجنة » مراد به التحديد والتقييد للأسماء الحسنی ؟

وقد أجاب الإمام النووي قائلاً :

اتفق العلماء أن هذا الحديث ليس فيه حصر لأسمائه سبحانه وتعالى ، فليس معناه أنه ليس له غير هذه التسعة والتسعين ، وإنما مقصود الحديث أن هذه التسعة والتسعين من أحصاها دخل الجنة ، فالمراد الإخبار عن دخول الجنة بإحصائها لا الإخبار بحصر الأسماء ^(٢) .

وقد خالف الإمام ابن حزم هذا الاتجاه وذهب إلى أن أسمائه تعالى لا تزيد على التسعة والتسعين ، واستدل بالحديث الشريف نفسه ويقول تعالى : ﴿ إِن هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ... ﴾ ^(٣) .

وهذا الاستدلال من ابن حزم يمكن الرد عليه ، فالحديث ليس نصاً في التحديد ، ويفهم على أن قوله : « من أحصاها » خبر ، تسعة وتسعين ، والجار والمجرور في قوله : « لله » ليس خبراً ، كقولنا : لفلان مائة جنيه أعدها للصدقة ، فلا ينفي أن له غيرها . فالمراد الإخبار عما أعده للصدقة وليس الإخبار عما يملكه .

ويكون النص على الأسماء المذكورة لمنزلتها الخاصة لكونها جامعة لصفات الجلال والكمال .

أما الآية الكريمة من سورة النجم فليست مما يستدل به على نفى الزيادة ، لأنها

(١) المحلى ، ج ٨ ، ص ٣١ .

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي ، ج ١٧ ، ص ٥ .

(٣) سورة النجم الآية : ٢٣ .

واردة فى شأن الأصنام وإطلاق المشركين عليها أسماء لا تعبر عن حقيقة وضعها ،
فهى لا تنفع ولا تضر ولا تملك لنفسها أو لغيرها شيئاً ، ومع ذلك يسمونها اللات
من لفظ الله ، والعزى من لفظ العزيز ، ويعبدونها من دون الله ويقدمون لها القرابين .

ومما يستدل به على أن أسماء الله تعالى لا حصر لها - حديث ابن مسعود
رضى الله عنه الذى أخرجه الإمام أحمد وصححه ابن حبان ، قال رسول الله ﷺ :
« ما أصاب أحدا قط هم ولا حزن فقال : اللهم إني عبدك ، وابن عبدك أسألك
بكل اسم هو لك ، سميت به نفسك ، أو أنزلته فى كتابك ، أو علمته أحداً من
خلقت ، أو استأثرت به فى علم الغيب عندك أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلوبى ، ونور
صدرى ، وذهاب حزنى ، وجلاء همى وغمى ، إلا أذهب الله همه وحزنه ، وأبدله
مكانه فرحاً ، فقليل يا رسول الله : ألا تتعلمها ؟ فقال : بلى ينبغى لمن سمعها أن
يتعلمها » .

ويضاف إلى ذلك ما تقدم من اختلاف الأسماء فى الروايات ، بحيث لو
جمعنا ما اتفق منها وما اختلف لوصلنا إلى عدد أكثر من تسعة وتسعين ، وعلى هذا
فيكون الوارد شرعاً أكثر من هذا العدد .

لكن هل يجوز إطلاق أسماء على الله تعالى لم يرد بها الشرع ؟

حكى الشريف الجرجاني أقوالاً هى :

١ - ذهب المعتزلة والكرامية إلى أنه إذا دل العقل على اتصافه تعالى بصفة
وجودية أو سلبية جاز أن يطلق عليه اسم يدل على اتصافه بها سواء ورد بذلك
الإطلاق إذن شرعى أو لم يرد ، وكذا الحال فى الأفعال .

٢ - قال القاضى أبو بكر : كل لفظ دل على معنى ثابت لله تعالى جاز إطلاقه
عليه بلا توقيف إذا لم يكن إطلاقه موهماً لما لا يليق بكبريائه ، فمن ثمة لم يجز أن
يطلق عليه لفظ العارف ، لأن المعرفة قد يراد بها : علم يسبقه غفلة ، ولا لفظ
الفقيه ، لأن الفقه : فهم غرض المتكلم من كلامه ، وذلك مشعر بسابقة الجهل ، ولا
لفظ العاقل ، لأن العقل : علم مانع عن الإقدام على ما لا ينبغى ، مأخوذ من العقال ،
وإنما يتصور هذا المعنى فيمن يدعوه الداعى إلى ما لا ينبغى .

ولا لفظ الفطن ، لأن الفطنة : سرعة إدراك ما يراد تعريضه على السامع فتكون مسبقة بالجهل .

ولا لفظ الطيب ، لأن الطب يراد به علم مأخوذ من التجارب .. إلى غير ذلك من الأسماء التي فيها نوع إيهام بما لا يصح في حقه تعالى .

وقد يقال : لا بد مع نفي ذلك الإيهام من الإشعار بالتعظيم حتى يصح الاطلاق بلا توقيف .

٣ - ذهب الشيخ (الأشعري) ومتابعوه إلى أنه لا بد من التوقيف وهو المختار ، وذلك للاحتياط احترازًا عما يوهم باطلاً لعظم الخطر في ذلك ، فلا يجوز الاكتفاء في عدم إيهام الباطل بمبلغ إدراكنا بل لا بد من الاستناد إلى إذن الشرع^(١) .

* * *

(١) شرح المواقف ، الموقف الخامس - تحقيق د. أحمد المهدي ص ٣٥٢ .

اسم الله الأعظم

شاع بين الناس أن لله تعالى اسماً هو أعظم الأسماء ، له مدخل خاص فى إحابة الدعاء وطلب الحاجات من الله عز وجل ، واختلف العلماء اختلافاً كبيراً فى هذا الاسم ، وقد انقسموا فريقين :

(أ) فريقاً يرى أنه اسم خاص أو لفظ معين ، وقد ساق الإمام ابن حجر فى تعيين هذا الاسم أربعة عشر رأياً منها :

- ١ - لفظ الجلالة (الله) .
- ٢ - الرحمن الرحيم الحى القيوم .
- ٣ - ذو الجلال والإكرام .
- ٤ - كلمة التوحيد (لا إله إلا الله) .
- ٥ - الحنان المنان ، بديع السموات والأرض ، ذو الجلال والإكرام الحى القيوم .

وقدم الإمام ابن حجر استدلالاً لهذا الفريق لا تخلو من مطعن فى السند أو الاستدلال ، وعلى سبيل المثال ما أخرجه ابن ماجه عن عائشة أنها سألت النبى ﷺ أن يعلمها الاسم الأعظم فلم يفعل ، فصلت ودعت : اللهم إني أدعوك الله ، وأدعوك الرحمن ، وأدعوك الرحيم ، وأدعوك بأسمائك الحسنى كلها ما علمت منها وما لم أعلم .. وفيه أنه صلى الله عليه وسلم قال لها : « إنه لفى الأسماء التى دعوت بها » .

قال ابن حجر : وسنده ضعيف وفى الاستدلال به نظر لا يخفى .

وما أخرجه أبو يعلى من طريق السرى بن يحيى عن رجل من طى وأثنى عليه قال : كنت أسأل الله أن يرينى الاسم الأعظم فأريته مكتوباً فى الكواكب فى السماء ، يعنى « بديع السموات والأرض ذو الجلال والإكرام » ^(١) .

والرؤى والأحلام لعامة المسلمين ليست مما يستدل به فى الدين .

(١) فتح البارى ، ج ١١ ، ص ٢٢٤ .

وساق الإمام الرازى حججاً لهذه الآراء لا تنهض دليلاً على الدعوى مثل قولهم فى الاستشهاد على لفظ الجلالة (الله) :

أن هذا الاسم ما أطلق على غير الله تعالى ، فإن العرب كانوا يسمون الأوثان آلهة إلا هذا الاسم ، فإنهم ما كانوا يطلقونه على غير الله سبحانه وتعالى ، والدليل عليه قوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللّٰهُ ﴾ ^(١) .

وقال تعالى : ﴿ هَلْ تَقْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾ ^(٢) ، معناه هل تعلم من اسمه الله سوى الله ، ولما كان هذا الاسم فى الاختصاص بالله تعالى على هذا الوجه وجب أن يكون أشرف أسماء الله سبحانه وتعالى ^(٣) .

فإن المسألة لا تخضع لترجيحات البشر ، وإنما المرجع فيها إلى تعيين الشرع ، وحيث لم يرد النص الصريح فىكون التعيين تحكما .

(ب) الفريق الآخر : يرى أن المراد باسم الله الأعظم حالة نفسية يستشعر المرء معها جلال الله وكماله ، فتجعله يدعو الله ضارعا موقناً بالإجابة شأن دعوة المضطر ، فيحقق الله رجاءه ويجيب دعاءه .

ونقل ابن حجر أن قوماً أنكروا الاسم الأعظم كأبى جعفر الطبرى وأبى الحسن الأشعرى وجماعة بعدهما كأبى حاتم بن حبان ، والقاضى أبى بكر الباقلانى وقالوا :

لا يجوز تفضيل بعض الأسماء على بعض ، ونسب ذلك بعضهم لمالك لكراهيته أن تعاد سورة أو تردد دون غيرها من السور لئلا يظن أن بعض القرآن أفضل من بعض فيؤذن ذلك باعتقاد نقصان المفضل عن الأفضل .

وحملوا ما ورد من ذلك على أن المراد بالأعظم العظيم ، وأن أسماء الله كلها عظيمة ، وعبرة أبى جعفر الطبرى :

اختلفت الآثار فى تعيين الاسم الأعظم ، والذي عندى أن الأقوال كلها

(١) سورة الزمر الآية . ٣٨ .

(٢) سورة مريم الآية : ٦٥ .

(٣) شرح أسماء الله الحسنى للرازى - تعليق طه عبد الرؤوف سعد - ص ٩١ - طبعة مكتبة الكليات الأزهرية .

صحيحة إذ لم يرد في خبر منها أنه الاسم الأعظم ولا شيء أعظم منه ، فكأنه يقول : كل اسم من أسمائه تعالى يجوز وصفه بكونه أعظم فيرجع إلى معنى عظيم .

وقال ابن حبان : الأعظمية الواردة في الأخبار إنما يراد بها مزيد ثواب الداعي بذلك كما أطلق ذلك في القرآن والمراد به مزيد ثواب القارئ^(١) .

وساق الإمام الرازي ثلاث حجج لهذا الفريق هي :

١ - أن الاسم كلمة مركبة من حروف مخصوصة اصطلاحوا على جعلها معرفة للمسمى ، فعلى هذا ، الاسم لا يكون له في ذاته شرف ومنقبة ، إنما شرفه ومنقبته بشرف المسمى ، وأشرف الموجودات ، وأكملها هو الله سبحانه وتعالى ، وكل اسم ذكر العبد ربه به على ما يكون عارفاً بعظمة الرب فذلك الاسم هو الاسم الأعظم .

٢ - أنه تعالى فرد محض ، أحد محض ، منزّه عن التركيب والتأليف ، فيستحيل أن يقال بعض أسمائه يدل على الجزء الأشرف من ذاته ، والآخر يدل على الجزء الذي ليس بالأشرف ، ولما كان هذا محالاً كان جميع أسمائه دالة على ذاته الموصوفة بالوحدانية الحقيقية والفردانية الحقيقية ، وإذا كان كذلك امتنع كون بعض أسمائه أعظم من بعض .

٣ - الآثار المروية في هذا الباب ، منها ما روى أن واحداً سأل جعفر الصادق رضى الله عنه عن الاسم الأعظم فقال له : قم واشرع في هذا الخوض واغتسل حتى أعلمك الاسم الأعظم ، فلما شرع في الماء واغتسل وكان الزمان زمان الشتاء ، والماء في غاية البرد ، فلما أراد أن يخرج من حانب الماء أمر جعفر أصحابه حتى منعه من الخروج عن الماء ، وكلما أراد أن يخرج ألقوه في ذلك الماء البارد ، فتضرع الرجل إليهم كثيراً فلم يقبلوا قوله ، فغلب على ظن ذلك الرجل أنهم يرون قتله وإهلاكه ، فتضرع إلى الله تعالى في أن يخلصه منهم ، فلما سمعوا منه ذلك الدعاء أخرجوه من الماء وألبسوه الثياب وتركوه حتى عادت القوة إليه .

(١) فتح الباري ، ج ١ ، ص ٢٢٤ .

ثم قال لجعفر الصادق : الآن علمنى اسم الله الأعظم ، فقال جعفر : يا هذا إنك قد تعلمت الاسم الأعظم ودعوت الله به وأجابك ، فقال : وكيف ذلك ؟ قال جعفر : إن كل اسم من أسمائه تعالى يكون فى غاية العظمة إلا أن الإنسان إذا ذكر اسم الله عند تعلق القلب بغير الله لم يتففع به ، وإذا ذكره عند انقطاع طمعه من غير الله كان ذلك الاسم الأعظم ، وأنت لما غلب على ظنك أنا بقتلك لم يبق تعويل إلا على فضل الله ، ففى تلك الحالة : أى اسم ذكرته فإن ذلك الاسم هو الاسم الأعظم ^(١) .

ومما يؤكد هذا الاتجاه أن النصوص الواردة شرعاً فى اسم الله الأعظم أطلقت على أسماء متعددة ولم تلتزم اسماً معيناً ، وهى على نوعين :

١ - نصوص لم يقلها رسول الله ﷺ وإنما أقرها .

٢ - نصوص قالها الرسول ﷺ وعلمها أصحابه .

من النوع الأول حديث بريدة أن النبى ﷺ سمع رجلاً يدعو وهو يقول : اللهم إنى أسألك بأنى أشهد أنك أنت الله ، لا إله إلا أنت ، الأحد الصمد ، الذى لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد .

فقال صلى الله عليه وسلم : والذى نفسى بيده لقد سأل الله باسمه الأعظم الذى إذا دعى به أجاب ، وإذا سئل به أعطى .

وحديث أنس : دخل النبى ﷺ المسجد ورجل يصلى وهو يدعو ويقول فى دعائه : اللهم لا إله إلا الله ، أنت المنان ، بديع السموات والأرض ، ذو الجلال والإكرام .

فقال : « أتدرون بما دعا الله ؟ دعا الله باسمه الأعظم الذى إذا دعى به أحاب ، وإذا سئل به أعطى » .

ففى هذين الموقفين نطق الرجلان بما ألهمهما الله وبما استشعرا معناه واستقر فى القلب ، وترجم عنه اللسان ، فأقرهما الرسول ﷺ ووصف حالهما ودعاءها بأنه دعاء مستجاب باسم الله الأعظم .

(١) شرح أسماء الله الحسنى للرازى ، ص ٨٨ .

ومن النوع الثانى حديث أسماء بنت يزيد : قال النبى ﷺ : « اسم الله الأعظم فى هاتين الآيتين : ﴿ وَاللَّهُمَّ إِلَهَ وَاحِدٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾ و فاتحة آل عمران : ﴿ أَلَمْ يَلَمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ .

وحديث سعد بن مالك قال : سمعت النبى ﷺ يقول : « هل أدلكم على اسم الله الأعظم الذى إذا دعى به أجاب ، وإذا سئل به أعطى ؟

الدعوة التى دعا بها يونس حيث نادى فى الظلمات الثلاث : ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ .

فقال رجل : يا رسول الله هل كانت ليونس خاصة أم للمؤمنين عامة ؟ فقال : ألا تسمع قول الله عز وجل ﴿ وَنَجِّنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

ففى هذين الحديثين لم يكن هناك التزام بلفظ معين مما يؤكد الاتجاه القائل بأن الاسم الأعظم ليس له لفظ مخصوص ولكنه موقف دعاء ينقطع فيه القلب عن الخلق ، ويعظم اتصاله بالملأ الأعلى ، ويقوى الرجاء فى الله ، وتتأكد الخشية منه سبحانه .

* * *

بين الاختصاص والعموم

الأسماء الحسنى لها دلالات خاصة عند إطلاقها على الله تعالى ، لا يشركه فيها أحد غيره ، لأن كل ما هو متصل بالله تعالى وصفاته لا يشبه شيئاً من مخلوقاته ، فهو سبحانه ﴿ ليس كمثله شيء ﴾ ، ﴿ ولم يكن له كفواً أحد ﴾ .

وإذا أطلقت بعض الأسماء على غير الله فبمعان أخرى ودلالات تناسب المخلوق . وقد ذكر العلماء أن هناك أسماء يقتصر إطلاقها على الله تعالى لا يجوز إطلاقها على غيره مثل :

الله - القدوس - مالك الملك - المحي المميت - ذو الجلال والإكرام ..
وهناك أسماء يوصف بها الله تعالى وصفاً مطلقاً ، ولا يوصف بها غيره إلا مقيداً مثل :

الرب - القابض - الباسط - الخافض - الرافع .
فإذا أطلقت على البشر قيدت مثل : رب الأسرة ، الرحم القابض ، خافض درجات التلاميذ ، رافع مرتبات العاملين .

وهناك أسماء تطلق بالفاظها على الله تعالى وعلى البشر مثل :
العالم - العليم - الحكيم - القادر - الخليم - الملك - السيد .
وقد استعملها القرآن في كلا الاطلاقين :

قال تعالى في حق إبراهيم : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ حَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ ﴾ ^(١) .
وقال جل شأنه في حق إسحق : ﴿ .. وَبَشُرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴾ ^(٢) .
وقال سبحانه في حق يحيى : ﴿ .. وَسَيِّدًا وَخَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾ ^(٣) .

(١) سورة هود الآية . ٧٥ . (٢) سورة الداريات الآية . ٢٨ .

(٣) سورة آل عمران الآية . ٣٩ .

وقال عز وجل فى حق فرعون مصر ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ انْتُونِي بِهِ .. ﴾ ^(١) .

فاللفظ المشترك يطلق بحقيقتين مختلفتين تماماً ، فعلم البشر لا يرقى إلى علم الله ، وحلم البشر لا يتساوى مع حلم الله ، وملك البشر يتضاءل أمام ملك الله ، وسيادة البشر تصغر أمام سيادة الله .. وهكذا ..

وهناك أسماء تطلق على الله مرتبطة بإضافة مثل :

قابل التوب - شديد العقاب ، رفيع الدرجات ، ذوالعرش ، ذو الجلال ، ذو المعارج ..

فلا يقال : قابل ، أو شديد ، أو رفيع ، أو ذو .

وهناك أسماء تطلق على الله تعالى مقترنة بأضدادها منعاً للإيهام مثل :

القابض الباسط ، المحيى المميت ، المعز المذل ..

فإطلاق لفظ المميت أو القابض أو المذل منفرداً عن ضده قد يوهم نقصاً فى حق الله تعالى وكأن أفعال الله مختصة بهذه المعانى فقط ، ولذا كان من الأدب اقتران هذه الألفاظ ..

وقد تستق أسماء لله تعالى من أفعاله كالقابض الباسط من قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ ﴾ ^(٢) ، وقد يمتنع هذا الاشتقاق مثل قوله سبحانه ﴿ وَمَكْرُوهًا وَمَكْرًا ﴾ ^(٣) فلا يقال : الماكر ، ومثل قوله جل شأنه ﴿ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴾ ^(٤) ، فلا يقال : الساقى ، ومثل قوله عز وجل ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ﴾ ^(٥) ، فلا يقال : المصلى .

* * *

(١) سورة يوسف الآية : ٥٤ .

(٢) سورة البقرة الآية : ٢٤٥ .

(٣) سورة آل عمران الآية . ٥٤ .

(٤) سورة الإنسان الآية ٢١ .

(٥) سورة الأحزاب الآية ٥٦ .

جماع المعانى

الأسماء الحسنى يجمعها عدة معانى تلتقى تحت كل معنى منها مجموعة أسماء ، ونقل الإمام البيهقى أن الحاكم أبا عبد الله الحسين بن الحسن الحلیمی ذكر خمس عقائد تنطوى تحتها الأسماء الحسنى ، هى :

١ - إثبات وجود البارى جل حلاله لتقع به مفارقة التعطيل مثل الأول والآحر والباقى والحق المبين .

٢ - إثبات وحدانيته لتقع به البراءة من الشرك مثل الواحد والكافى والعالى ..
٣ - إثبات أنه تعالى ليس بجوهر ولا عرض لتقع به البراءة من التشبيه مثل الأحد والعظيم والعزیز والمتعالى والكبير والعنى والسبوح والقدوس ..

٤ - إثبات أن وجود كل ماسواه كان من إبداعه واختراعه إياه لتقع به البراءة من قول من يقول بالعلة والمعلول مثل : الله والحقى والعالم والقادر والحكيم والسيد والجليل والبدیع والبارىء والخالق والمصور والمقتدر ..

٥ - إثبات أنه تعالى مدبر ما أبدع ومصرفه على ما يشاء لتقع به البراءة من قول القائلين بالطبائع أو بتدبير الكواكب أو تدبير الملائكة مثل المدبر والقيوم والرحمن الرحيم والحليم والكريم والعفو والغافر والغفار والغفور والرعوف والصمد والحמיד والفتاح والمهيمن والمقيت (١) .

ثم قال : إن أسماء الله تعالى جده التى ورد بها الكتاب والسنة وأجمع العلماء على تسميته بها منقسمة بين العقائد الخمس ، فيلحق بكل واحدة منهن بعضاً وقد يكون منها ما يلتحق بمعنيين ويدخل فى باين أو أكثر (٢) .

وإذا كان جمهور المتكلمين قد فصلوا الصفات الإلهية إلى ثلاث عشرة صفة مجمع عليها وهى :

(١) المقيت : حائق الأقوات وقيل بمعنى الشهيد العالم بالمعيب والحاضر

(٢) الأسماء والصفات للبيهقى ص ٢١ ط دار الكتب العلمية .

- ١ - الوجود ، وعدوه صفة نفسية . ٢ - القدم .
٣ - البقاء . ٤ - المخالفة للحوادث .
٥ - القيام بالنفس ٦ - الوجدانية .

- وهذه الصفات الخمس عدوها صفات سلبية .
٧ - القدرة . ٨ - الإرادة . ٩ - العلم .
١٠ - الحياة . ١١ - السمع . ١٢ - البصر .
١٣ - الكلام .

وهذه الصفات السبع عدوها صفات معان .
ويعرفون الصفة النفسية بأنها نفس الذات دون معنى زائد عليها والوصف بها غير معلل بعلة .
والصفة السلبية التي مفهومها سلب ضدها عن موصوفها أو ما كان السلب داخلاً في مفهومها .

وصفة المعانى التي تدل على معنى زائد يقوم بالذات .
إذا كان علماء التوحيد هكذا يدرسون الصفات فلا منافاة بين تركيزهم على هذه الصفات وبين الأسماء الحسنى في تعدادها وكثرتها ، فإن صفة العلم قد يلتقى تحتها أسماء العالم والعليم والخبير والمحصى والشهيد والحكم والحسيب والحكيم .. إلخ .
وإن صفة القدرة قد يلتقى تحتها أسماء الخالق والرازق والحى والمميت والباعث والقادر والمقتدر والمغنى والنافع الضار والقابض الباسط .. إلخ وهكذا .

وكمالات الله لا تنهاى وبالتالي فالأسماء الحسنى وصفات الله عز وجل لا يتنافيان ولا يتعارضان ، فالاسم والصفة هنا بمعنى واحد ، اللهم إلا لفظ الجلالة « الله » فهو اسم علم غير مشتق وليس بصفة على الأصح فهو يدل على الذات دلالة مطلقة ، وبه تعرف جميع الأسماء والصفات فيقال مثلاً : الرحمن من أسماء الله ، ولا يقال : الله من أسماء الرحمن .

وقد ثار بحث حول الاسم والمسمى ، هل الاسم عين المسمى أو غيره ؟ .

قال شارح الطحاوية :

وطالما غلط كثير من الناس فى ذلك وجهلوا الصواب فيه ، فالاسم يراد به المسمى تارة ويراد به اللفظ الدال عليه أخرى .

فإذا قلت : قال الله كذا أو سمع الله لمن حمده ، ونحو ذلك ، فهذا المراد به المسمى نفسه .

وإذا قلت : الله اسم عربى ، والرحمن اسم عربى ، والرحيم من أسماء الله تعالى ونحو ذلك ، فالاسم هنا هو المراد لا المسمى ولا يقال غيره . (غير المسمى) لما فى لفظ الغير من الإجمال ، فإن أريد بالمعاصرة أن اللفظ غير المعنى فحق ، وإن أريد أن الله سبحانه كان ولا اسم له حتى خلق لنفسه أسماء أو حتى سماه خلقه بأسماء من صنعهم فهذا من أعظم الضلال والإلحاد فى أسماء الله تعالى ^(١) .

* * *

(١) شرح العقيدة الطحاوية ص ١٣١ ط المكتب الإسلامى .

الصفات الإلهية بين العقل والنقل

الصفات العقلية

وجود الله تعالى وصفات جلاله وكماله أمور يوجبها العقل ، ويوقن بها من خلال نظرة تأملية يسيرة :

- * فوجود الخلق دليل وجود الخالق ..
- * واستقامة الخلق دليل وحدة الخالق ..
- * وتنوع الخلق دليل لإرادة الخالق ..
- * وعظم الخلق دليل قدرة الخالق ..
- * وحكمة الخلق دليل علم الخالق ..
- * وكل هذه الأشياء دليل حياة الخالق ..
- * وحدوث الخلق دليل قدم الخالق ..
- * ومن كان خالقاً قديماً فهو باق أبدي مبين لخلقه ، مالك لهم ، غنى عنهم ، وهو العلي الكبير ..
- وهكذا تتوالى صفات الجلال والكمال ..

وجاءت نصوص القرآن المجيد تؤكد هذه الصفات ، وتوقظ الفطر السليمة للإيمان بها ..

ففى قضية الوجود الإلهي نقرأ على سبيل المثال .. قوله تعالى : ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَالِقُونَ ﴾ أَمْ خَلَقُوا السَّمَلَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ ﴿^(١) .
وفى قضية الوجدانية نقرأ قوله سبحانه :
﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾^(٢) .

وفى قضية القدرة الإلهية نقرأ قوله جل شأنه :

(١) سورة الطور الآية ٣٥ - ٣٦ . (٢) سورة الأنبياء الآية ٢٢٠ .

﴿ إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسْعَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾^(١) .

وفى قضية الإرادة الإلهية نقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَا لِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾^(٢) .

وفى قضية العلم الإلهي نقرأ قوله عز اسمه :

﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ . وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾^(٣) .

وفى قضية الحياة الإلهية نقرأ قوله تعالى :

﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾^(٤) .

وفى قضية القدم والبقاء نقرأ قوله سبحانه :

﴿ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾^(٥) .

﴿ .. كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾^(٦) .

وهكذا توافق النقل والعقل على هذه الصفات الإلهية ، والتقيا على وجوبها لله سبحانه وتعالى .

(١) سورة الأعراف الآية : ٥٤ . (٢) سورة آل عمران الآية : ٢٦ ، ٢٧ .

(٣) سورة الأنعام الآية : ٦٠ ، ٥٩ . (٤) سورة البقرة الآية : ٢٥٥ .

(٥) سورة الحديد الآية : ٣٠ . (٦) سورة القصص الآية : ٨٨ .

وهذا القدر مما لا يختلف عليه عاقلان ، ولا يمارى فيه فريقان ، ولا يختصم حوله علماء المسلمين ، لكن شطحات الفكر وخیالات العقل دفعت بهم إلى جدل طويل حول مباحث ، لا يدركون كنهها ، ولا يعرفون حقيقتها ، ولا يستطيعون لها حلاً ، فقد طرحوا تساؤلات حول الصفات مثل :

هل الصفات الإلهية عين الذات ، أو غير الذات ، أو لا عين ولا غير ؟
واتهم الفرقاء بعضهم بعضاً !!

لقد اختار المعتزلة والفلاسفة الأول ، واختار جمهور المتكلمين الثانى ، واختار الأشعرى الثالث .

وشنع المعتزلة على مخالفهم بأنهم يعددون القدماء ويلزمهم القول بآلهة شتى ، وإذا كان النصارى قد كفروا بثلاثة أقانيم فكيف بمن يقول بسبع صفات قديمة مغايرة للذات الإلهية ؟!

ورد مثبتو الصفات بأن المعتزلة معطلة ، جردوا الذات الإلهية عن التأثير فى الكون والكائنات ، وجعلوها وهماً لا حقيقة لها ، وخیالاً لا وجود لها .
ورأى المحققون من العلماء أن مسألة زيادة الصفات وعدم زيادتها ليست من الأصول التى يتعلق بها تكفير أحد الطرفين ، ونقل الإمام جلال الدين الدوانى المتوفى سنة ٩١٨ هـ عن بعض الأصفياء أنه لا يرى بأساً فى اعتقاد أحد طرفى النفى والإثبات فى هذه المسألة .

وقدم الشيخ الدوانى تحقيقاً لقول الفلاسفة بعينية الصفات بأن ذاته تعالى من حيث إنه مبدأ لانكشاف الأشياء عليه - علم ، ولما كان مبدأ الانكشاف على ذاته بذاته كان عالماً بذاته .

وكذا الحال فى القدرة والإرادة وغيرها من الصفات .. قالوا : وهذه المرتبة أعلى من أن تكون الصفات مغايرة للذات ، فإننا مثلاً نحتاج فى انكشاف الأشياء علينا إلى صفة مغايرة لنا ، قائمة بنا ، وهو تعالى لا يحتاج إليها ، بل بذاته تنكشف الأشياء عليه .
ولذلك قيل : محصول كلامهم نفى الصفات وإثبات نتائجها وغاياتها ، وأما المعتزلة فظاهر كلامهم أنها عندهم من الاعتبار العقلية التى لا وجود لها فى الخارج ^(١) .

(١) الشيخ محمد عبده بين الفلاسفة والكلاميين - تحقيق د. سليمان دنيا - ج ١ ، ص ٢٧٨ .

وأخر متشابهات

وردت نصوص شرعية تضيف ألفاظاً إلى الله تعالى ، يقف العقل أمامها دون أن يقطع بها إثباتاً أو نفيّاً ، وذلك كإضافة الوجه واليد والعين إلى الله سبحانه في مثل قوله جل شأنه : ﴿.. كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ...﴾^(١) .

﴿.. يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ...﴾^(٢) .

﴿وَاضْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا...﴾^(٣) .

فكيف يفهم المسلم هذه النصوص ١٩

إن الفرق الإسلامية على أربعة اتجاهات هي :

التفويض ، أو التشبيه ، أو التأويل ، أو الإثبات بضوابطه .

وهاك التفصيل :

أولاً : التفويض :

عامة السلف الذين تلقوا هدى الكتاب الكريم بقبول حسن ، وآثروا صحة الاعتقاد وكثرة العمل ، ونزهوا عقولهم عن الجدال والخوض فيما لا يعنى - هؤلاء وجدوا أن في آيات التنزيل ألفاظاً قد توهم التشبيه مثل قوله تعالى : ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾^(٤) ، فجعلوها من المتشابه .

وأدركوا بسلامة فطرتهم أن العقل الإنسانى قاصر عن إدراك حقيقة الذات الإلهية وصفاتها ، فتوقفوا عن الخوض فيها ، وآثروا السلامة ، فقوضوا علم هذه الآيات إلى الله تعالى ، وقالوا :

أمروها كما جاءت ، وإذا سئلنا عن تفسيرها لا نفسرها .

(٢) سورة الفتح الآية . ١٠

(٤) سورة طه الآية ٥ .

(١) سورة القصص الآية : ٨٨ .

(٣) سورة الطور الآية ٤٨ .

وقد نقل الإمام البخارى فى تفسيره رواية عن سفيان الثورى ، والأوزاعى ،
والليث بن سعد ، وسفيان بن عيينة ، وعبد الله بن المبارك وغيرهم من علماء السنة
فى هذه الآيات التى جاءت فى الصفات المتشابهات :
« أمروها كما جاءت بلا كيف » .

ونقل الإمام الخازن فى تفسيره روايات للبيهقى منها :
« رواية يحيى بن يحيى قال : كنا عند مالك بن أنس ، فجاء رجل فقال : يا أبا
عبد الله ﴿ الرَّخْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ كيف استواؤه ؟
فأطرق مالك برأسه حتى علتة الرخصاء^(١) ثم قال : الاستواء غير مجهول^(٢) ،
والكيف غير معقول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة . وما أراك إلا مبتدعاً ،
فأمر به أن يخرج .

« رواية عن ابن عيينة قال : كل ما وصف الله تعالى به نفسه فى كتابه فتفسيره
تلاوته والسكوت عنه .

« ثم ذكر الخازن أن البيهقى قال :
« والآثار عن السلف فى مثل هذا كثيرة ، وعلى هذه الطريقة يدل مذهب
الشافعى رضى الله تعالى عنه ، وإليه ذهب أحمد بن حنبل ، والحسن بن الفضل
البعلى ، ومن المتأخرين أبو سليمان الخطابى »^(٣) .

وقد تكلم الإمام الشهرستانى عن فريق من السلف توقف فى التأويل وقالوا :
لا نعرف معنى اللفظ الوارد فيه ، ولسنا مكلفين بمعرفة تفسير هذه الآيات
وتأويلها ، بل التكليف قد ورد بالاعتقاد بأنه لا شريك له ، وليس كمثله شىء ،
وذلك قد أثبتناه يقيناً .

(١) الرخصاء : العرق .

(٢) أى معلوم معناه اللغوى لكنه غير معقول الثبوت لله تعالى .

(٣) لباب التأويل فى معانى التنزيل للإمام علاء الدين على بن محمود بن إبراهيم البعداوى الصوفى
المعروف بالخازن - فرع من تأليفه يوم الأربعاء العاشر من رمضان ٧٢٥ هـ ، وبهامشه معالم التنزيل للإمام
البعوى ح ٢ ، ص ١٩٦ - طبعة المكتبة التجارية الكبرى .

وأكد الشهرستاني أن منهاج السلف المتقدمين هو طريق السلامة فقالوا : نؤمن بما ورد به الكتاب والسنة ، ولا نتعرض للتأويل^(١) ، بعد أن نعلم قطعاً أن الله عز وجل لا يتبّه شيئاً من المخلوقات ، وأن كل ما تمثّل في الوهم فإنّه خالفه ومقدّره .

ونقل الشهرستاني أنّهم كانوا يحتزّون عن التشبيه إلى غاية أن قالوا : من حرك يده عند قراءة قوله تعالى « خلقت يدي » ، أو أشار بأصبعه عند رواية : « قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن » ، وجب قطع يده وقلع أصبعه .

واحتاط بعضهم أكثر حتى لم يقرأ اليد بالفارسية ، ولا الوحه ، ولا الاستواء ، ولا ما ورد من جسّ ذلك ، بل إن احتاج في ذكره إلى عبارة عبّر عنها بما ورد لفظاً بلفظ ، فهذا هو طريق السلامة^(٢) .

ولعلّ هذا المنهج التفويضي هو ما كان شائعاً على عهد الصحابة رضي الله عنهم ، وقد أخرج الدارمي في مسنده ، ونصر المقدسي في الحجة عن سليمان بن يسار أن رجلاً يقال له : صبيغ قدم المدينة فجعل يسأل عن متشابه القرآن ، فأرسل إليه عمر ، وقد أعد له عراجين النخل ، فقال : من أنت ؟ إليه عمر ، وقد أعد له عراجين النخل ، فقال : وأنا عبد الله عمر .

فأخذ عمر عرجوناً من تلك العراجين فضربه حتى دمي رأسه ، فقال : يا أمير المؤمنين حسبك فقد ذهب الذي كنت أجّد في رأسي !!

وأخرج الدارمي أيضاً من وجه آخر وفيه :
أنّه ضربه ثلاث مرّات ، يتركه في كلّ مرّة حتى يبرأ ثم يضربه .
وأخرج أصل القصة ابن عساكر في تاريخه عن أنس .
وأخرج الدارمي وابن عساكر أن عمر كتب إلى أهل البصرة أن لا يجالسوا صبيغاً^(٣) .

(١) التأويل بمعنى التفسير : أي لا يفسرها .

(٢) راجع الملل والحل - تحقيق عبد العزيز الوكيل ص ٩٢ ، ١٠٤ ، ١٠٥ - طبعة دار الفكر - بيروت .

(٣) نقل عن تفسير الإمام الشوكاني « فتح القدير » ح ١ ص ٣١٩ ، وراجع حياة الصحابة للكاتبه لوى ح ٣ ، ص ٧٤٦

لقد كان الصحابة يسارعون إلى الخيرات ، ولم يتوقفوا عند لفظة أو ألفاظ قد يعيب فهمها عنهم ، أو تعلو على مداركهم ، ومضوا في يقين الصادقين وإخلاص المؤمنين وطهارة الأبرار ينشرون الإسلام في كل مكان .

ونقل عن الصديق رضى الله عنه أنه سئل عن قوله تعالى ﴿ وَفَاكَّهُتْ وَابَّأً ﴾ ^(١) ، فقال : أى سماء تظلمنى ، وأى أرض تقلنى إن أنا قلت فى كتاب الله ما لا أعلم .

وجاءت مقولة حكيمة تنسب إلى مسروق قال :

اتقوا التفسير فإنما هو الرواية عن الله ^(٢) !!

وهؤلاء المفوضة يقفون وقفاً لازماً على لفظ الجلالة فى قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ﴾ تم يستأنفون القراءة :

﴿ .. وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا ... ﴾ ^(٣) .

فهم يرون أن تأويل المتشابه وتفسيره وإدراك معناه مقصور على الله تعالى ، وأن شأن الراسخين فى العلم التفويض والإيمان بأن له معنى يليق بالله تعالى - يعلمه الله .

وهذا الاتجاه التفويضى لدى السلف أبرزه ابن حلدون وجعله فاتحة كلامه عن كشف الغطاء عن المتشابه من الكتاب والسنة ، وقال : ويدل على أن التأويل فيها غير معلوم للبشر أن الألفاظ اللغوية إنما يفهم منها المعانى التى وضعها العرب لها ، فإذا استحال إسناد الخبر إلى المخبر عنه جهلنا مدلول الكلام حيثل ، وإن جاءنا من عند الله فوضنا علمه إليه ، ولا نشغل أنفسنا بمدلول بلتمسه ، فلا سبيل لنا إلى ذلك .

(١) سورة عس الآية . ٣١ .

(٢) نقلاً عن « الموافقات فى أصول الشريعة » للإمام الشاطبى ، ح ٣ ، ص ٣١٦ ، ط دار الكتب العلمية .

(٣) سورة آل عمران الآية : ٧ .

وقد قالت عائشة رضى الله عنها : « إذا رأيتم الدين يجادلون في القرآن فهم الذين عنى الله فاحذروهم » .

هذا مذهب السلف في الآيات المتشابهة ، وجاء في السنة ألفاظ مثل ذلك ، محملها عندهم محمل الآيات ، لأن المنبع واحد ^(١) .

وانتهى ابن خلدون إلى تقرير أن مذهب السلف هو تفويض المراد بها إلى الله ، والسكوت عن فهمها .

٢ - التشبيه :

ترتكز عقيدة التشبيه على ظواهر النصوص ، وتفسيرها من خلال معاجم اللغة ، بناء على أن القرآن نزل بلسان عربي مبين .

فحص جميعاً نبحت عن ألفاظ القرآن لفهمها من حيث الوضع العربي ما لم يرد صارف شرعى ينقلها إلى معنى آخر ، فالصلاة - مثلاً - نأخذها بالمعنى اللغوى وهو الدعاء في قوله تعالى : ﴿ .. وَصَلُّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ .. ﴾ ^(٢) .

ونأخذها بالمعنى الشرعى في قوله تعالى : ﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴾ ^(٣) ، فهي أقوال وأفعال مفتحة بالتكبير ، مختمة بالتسليم .

فإذا قرأنا مثل هذه الآيات :

﴿ .. ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ... ﴾ ^(٤) .

﴿ وَاضْنَعُ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا ... ﴾ ^(٥) .

(١) مقدمة ابن خلدون المتوفى سنة ٨٠٨ هـ ص ٣٧٥ - طبعة دار الكتب العلمية - بيروت ١٤١٣ هـ ١٩٩٣ م .

(٢) سورة التوبة الآية : ١٠٣ .

(٣) سورة البقرة الآية : ٢٣٨ .

(٤) سورة الأعراف الآية : ٥٤ .

(٥) سورة هود الآية : ٣٧ .

﴿ أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِنَّا عَمَلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴾^(١) .
 ﴿ وَيَتَقَىٰ وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾^(٢) .

فالمرجع إلى اللغة العربية ، فيكون لله تعالى استواء كاستوائنا ، وعين كعيننا ، ويد كيدنا ، ووجه كوجهنا ... إلخ .

ووصل هؤلاء المشبهة - كما قال الشهرستاني - إلى أنهم أجازوا على ربهم الملازمة والمصافحة ، وأن المسلمين المخلصين يعانقونه في الدنيا والآخرة إذا بلغوا في الرياضة والاجتهاد إلى حد الإخلاص والاتحاد المحض .

وحكى الكعبى عن بعضهم أنه كان يجوز الرؤية في دار الدنيا ، وأن يزوروه ويزورهم ، وحكى عن داود الجواربى أنه قال :
 اغفونى عن الفرج واللحية واسألونى عما وراء ذلك !!

وقال : إن معبوده جسم ولحم ودم ، وله جوارح وأعضاء من يد ورجل ورأس ، ولسان وعينين وأذنين ، ومع ذلك جسم لا كالأجسام ولحم لا كاللحوم ، ودم لا كالدماء !!

وكذلك سائر الصفات ، وهو لا يشبه شيئاً من المخلوقات ، ولا يشبهه شيء !!
 وحكى عنه أنه قال : هو أجوف من أعلاه إلى صدره ، مصمت ما سوى ذلك ، وأن له وفرة^(٣) سوداء ، وله شعر قطط^(٤) ٥ .

ومن زعماء المشبهة أبو عبد الله محمد بن كرام من سجستان ، وبلغ أتباعه في خراسان أكثر من عشرين ألفاً ، وكان له مثل ذلك في أرض فلسطين ، وصفه الشهرستاني فقال :

(١) سورة يس الآية : ٧١ .
 (٢) سورة الرحمن الآية : ٢٧ .
 (٣) الوفرة : ما سال على الأديين من الشعر
 (٤) قطط : أى جمع شديد العودة .
 (٥) اللل والحل ص ١٠٥ .

وينبغي رجل متمسك^(١) بالزهد من سجستان ، يُقال له : أبو عبد الله محمد بن كرام ، قليل العلم ، قد قمش^(٢) من كل مذهب ضعفاً^(٣) ، وأثبتته في كتابه ، وروجه على أغنام^(٤) غرجة ، وعور ، وسواد بلاد خراسان .

فانتظم ناموسه ، وسار ذلك مذهباً ، وقد نصره محمود بن سبكتكين السلطان ، وصب البلاء على أصحاب الحديث والشيعة من جهتهم ، وهو أقرب مذهب إلى مذهب الخوارج ، وهم مجسمة ، وحاش ، غير محمد بن الهيصم فإنه مقارب^(٥) .

وذكره ابن كثير في تاريخ سنة خمس وخمسين ومائتين ، ونقل أنه ينسب إلى ابن كرام حواز وضع الأحاديث على الرسول ﷺ وأصحابه وغيرهم .. وأنه كان يقول : إن الإيمان قول بلا عمل .

ولما حبس وطال حبسه كان يتأهب لصلاة الجمعة ، ويأتي إلى السجن فيقول له : دعني أخرج إلى الجمعة فيمنعه فيقول : اللهم إنك تعلم أن المنع من غيري^(٦) !!

ثالثاً : التاويل :

وجد فريق من العلماء أن المشبهة قد وقعوا في مزلق حطير هو تشبيه الخالق بالخلق ، وهو نقص يتزعه عنه المولى سبحانه .

ونقموا على المشبهة أنهم لم يفهموا لغة العرب ، فإن فيها الحقيقة والحجاز ، وأنه إذا خلا الكلام من الحجاز فقد خلا من الحسن .

فبدأ هؤلاء العلماء يصرفون الآيات عن ظواهرها اللغوية ويفسرونها تفسيراً مجازياً مناسباً للمقام .

فاليد بمعنى القدرة أو العطاء أو النعمة .

والوجه كناية عن الذات بأجمعها .

(١) أي متمسك . (٢) أحد ردائل المذاهب .

(٣) الباطل والفساد . (٤) عوام هذه المناطق .

(٥) الملل والحل ص ٣١ .

(٦) البداية والنهاية لابن كثير ، تحقيق محمد عبد العزيز النجار .

والعين مجاز عن الرعاية .

والاستواء تعبير عن الاستيلاء والقهر والسلطان .

وقالوا ليس يعقل أن يكون لله تعالى صفة تسمى اليد فهماً من قوله تعالى :
﴿ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ ، وصفة تسمى اليدين فهماً من قوله جل شأنه : ﴿ لَمَّا
خَلَقْتَ يَدَيْ ﴾ وصفة تسمى الأيدي فهماً من قول سبحانه ﴿ مِمَّا عَمِلْتَ
أَيْدِينَا ﴾ !!

وإذا كان صرف اللفظ من حقيقته إلى مجاره يحتاج إلى قرينة ، فإن القرينة في
مثل هذه الآيات هو التشبيه الذي لا يليق بجلال الله وكماله ، فيكون المعنى الحقيقي
غير مراد ، وينبغي صرف اللفظ إلى المجاز .

ونسوق هنا نموذجاً تفصيلياً للراغب الأصفهاني المتوفى سنة ٥٠٢ هـ قال :
يد : اليد الجارحة .

واستعير اليد للعمة ، فقليل : يَدَيْتُ إليه : أى أسديت إليه ، وتجمع على أيادٍ ،
وقيل : يدئى ، قال الشاعر :

* فَإِنْ لَهُ عِنْدِي يَدَيًّا وَأَنْعَمَا *

وللحوز والمِلْك مرة ، يقال : هذا فى يد فلان ، أى فى حوزة وملكه ، قال
تعالى : ﴿ .. إِلَّا أَنْ يَغْفُورَ أَوْ يَغْفُورَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النَّكَاحِ ... ﴾ (١) .
وقولهم : وقع فى يَدَيِّ عدل .

وللقوة مرة ، يقال لفلان يد على كذا ، ومالى بكذا يد ، ومالى به يدان ، قال
الشاعر :

فَاعْتَمَدْ لِمَا تَعْلُو فَمَا لَكَ بِالَّذِي لَا تَسْتَطِيعُ مِنَ الْأُمُورِ يَدَانِ

ويقال : وضع يده فى كذا إذا شرع فيه .

ويده مطلقة عبارة عن إيتاء النعيم .

ويد مغلوله عبارة عن إمساكها ، وعلى ذلك قيل : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ

(١) سورة البقرة الآية ٢٣٧ .

مَقْلُوبَةً غَلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُغْنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ﴿١﴾ .
ويقال : نفضت يدي عن كذا : أى حليت .

وقوله عز وجل : ﴿ .. إِذْ أَيْدِيكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ ... ﴾ ^(٢) أى قويت يدك .

وقوله : ﴿ .. فَوَيْلٌ لَهُمْ مُمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ ... ﴾ ^(٣) فنسبته إلى أيديهم تنبيه
على أنهم اختلفوه ، وذلك كنسبة القول إلى أفواههم فى قوله عز وجل : ﴿ .. ذَلِكَ
قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ ﴾ ^(٤) تنبيهاً على اختلافهم .

وقوله : ﴿ .. أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبِطُشُونَ بِهَا ... ﴾ ^(٥) ، وقوله : ﴿ .. أُولَى
الْأَيْدَى وَالْأَبْصَارِ ﴾ ^(٦) إشارة إلى القوة الموجودة لهم .

وقوله : ﴿ .. وَادْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ ﴾ ^(٧) أى القوة .

وقوله : ﴿ .. حَتَّى يَغْطُوا الْجُزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ ^(٨) أى يعطون
ما يعطون عن مقابلة نعمة عليهم فى مُقَارَتِهِمْ ، وموضع قوله : (عن يد) فى
الإعراب حال ، وقيل : بل اعتراف بأن أيديكم فوق أيديهم : أى يلتزمون الذل .
ويقال : فلان يد لفلان : أى وليه وناصره .

ويقال لأولياء الله : هم أيدي الله ، وعلى هذا الوجه قال الله عز وجل : ﴿ إِنَّ
الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ... ﴾ ^(٩) فإذا يده عليه
الصلاة والسلام يد الله ، وإذا كان يده فوق أيديهم فيد الله فوق أيديهم ، ويؤيد
ذلك ما روى : « لا يزال العبد يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت
سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى
يمشى بها ... الحديث » .

وقوله : ﴿ .. مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا ... ﴾ ^(١٠) ، وقوله : ﴿ .. لِمَا خَلَقْتُ

-
- | | |
|------------------------------|--------------------------------|
| (١) سورة المائدة الآية ٦٤٠ . | (٢) سورة المائدة الآية : ١١٠ . |
| (٣) سورة البقرة الآية ٧٩ . | (٤) سورة التوبة الآية ٣٠ . |
| (٥) سورة الأعراف الآية ١٩٥ . | (٦) سورة ص الآية ٤٥ . |
| (٧) سورة ص الآية ١٠ . | (٨) سورة التوبة الآية ٢٩ . |
| (٩) سورة الممتح الآية ١٠ . | (١٠) سورة يس الآية ٧١ . |

يَبْدَى ﴿^(١)﴾ ، فعبرة عن توليه خلقه باحتراعه الذى ليس إلا له عز وجل ، وتُحْصَى لفظ اليد ليتصور لنا المعنى ، إذ هو أجل الجوارح التى يتولى بها الفعل فيما بيننا ، ليتصور لنا اختصاص المعنى لا ليتصور منه تشبيهاً .

وقيل : معناه بنعمتى التى رشتها لهم ، والباء فيه ليس كالباء فى قولهم قطعته بالسكين بل هو كقولهم خرج بسيفه : أى معه سيفه ، معناه خلقتهم ومعه نعمتى الدنيوية والأخروية اللتان إذا رعاهما بلغ بهما السعادة الكبرى .
وقوله : ﴿.. يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ...﴾ : أى نصرته ونعمته وقوته .

وأما قوله تعالى : ﴿وَلَسَّمَا سَقُطَ فِي أَيْدِيهِمْ ...﴾ ^(٢) : أى ندموا ، يقال سقط فى يده وأسقط ، عبارة عن المتحسر ، أو عمن يقلب كفيه كما قال عز وجل : ﴿.. فَأَصْبَحَ يَقْلُبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا ...﴾ ^(٣) .

وقوله : ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾ : أى كفوا عما أمروا بقبوله من الحق ، يقال : ردّ يده فى فمه : أى أمسك ولم يجب .

وقيل : ردوا أيدي الأنبياء فى أفواههم : أى قالوا ضعوا أناملكم على أفواهكم واسكتوا .

وقيل : ردوا نعم الله بأفواههم : أى بتكذيبهم .. ﴿^(٤)﴾ .

وزعماء هذا الاتجاه جمهور المتكلمين من المعتزلة والأشاعرة .

لكن المعتزلة يجعلون التأويل الاختيار الأوحده ، ولا بديل عنه ، أما الأشاعرة فيجعلون التأويل ثانى اثنين ، فهم يقولون بالتأويل أو التفويض ، بل يعيل كثير منهم إلى ترجيح جانب التفويض .

وعلى سبيل المثال فإن الإمام الرازى فى تفسيره يختار التفويض ويقول : « لا يعلم المتشابه إلا الله ، وهذا قول ابن عباس وعائشة ومالك بن أنس والكسائى

(١) سورة ص الآية : ٧٥ . (٢) سورة الأعراف الآية : ١٤٩ .

(٣) سورة الكهف الآية : ٤٢ .

(٤) المفردات فى غريب القرآن لأبى القاسم الحسن بن محمد المعروف بالراغب الأصفهائى - تحقيق محمد سيد كيلانى ص ٥٥٠ - طبعة دار المعرفة - بيروت

والفراء ، ومن المعتزلة أبو علي الحبائي ، وهو المختار عندنا .. » .

ثم يقول : دل الدليل على أنه يمتنع أن يكون الإله في مكان ، فعرفنا أنه ليس مراد الله تعالى من هذه الآية : ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ ما أشعر به ظاهرها .. إلا أن في مجازات هذه اللفظة كثرة ، وصرف اللفظ إلى البعض دون البعض لا يكون إلا بالترجيحات اللغوية الظنية .

والقول بالظن في ذات الله تعالى وصفاته غير جائز بإجماع المسلمين .. وهذه حجة قاطعة في المسألة .

والقلب الخالي عن التعصب يميل إليه .

والفطرة الأصلية تشهد بصحته ، وبالله التوفيق » ^(١) .

وفي موضع آخر من التفسير يسوق للعلماء الراسخين مذهبين ، يجعل أولهما أن نقطع بكونه تعالى متعالياً عن المكان والجهة ولا نخوض في تأويل الآية على التفصيل بل نفوض علمها إلى الله .

ثم يعلق عليه قائلاً : « وهذا المذهب هو الذي نختاره ونقول به ، ونعتمد عليه » ^(٢) .

وانتقد عضد الدين الإيحي موقف أبي الحسن الأشعري من هذه النصوص ، وساقها تحت عنوان ، صفات اختلف فيها ، وقال عن الاستواء : « وذهب الشيخ (الأشعري) في أحد قوليهِ إلى أنه صفة زائدة ، ولم يَقم دليلاً ، ولا يجوز التعويل على الظواهر مع قيام الاحتمال » ، وقال عن الوجه :

« أثبتته الشيخ في أحد قوليهِ ، وأبو إسحق الإسفراييني والسلف صفة زائدة ، وقال في قول آخر ، ووافقهُ القاضي : إنه الوجود ، وهو - كما قبله - في عدم القاطع ^(٣) » .

ومن هنا جاء نظم الشيخ اللقاني في جوهرة التوحيد :

وكل بص أوهم التشبيهاً أوله أو فوض ، ورم تنزيهاً

(١) التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب ، ج ٧ ، ص ١٩٠ .

(٢) التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب ، ج ١٤ ، ص ١٢١ .

(٣) المواقف ص ٢٩٧ .

رابعاً : الإثبات بضوابط :

رفض جمع من السلف والخلف الاتجاهات الثلاثة السابقة ، واصطنعوا مذهباً يقوم على الإثبات للوصف مع نفي التشبيه ، ورفض التأويل ، والطعن في التفويض . وجاء في كتاب « الفقه الأكبر » المنسوب إلى الإمام أبي حنيفة :

« وله (تعالى) يد ووجه ونفس ، كما ذكره الله تعالى في القرآن ، فما ذكره الله تعالى في القرآن من ذكر الوجه واليد والنفس فهو له صفات بلا كيف ، ولا يقال : إن يده قدرته أو نعمته ، لأن فيه إبطال الصفة ، وهو قول أهل القدر والاعتزال ، ولكن يده صفة بلا كيف ، وغضبه ورحمته صفتان من صفاته تعالى بلا كيف » (١) .

وللإمام محمد بن إسحق بن خزيمة كتاب في هذا الموضوع يسمى « التوحيد وإثبات صفات الرب عز وجل » قال فيه :

« فأول ما نبدأ به من ذكر صفات خالقنا جل وعلا في كتابنا هذا - ذكر نفسه ، جل ربنا عن أن يكون نفسه كنفس خلقه ، وعز عن أن يكون عدماً لا نفس له ، قال الله جل ذكره لنبيه محمد ﷺ : ﴿ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ... ﴾ (٢) .

* * *

« فنحن وجميع علمائنا من أهل الحجاز وتهامة واليمن والعراق والشام ومصر مذهبنا أنا نثبت لله ما أثبتته لنفسه ، نقر بذلك بألسنتنا ، ونصدق بذلك بقلوبنا ، من غير أن نشبه وجه خالقنا بوجه أحد من المخلوقين ، وعز ربنا عن أن يشبهه بالمخلوقين ، وجل ربنا عن مقالة المعطلين ، وعز عن أن يكون عدماً كما قال المبطلون » .

* * *

(١) شرح كتاب الفقه الأكبر لأبي حنيفة النعمان المتوفى سنة ١٥٠ هـ ، للملا علي القاري المتوفى سنة ١٠١٤ هـ ، ص ٥٨ - طبعة دار الكتب العلمية - بيروت .
(٢) سورة الأنعام الآية ٥٤٠ .

« وصفة سبحات ^(١) وجهه عز وجل ، تعالى ربنا عن أن يكون وجه ربنا كوجه بعض خلقه ، وعز أن لا يكون له وجه ، إذ الله قد أعلمنا في محكم تنزيله أن له وجهاً دواه بالجلال والإكرام ، ونفى الهلاك عنه » ^(٢) .

* * *

وذهب أبو الحسن الأشعري إلى نفس الاتجاه في كتابه « مقالات الإسلاميين » وحكى حملة ما عليه أهل الحديث والسنة من عقائد في الإلهيات ومنها : الإقرار بأن الله سبحانه على عرشه كما قال : ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ وأن له يدين بلا كيف كما قال : ﴿ خلقت بيدى ﴾ ، وكما قال : ﴿ بل يداه مبسوطتان ﴾ ، وأن له عينين بلا كيف كما قال : ﴿ تجري بأعيننا ﴾ ، وأن له وجهاً كما قال : ﴿ ويقي وجه ربك ﴾ ^(٣) .

وتبنى ابن تيمية المتوفى سنة ٧٢٨ هـ وأتباع الشيخ محمد بن عبد الوهاب المتوفى سنة ١٢٠٦ هـ هذا الاتجاه ودافعوا عنه بشدة ، وأنكروا أن يكون التفويض مذهباً للسلف ، وأكدوا أن علماء السلف لم يكفوا عن بيان معنى الآيات المتشابهات ولا تركوا تفسيرها ، وإنما حملوها على أنها كلها صفات لله عز وجل ، فهي معلومة عندهم ، والكيف هو المجهول كما في سائر ما يخص الله تعالى .

ويرى شارح الطحاوية ابن أبي العز الدمشقي المتوفى سنة ٧٩٢ هـ أن لفظ التشبيه قد صار في كلام الناس لفظاً مجملاً يراد به المعنى الصحيح .

ويذهب إلى أن ما دلّ عليه الكتاب والسنة ليس تشبيهاً طالما فهمناه في إطار قوله تعالى : ﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾ ، ويرى أن الشق الأول

(١) سبحات الله - نسم السنين المهمة والباء الموحدة - حلاله وعظمته ، وهي في الأصل جمع سحرة ، وقيل أصواء وجهه ، وقيل : محاسنه لأنك إذا رأيت حسن الوجه قلت سبحان الله .

(٢) كتاب « التوحيد وإثبات صفات الرب عز وجل » لابن خزيمة المتوفى سنة ٣١١ هـ ، راحه وعلق عليه د. محمد خليل هراس ، ص ٥ ، ١٠ ، ١٩ - طبعة دار الكتب العلمية - بيروت سنة ١٣٩٨ هـ .

(٣) مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين - تحقيق الشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد ١٩٧٨ م .

من هذا النص : ﴿ ليس كمثله شيء ﴾ رد على المشبهة ، وأن الشق الثاني ﴿ وهو السميع البصير ﴾ رد على النفاة المعطلة .

ويحفظ شارح الطحاوية للمذهبيين حسن نيتهما ومدخلهما الصحيح في نظره ويقول :

فالنفاة أحسنوا في تنزيه الخالق سبحانه عن التشبه بشيء من خلقه ، ولكن أساءوا في نقى المعاني الثابتة لله تعالى في نفس الأمر .

والمشبهة أحسنوا في إثبات الصفات ولكن أساءوا بزيادة التشبيه » ^(١) .

وقد رفض ابن خلدون المتوفى سنة ٨٠٨ هـ أن يكون الإثبات بضوابطه مذهباً للسلف ، ونسبه إلى جماعة منهم هم المحدثون والمتأخرون من الحنابلة ، ووصفهم بالارتباك في محمل هذه الصفات ، حين حملوها على صفات ثابتة لله تعالى مجهولة الكيف ، وأكد أنهم بذلك قد ولجوا في باب التشبيه الذى تنفيه آيات السلوب ، من قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ ^(٢) .

﴿ .. سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴾ ^(٣) .

﴿ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾ ^(٤) .

﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ ^(٥) .

وأن ما يسمونه تنزيهاً فى قولهم : يد لا كالأيدى ، أو وجه لا كالوجوه ، هو قول متناقض سفساف ^(٦) .

نموذج تطبيقى :

نقدم للقارئ الكريم توضيحاً لهذه المذاهب الأربعة حول قوله تعالى : ﴿ .. يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ... ﴾ :

(١) شرح العقيدة الطحاوية ص ١٠٤ - طبعة المكتب الإسلامى ١٣٩٩ هـ .

(٢) سورة الشورى الآية ١١٠ . (٣) سورة المؤمنون الآية : ٩١ .

(٤) سورة الإسراء الآية ٤٣٠ . (٥) سورة الإخلاص الآيات : ٣ ، ٤ .

(٦) مقدمة ابن خلدون ص ٣٧٧ ، ٣٧٨ - طبعة دار الكتب العلمية - بيروت .

فالمفوضة يقولون : الله أعلم بمبراه ، ولا يثبتون يداً ولا ينفونها ، ولا يقولون إنها حقيقة أو محاز .

والمشبهة يقولون : إن لله تعالى يداً تشبه أيدينا ، لأن هذا هو وضع اللغة ، ونحن لا نعرف اليد إلا اليد البشرية .

والمؤولة يقولون : اليد هنا مجاز عن القدرة ، وقد صرفنا اللفظ عن ظاهره اللغوي بقريئة النقص اللازم له وهو التشبيه ، والله تعالى منزّه عن النقص ومشابهة خلقه .

ومذهب الإثبات يرى أن لله يداً حقيقية تثبت له تعالى ، بلا تفويض فلا يقال الله أعلم بمبراه ، وبلا تشبيه فلا يقال : إن له يداً تشبه أيدينا ، وبلا تأويل فلا يقال : إن اليد مجاز عن القدرة .

* * *

تعقيب ورأى

١ - حكمة المتشابه :

إن العقل المسلم الذى بدأ مع الأمر القرآنى الأول « إقرأ » لا يكون إلا عقلاً مجتهداً ، يبحث وينقب ، ويحلل ويركب ، ويعلل ويستنبط .. وقضية المحكم والمتشابه ما هى إلا تأكيد لأهمية الاجتهاد فى الدين .

وقد ساق الإمام الزمخشري تساؤلاً هو : هلا كان القرآن كله محكماً ؟
وأجاب قائلاً : لو كان كله محكماً لتعلق الناس به لسهولة مأخذه ، ولأعرضوا عما يحتاجون فيه إلى الفحص والتأمل من النظر والاستدلال .

ولو فعلوا ذلك لعطلوا الطريق الذى لا يتوصل إلى معرفة الله وتوحيده إلا به .

ولما فى المتشابه من الابتلاء والتمييز بين الثابت على الحق والمتزلزل فيه .

ولما فى تقادح العلماء وإتباعهم القرائح فى استخراج معانيه ، ورده إلى المحكم من الفوائد الجليلة ، والعلوم الجمية ، ونيل الدرجات عند الله .. ولأن المؤمن المعتقد أن لا مناقضة فى كلام الله ، ولا اختلاف ، إذا رأى فيه ما يتناقض فى ظاهره ، وأهمه طلب ما يوفق بينه ، ويجريه على سنن واحد ، ففكر وراجع نفسه وغيره ، ففتح الله عليه ، وتبين مطابقة المتشابه المحكم - ازداد طمأنينة إلى معتقده ، وقوة فى إيقانه ^(١) .

إن آية سورة آل عمران فى المحكم والمتشابه ترشد إلى أن أصول الكتاب واضحة المعنى ، بينة الدلالة ، محروسة من الاحتمال ، ولهذا كانت محكمات يلتقى عليها المؤمنون الصادقون فى عقائدهم وعباداتهم ، فالتوحيد الخالص لله تعالى ، ونوة محمد ﷺ وعموم رسالته وختمها للوحى الإلهى ، وفرضية الصلاة والزكاة والصوم والحج ، وحرمة الربا والزنا والقتل والسرقة ... إلخ . هذه كلها محكمات .

(١) الكشف ، ح ١ ، ص ١٣٤ - الطبعة الأولى ١٣٤٣ هـ .

وهناك متشابهات تحتاج إلى فطنة عقل وروية فكر واجتهاد علم ، كى تحمل على أحسن المحامل وأقرب الوجوه وأصدق التأويل .

وهذا شأن الراسخين فى العلم بما منحهم الله من الحجة والبيان كما منح المرسلين من خلقه .. قال تعالى : ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّنْ نُّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ (١) .

والراسخون فى العلم هم الذين يوكل إليهم أمر البيان والاستنباط ، وهم أهل الذكر المشار إليهم فى قوله تعالى : ﴿ .. وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ ... ﴾ (٢) .

وقوله جل شأنه : ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٣) .

ولهذا فنحن نرجح أن الراسخين فى العلم يعلمون التأويل الصحيح للمتشابهات على قدر طاقتهم البشرية ، ونرى أن العطف أولى من الوقف فى قوله تعالى : ﴿ .. وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ ... ﴾ (٤) .

ونقل القرطبى عن شيخه أبى العباس أحمد بن عمر قوله :

وهو الصحيح ، فإن تسميتهم راسخين تقتضى بأنهم يعلمون أكثر من المحكم الذى يستوى فى علمه جميع من يفهم كلام العرب .

وفى أى شىء هو رسوخهم إذا لم يعلموا إلا ما يعلم الجميع ١١٢

لكن المتشابه متنوع ، فمنه ما لا يعلم ألبتة كأمر الروح والساعة مما استأثر الله بعلمه ، وهذا لا يتعاطى علمه أحد ، فمن قال من العلماء الخذاق بأن الراسخين لا يعلمون علم المتشابه ، فإنما أراد هذا النوع .

وأما ما يمكن حمله على وجوه فى اللغة فيتأول ويعلم تأويله المستقيم ويزال ما فيه من تأويل غير مستقيم (٥) .

(١) سورة الأنعام الآية : ٨٣ . (٢) سورة النساء الآية ٨٣ .

(٣) سورة الأنبياء الآية ٧٠ . (٤) سورة آل عمران الآية ٧٠ .

(٥) نقلا عن فتح القدير الجامع بين فى الرواية والنزاهة فى علم التفسير للإمام محمد بن على بن محمد الشوكانى المتوفى ١٢٥٠ هـ ، ج ١ ، ص ٣١٧ - طبعة دار الفكر .

٢ - فنبذ التشبيه :

نحن نقبل المذاهب الاجتهادية فى الصفات ، اللهم إلا مذهب التشبيه ، فإنه لا مستند له من العقل ، ولا تأييد له من الشرع ، فنبذ التشبيه هو الأكرم للعقل والأصح فى الدين .

ولا يعنينا ما يقال : إن المشبهة أرادوا الإثبات ثم غلوا فيه ، فكم من النوايا الحسنة الحمقاء تلقى بأصحابها فى الدرك الأسفل من النار ، ولقد ابتدع النصارى الرهبانية ابتغاء رضوان الله وقبحهم الله وذمهم .. فقال :

﴿ .. وَرَهْبَانِيَّةٌ ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾^(١) .

وعبد المشركون الأصنام زلفى إلى الله ، ولحقهم مذمة الكفر والكذب ، وعار الجهل وعاقبة الخسران ، قال تعالى :

﴿ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴾^(٢) .

إن المشبهة - عند حسن الظن بهم - أغبياء جهلاء ، فإن الله تعالى لا يماثلهم أحد من خلقه :

﴿ .. لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾^(٣) .

﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾^(٤) .

والمشبهة - عند سوء الظن بهم - عملاء دخلاء ، يحملون أفكاراً وثنية ، يريدون إقحامها على العقيدة الإسلامية ، فالوثنية كلها قائمة على تشبيه الخالق

(١) سورة الحديد الآية ٢٧ .

(٢) سورة الزمر الآية : ٣ .

(٣) سورة الشورى الآية : ١١ .

(٤) سورة الإخلاص الآية : ٤ .

بالمخلوق ، وإثبات النقص للمعبود .. قال تعالى :

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ * قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَّلُ لَهَا بَرَكَاتٍ * قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ * قَالُوا بَلَى وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ ^(١) .

٣ - حرية الاختيار :

لا حرج على المسلم - بعد نبذ التشبيه - أن يعتقد مذهباً من المذاهب الثلاثة : التفويض ، أو التأويل ، أو الإثبات بضوابطه .
فإن التفويض تسليم ، فالمسألة أكبر من العقل وأعظم من أن نحكم فيها بيقين كامل ، بل هو ترجيح وكفى .
وإن التأويل تنزيه ، وليس تعطيلاً كما يزعم البعض ، فالمؤولة يعرفون جلال الله وكماله حق المعرفة ، ولا ينازع في ذلك إلا مكابر .

وإن الإثبات بضوابطه هو لون من التأويل ، فإنهم عندما يقولون : ثبت ما أثبتته الله لنفسه بلا تشبيه ، فقد قالوا بالمجاز ، فإن صرف اللفظ عن ظاهره في الوضع العربي هو مجاز وتأويل ، فإن اللغة لا تعرف يداً حقيقية إلا اليد البشرية بلحمها وشحمها وعظمها ، ومتى أثبتوا لله تعالى يداً لا كالأيدي فقد لزمهم المجاز .

ومن هنا فنحن نخفف الوطء وندعو إلى التقارب بين هذه المذاهب ، ونرجو عدم التصايح بعبارات التفسير والتبديع تجاه هؤلاء الفرقاء ، فلم تكن المسألة في يوم ما على عهد النبوة الأولى موضع أخذ ورد ، ولا تساؤل واستفهام وتركت المسألة للفهم الصافي الذي درج عليه العربي القصيح .

٤ - وجهة نظر :

إن الذين يخوضون في الصفات الخيرية ويجمعونها ويجادلون حولها ، ويجعلونها محور العقيدة وأساس الدين - هؤلاء يفقدون الحس اللغوي البليغ ،

(١) سورة الشعراء الآيات : ٦٩ - ٧٤ .

وتنقصهم الخشية من الله تعالى .. فإن آيات ما يسمى بالصفات الخيرية لم ترد لإثبات أجزاء للذات الإلهية ولا لتحديد أعضائها !!

إنها آيات ذات دلالة حكيمة لها صلة موضوعية بالسياق الذى وردت فيه ..
فقوله تعالى : ﴿ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ لم يرد فى القرآن المجيد لإثبات اليد ، ولا للحديث عن أوصاف الإله ، وإنما جاء لتأكيد بيعة المؤمنين لرسول الله ﷺ ، وحثهم على الوفاء لها والالتزام بها والحرص عليها .

ولنقرأ : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُتَابِعُونَكَ إِنَّمَا يُتَابِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمَ يَزِيدْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (١) .

وقوله جل شأنه : ﴿ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ لم يأت لإثبات العين لله تعالى ولا علاقة له بهذا الجانب مطلقاً ، لقد جاء التعبير الكريم دعوة للصبر ، وثبتيماً لقلب النبي ﷺ ، ودعماً له فى موقفه أمام أعدائه ، وبياناً لفضل الله عليه ورعايته له .

ولنقرأ : ﴿ وَاضْمِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ * وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ ﴾ (٢) .

وقوله سبحانه : ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ ما جاء لإثبات صفة ذات لله تعالى ، وإنما لتأكيد صفة فعل للواحد القهار .

إن السياق القرآنى لهذا التعبير الكريم فى سابقه ولاحقه يجلى آثار الإبداع والقدرة والهيمنة الإلهية .

ولنقرأ : ﴿ تَنْزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى * الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى * لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى ﴾ (٣)

(١) سورة الفتح الآية : ١٠ .

(٢) سورة الطور الآيات : ٤٨ ، ٤٩ .

(٣) سورة طه الآيات ٤ - ٦ .

ولنقرأ أيضاً :

﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَحَّرَ
الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ
رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ (١) .

ولو أخذنا مثلاً من الحديث النبوي الشريف لوجدنا أن الأمر لا يختلف عما
قلناه من أن السياق اللغوي هو الذي يحدد المعنى المراد .

ففي صحيح الحديث قال رسول الله ﷺ : « لله أشد فرحاً بتوبة عبده حين
يتوب إليه من أحدكم كان على راحته بأرض فلاة ، فانفلتت منه وعليها طعامه
وشراؤه ، فأيس منها ، فأتى شجرة فاضطجع في ظلها وقد أيس من راحته ، فبينما
هو كذلك إذ هو بها قائمة عنده ، فأخذ بخطامها ، ثم قال من شدة الفرح : اللهم
أنت عبدى وأنا ربك ، أخطأ من شدة الفرح » .

فبالله عليك ماذا يفهم الإنسان السوى من هذا الحديث الشريف ؟

هل المسألة المطروحة هنا هي إثبات الفرح صفة لله تعالى ؟

لقد أراد النبي ﷺ أن يفتح باب الأمل أمام الإنسان ، ويتشله من وهدة دنوبه
ومعاصيه ، ويرتفع به إلى سمو الطهارة الروحية والأخلاقية .. وهذا هو محور
الحديث ومقصده .

إن هؤلاء الذين يتخذون من تلك النصوص الكريمة دلائل لما يسمى الصفات
الخبرية يفقدون الحس اللغوي البليغ !!

لقد أتى بعضهم بأمر عجب حين جمع ما تفرق من النصوص الشرعية ، وألف
كتباً تحمسوا لها وساقوا ما يلي :

باب ما جاء في إثبات العين ، واليدين ، واليمين ، والكف ، والأصابع ،
والساعد ، والذراع ، والساق ، والقدم ، والرجل ، والتقرب ، والاتيان ، والهرولة ،

(١) سورة الرعد الآية : ٢ .

والضحك ، والفرح ، والنظر ، والغيرة ، والملال ، والتردد ، والصبر ^(١) .
إن هذا الموقف تنقصه الخشية من الله عز وجل .

ولم يكن أحد من صحابة رسول الله ﷺ يسأل عن اليمين والأصابع ، ولم يتوقف إيمان أحد منهم على إثبات صفة الضحك والفرح ، وأدركوا بحسبهم الفطري المعاني العظيمة للغة القرآن المجيد الذي نزل بلسان عربي مبين يعرف الحقيقة والمجاز في التعبير ، وأنه إذا خلا الكلام عن المجاز خلا عن الحسن !!
إن هذه النصوص الشرعية لا تقدم صفة من صفات الذات الإلهية ، ولا تأمر بعقيدة يرتبط بها الإيمان .

* * *

(١) ولا ندري كيف يفهم هؤلاء قوله تعالى : ﴿ إنا نسيناكم ﴾ وقوله ﴿ وقيل اليوم نساكم كما سئتم لقاء يومكم هذا ﴾ ، فهل يشبهون السيان على الله تعالى ويزعمون أنه نسيان يليق بجلاله ؟ سبحان الله عما يصفون .

الفصل الثالث

رؤية الله تعالى

- * تمهيد .
- * مذاهب العلماء .
- * النصوص القرآنية في الرؤية :
 - سؤال بنى إسرائيل .
 - نفى إدراك الأبصار .
 - موسى عليه السلام في الميقات .
 - لقاء الله تعالى .
 - الحسنى وزيادة .
 - النظر إلى الله تعالى .
 - الملك الكبير .
 - المحجوبون عن الله .
- * أحاديث الرؤية .
- * ولنا تعقيب .
 - سلاح المعرفة .
 - خلاف لفظي .
 - بعيد عن الأصول .
- * على هامش الرؤية .
 - الرؤية في الدنيا .
 - رؤية الله تعالى مناماً .
 - أنواع الرؤية .

تمهيد

اختلف الفرقاء المسلمون في رؤية الخلائق لربهم سبحانه وتعالى ، وكان موضع الخلاف ومحل النزاع متعدد الجوانب :

* هل رؤية الله تعالى ^(١) جائزة عقلاً أو مستحيلة ؟

هذه النقطة تعد مدخلاً أساسياً لفهم نصوص القرآن والسنة ، وبناء على جواب هذا السؤال يطرح سؤال تال وهو :

* هل تقع رؤية الخلائق لربهم سبحانه أو لا ؟

لأنه على فرض جواز الرؤية فقد لانتقع لأنه ليس كل جائز واقعاً وحاصلاً ، فالوقوع يحتاج إلى دليل شرعى يؤكد الوقوع ..

ثم لو سلمنا برؤية الخلائق لربهم سبحانه فإن هناك تساؤلات تتوارد : من يكون الرائي ؟ هل هم المؤمنون فقط أو الخلائق أجمعون ؟

وأين تقع الرؤية ؟ هل فى الدنيا والآخرة أو فى الآخرة فقط ؟

وإذا وقعت الرؤية فى الدنيا فهل تقع يقظة أو مناماً ؟

وإذا وقعت فى الآخرة فهل تقع فى الجنة فقط أو فى مواقف خاصة من مواقف الحشر يوم القيامة ؟

هذا هو مجمل الخلاف .. ||

* * *

(١) رؤية الله من إضافة المصدر لمفعوله أى رؤية المؤمنين أو الخلائق ربهم وليس من إضافة المصدر لفاعله لأن المعنى حيثئذ يكون صفة البصر لله تعالى وهو مسحت أحر .

مذاهب العلماء

تعددت مذاهب العلماء فى موضوع الرؤية على النحو التالى :

١ - المشبهة

هؤلاء المشبهة لا يخلطون من إثبات رؤية الخلائق لربهم سبحانه كرؤية البشر بعضهم بعضاً ، فى جهة ومقابلة ، وتجسيم واتصال شعاع ، وكافة شروط الرؤية البشرية ..

بل قالوا بالتزاور والتعاقب والتصافح فى الدنيا والآخرة .. وهؤلاء المشبهة هم جماعة من الشيعة الغالية وجماعة من أصحاب الحديث الحشوية ^(١) .

٢ - المعتزلة والشيعة

اتفق المعتزلة على استحالة رؤية الخلائق لربهم سبحانه ، بناء على أن الرؤية تستلزم التشبيه والتجسيم ، وهو نقص مستحيل فى حق الله تعالى ..

والشيعة الإمامية على مذهب الاعتزال ، وهم ينقلون أقوال مشايخ المعتزلة ويدافعون عنها ، فالشيخ أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسى نقل فى تفسيره عند آية الأعراف ﴿ فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ قول الجبائى : « وأنا أول المؤمنين بأنه لا يراك شىء من خلقك ، فأنا أول المؤمنين من قومى باستعظام سؤال الرؤية » ^(٢) .

والشيخ أبو على الفضل بن الحسن الطبرسى نقل فى تفسيره عند آية سورة البقرة : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ

(١) راجع كتاب .. الملل والنحل - للشهرستانى - تحقيق عبد العزيز الوكيل ص ١٠٥ .
(٢) تفسير التبيان - تحقيق أحمد حبيب قصير العاملى - المجلد ٤ ص ٥٣٧ ط مكتبة الأمين بالسجف الأشرف ١٣٨٣ هـ - ١٩٦٤ م .

الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴿ استدلّال أبي القاسم البلخي بهذه الآية على أن الرؤية لا تجوز على الله تعالى لأنها إنكار تضمن أمرين :

أ - ردهم على نبيهم .

ب - تجويزهم الرؤية على ربهم .

ويؤيد ذلك قوله تعالى : ﴿ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً ﴾ ^(١) .

فدل ذلك على أن المراد إنكار الأمرين .. وتدل هذه الآية أيضاً على أن قول موسى ﴿ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ ﴾ ^(٢) . كان سؤالاً لقومه .. ^(٣) .

* * *

٣ - الأشاعرة وجمهور المتكلمين :

هؤلاء يقولون بحواز الرؤية عقلاً ، ووقوعها شرعاً ، ويرفضون التلازم بين الرؤية وبين التشبيه والتجسيم ، ويثبتون رؤية بلا كيفية ولا جهة ولا مقابلة ، ويفسرونها بنوع من الإدراك أو العلم المخصوص أو الرؤية القلبية .

٤ - أنصار السلفية :

هؤلاء يثبتون الرؤية بلا كيفية ، ولكن في جهة ومقابلة .

يقول الشيخ ابن أبي العز الدمشقي : فهل تعقل رؤية بلا مقابلة ؟
ومن قال : يُرى لا في جهة فليراجع عقله .
فإما أن يكون مكابراً لعقله أو في عقله شيء .

(١) سورة الساء الآية ١٥٣ .

(٢) سورة الأعراف الآية : ١٤٣ .

(٣) مجمع البيان في تفسير القرآن ، ج ١ ، ص ٢٥٥ - طبعة مكتبة الحياة - بيروت ١٣٨٠ /

١٩٦١ م .

والأ فإذا قال : « يُرى لا أمام الرائي ، ولا خلفه ، ولا عن يمينه ولا عن يساره ، ولا فوقه ولا تحته ، رَدَّ عليه كل من سمعه بفطرته السليمة » ^(١) .

* * *

وبنظرة تأملية في هذه المذاهب نرى ما يلي :

١ - استبعاد المشبهة في بحثنا هنا ، لأن الخلاف معهم ليس في الرؤية ابتداء وإنما في قضية التشبيه أساساً .

٢ - استبعاد أنصار السلفية لأنهم يلتقون مع جمهور المتكلمين في إثبات الرؤية ودلائلها ، ونقطة الخلاف معهم هي الجهة والفوقية وليست وفقاً على موضوعنا هذا .

٣ - استبعاد الشيعة لأنهم عالة على المعتزلة في كثير من آراء العقيدة وهم تلاميذ واصل بن عطاء ، وعمرو بن عبيد وغيرهم من أئمة الاعتزال .

٤ - تنحصر المذاهب - إذن - في اتجاهين :

(أ) اتجاه يثبت جواز الرؤية عقلاً ووقعها شرعاً ، وهو رأى جمهور المتكلمين .

(ب) اتجاه ينفي الرؤية لاستحالتها عقلاً وشرعاً ، وهو رأى المعتزلة .

هـ - دلائل العقل المجرد في هذا الموضوع قد لا تقف عندها كثيراً في بحثنا هنا ، لأن مؤداهما في النهاية عند المثبتين هو الإمكان ، وعند النافين هو الاستحالة ، وهناك قدر مشترك بين الإمكان والاستحالة هو عدم الوقوع ، فالشيء قد لا يقع إما لأنه مستحيل الوقوع أو لأنه ممكن لم يترجح وجوده .

وسنحاول أن نقتصر على دلالة النص وفهمه لدى الفريقين ، فهذه الدلالة كافية في موضوعنا ، وتجلى حقيقة مواقف الطرفين .

ثم إن النصوص الشرعية في الإسلام لها منحى عقلى يلجأ إليه الفريقان لتأييد

(١) شرح العقيدة الطحاوية ص ٢١١ - طعة المكتب الإسلامى ١٣٩٩ هـ .

مذهبهم ، فطبيعة الاستدلال وكيفية توجيه النص هي فيصل التفرقة بين الاستحالة والجواز .

٦ - عرضنا لآراء الفريقين من خلال فهم النصوص القرآنية نقبسه من أهم كتب التفسير في هذا المجال ، وهي :

* « الكشف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل » ، للإمام أبي القاسم جار الله ، محمود بن عمر الزمخشري المتوفى سنة ٥٣٨ هـ .

وهذا التفسير اعتزالي النزعة ، وقد طبع على هامشه كتاب « الإنصاف فيما تضمنه الكشف من الاعتزال » للإمام ناصر الدين أحمد بن محمد بن المنير الإسكندري المالكي المتوفى ٦٨٣ هـ .

* « تفسير البيان » للشيخ أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي شيخ الطائفة الإمامية ، المتوفى ٤٦٠ هـ .

* « مجمع البيان في تفسير القرآن » للشيخ أبي علي الفضل بن الحسن الطبرسي المتوفى ٥٤٨ هـ ، وهو من أكابر علماء الإمامية في القرن السادس الهجري .

وكلا الكتابين في الفكر الشيعي الذي يتبنى كثيراً من العقائد الاعتزالية ويدافع عنها .

* « التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب » للإمام فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن بن علي التميمي البكري الرازي الشافعي المتوفى ٦٠٤ هـ ، وهذا التفسير يمثل الاتجاه الأشعري والكلامي .

* * *

النصوص القرآنية في الرؤية

١ - سؤال بني إسرائيل :

قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ۖ ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ ^(١) .

فهم المعتزلة :

استدل المعتزلة بهذه الآية على استحالة الرؤية ، وقال الإمام الزمخشري :
« وفي هذا الكلام دليل على أن موسى عليه السلام رآهم القول ، وعرفهم أن رؤية ما لا يجوز عليه أن يكون في جهة - محال ، وأن من استجاز على الله الرؤية فقد جعله من جملة الأجسام أو الأعراض » .

وأكد الزمخشري أن الذين سألوا موسى هذه الرؤية كانوا في الكفر كعبدة العجل ، فسلط الله عليهم صاعقة الموت ، كما سلط على أولئك توبة القتل في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ ^(٢) .

فالكفران سواء .. كفر سؤال الرؤية ، وكفر عبادة العجل .

وعندما تكرر هذا المعنى في القرآن الكريم ، في سورة النساء ، في قوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرَنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ... ﴾ ^(٣) .

(١) سورة البقرة الآيتان : ٥٥ ، ٥٦ .

(٢) سورة البقرة الآية ٥٤ .

(٣) سورة النساء الآية : ١٥٣ .

علق الزمخشري قائلاً : « وإنما اسند السؤال إليهم (سؤال الرؤية إلى المعاصرين
لنبيوة محمد ﷺ) وإن وجد من آبائهم في أيام موسى ، وهم النقباء السبعون ،
لأنهم كانوا على مذهبهم وراضين لسؤالهم ومضاهين لهم في التعنت .

وعلل الزمخشري وصفهم بالظلم بسبب سؤالهم الرؤية وهي مستحيلة ، ولو
طلبوا أمراً جائزاً لما سموا ظالمين ، ولما أخذتهم الصاعقة ، كما سأل إبراهيم عليه
السلام أن يريه إحياء الموتى ، فلم يسمه ظالماً ، ولا رماه بالصاعقة .

* * *

فهم أهل السنة :

رد أهل السنة على لسان ابن المنير في حاشيته على الكشف بأن سبب العقوبة
لبنى إسرائيل هو التعنت والشك في خبر موسى عليه السلام بأن الله لا يرى في
الدنيا ولكن يرى في الآخرة .

وإنما وصف بنو إسرائيل بالظلم لكونهم اقترحوا على موسى خصوصية علقوا
إيمانهم بها ، ولم يعتبروا المعجز الذي اختاره الله لهم .. فيكفيهم الاقتراح والتعنت
كى يوصفوا بالظلم ، حتى ولو طلبوا أيسر الأشياء ، فظلمهم مسبب عن اقتراحهم ،
لا عن كون المقترح ممتنعاً عقلاً .

ألا ترى أن المشركين على عهد رسول الله ﷺ طلبوا أموراً جائزة ولم يجابوا
إليها ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ
يَنْبُوعًا ۖ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّجِيلٍ وَعِنَبٌ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ۖ أَوْ
تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتَىٰ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ۖ ﴾ (١) .

٢ - نفي إدراك الأبصار :

قال الله تعالى : ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ
الْخَبِيرُ ﴾ (٢) .

(١) سورة الإسراء الآيات ٩٠ - ٩٣ . (٢) سورة الأنعام الآية : ١٠٣ .

فهم المعتزلة :

فى تفسير « التبيان » لأبى جعفر الطوسى أن هذه الآية تدل دلالة واضحة على أن الله تعالى لا يرى بالأبصار ، لأنه تمدح بنفى الإدراك عن نفسه ، وكل ما كان نفيه تمدهاً فإثباته لا يكون إلا نقصاً ، والنقص لا يليق بالله تعالى ، فثبت أنه لا يجوز إدراكه . ويرى الشيخ الطوسى أن الإدراك إذا أضيف إلى واحد من الخواس أفاد ما تلك الحاسة آلة فيه ، فيقال :

أدركته بأذنى : أى سمعته ، وأدركته بأنفى : أى شمته ، وأدركته بفمى : أى ذقته ، وكذلك أدركته ببصرى : أى رأيته .

ويذهب الشيخ الطوسى إلى أن تفسير الإدراك بالإحاطة باطل ، لأنه لا يقال أدرك السور بالمدينة ، ولا أدرك الحب بالماء ، ولا أدرك الجراب بالدقيق مع إحاطة جميع ذلك بما فيه .

وقوله تعالى : ﴿ .. حَتَّى إِذَا أَذْرَكَ الْفَرْقَ ... ﴾ ^(١) ليس المراد به الإحاطة بل المعنى حتى إذا لحقه الفرق ، ومثله قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا تَرَاءَا الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ ﴾ ^(٢) أى ملحقون .

فالإدراك فى اللغة قد يكون بمعنى اللحق كقولهم أدركت فلاناً إذا لحقته ، وقد يكون بمعنى النضج كقولهم أدركت الثمرة إذا نضجت ، وأدرك القدر إذا نضج ، وأدرك الغلام إذا بلغ حال الرجال .

فهم أهل السنة :

فسر الإمام الرازى هذه الآية الكريمة على مجموعة آراء تؤيد إثبات الرؤية هى : (أ) الأبصار صيغة جمع دخل عليها الألف واللام ، فهى تفيد الاستغراق ، فقوله : ﴿ لا تدركه الأبصار ﴾ يفيد أنه لا يراه جميع الأبصار ، فهذا يفيد سلب العموم ، ولا يفيد عموم السلب ، فالنفي منصب على البعض دون البعض ، فالؤمنون يرون ربهم ، والكافرون محجوبون .

(٢) سورة الشعراء الآية : ٦١ .

(١) سورة يونس الآية : ٩٠ .

(ب) إن المنفى هو إدراك الأبصار المادية التي هي إحدى حواس الإنسان ، فلا ينفى أن يخلق الله يوم القيامة حاسة سادسة بها يحصل الإدراك والرؤية .

(ج) الرأيان السابقان يجعلان الإدراك والرؤية بمعنى واحد ، لكن قد يكون الإدراك رؤية إحاطة بجوانب الشيء ، ونهاياته وجميع حدوده ، والرؤية دون ذلك ، فهي أعم من الإدراك .

والآية نفت الإدراك وهو الأخص ، ونفى الأخص لا يلزم منه نفى الأعم ، نقول : رأيت البحر ولا نقول : أدركته .

والله تعالى لا يحيطون به علماً ، ولا تدركه الأبصار على الحقيقة الكاملة .

٣ - موسى في الميقات :

قال الله تعالى : ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنْ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَبَعًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ^(١) .

فى الزمان والمكان الذى عينه الله تعالى وحدده لموسى عليه السلام ، وقعت مفاجأة علوية قدسية ، ودار حوار حول الرؤية تمسك به المعتزلة وأهل السنة فى تأييد مذهبهم ، وذلك من عدة جوانب :

(أ) سؤال موسى : ﴿.. أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ ...﴾ .

(ب) جواب الله تعالى : ﴿.. قَالَ لَنْ تَرَانِي ...﴾ .

(ج) تعليق الرؤية على استقرار الجبل : ﴿.. وَلَكِنْ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا ...﴾ .

(د) صبح موسى وتوبته : ﴿.. وَخَرَّ مُوسَى صَبَعًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

(١) سورة الأعراف الآية : ١٤٣ .

فكيف استدل الفريقان على مذهبهم ١٩

استدلال المعتزلة :

استدل المعتزلة على استحالة الرؤية من هذه الجوانب على النحو التالي :

* إن موسى عليه السلام لم يسأل الرؤية لنفسه ، فهو أجل من أن يجعل الله تعالى منظوراً إليه مقابل بحاسة النظر ، وهو أعرق في معرفة الله تعالى من واصل بن عطاء ، وعمرو بن عبيد ، والنظام وأبي الهذيل وجميع المتكلمين .

وإنما سأل موسى عليه السلام الرؤية ليكت سفهاء قومه الذين قالوا : أرنا الله جهرة ، فأراد أن يسمعوا النص من عند الله باستحالة ذلك .. وأضاف الرؤية إلى نفسه لأنه إذا زجر عما طلب وأنكر عليه كان غيره أولى بالإنكار ، ولأن الرسول إمام أمته فكل ما يخاطب به أو ما يخاطب راجع إليهم .

* ويرى الزمخشري أن « لا » تنفي المستقبل ، تقول : لا أفعل غداً ، فإذا أكدت نفيها قلت : لن أفعله غداً ، والمعنى أن فعله ينافي حالي .

فقوله تعالى : ﴿ لا تدركه الأبصار ﴾ نفى للرؤية في المستقبل ، وقوله تعالى : ﴿ لن تراني ﴾ تأكيد وبيان لأن النفي منافي لصفاته سبحانه ، فلن تشعر باستحالة المنفى بها عقلاً ، كقوله تعالى : ﴿ .. لَن يَخْلُقُوا دُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ ... ﴾ (١) .

* ويفسر الزمخشري اتصال قوله تعالى ﴿ ولكن انظر إلى الجبل ﴾ بما قبله على معنى استحالة الرؤية فلا تطلبها يا موسى ولكن عليك بنظر آخر وهو أن تنظر إلى الجبل الذي يرجف بك وبمن طلبت الرؤية لأجلهم كيف أفعل به ، وكيف أدكه دكاً بسبب طلبك الرؤية ، لتستعظم ما أقدمت عليه بما أريك من علم أثره .

كأنه عز وعلا حقق عند طلب الرؤية ما مثله عند نسبة الولد إليه في قوله تعالى : ﴿ .. وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًا * أَن دَعَا لِلرُّحْمَنِ وَلَدًا ﴾ (٢) .

* ويذهب الزمخشري إلى أن الرؤية علقت على مستحيل ، وهو استقرار الجبل حال تحركه ، فتكون الرؤية مستحيلة .

(٢) سورة مريم الآيتان ٩٠ ، ٩١ .

(١) سورة الحج الآية : ٧٣ .

فإنه تعالى حقق الوعيد بالرجفة بسبب طلب الرؤية ، ثم جعل وجود الرؤية مشروطاً بمستحيل وهو استقرار الجبل حين يسويه بالأرض ويجعله دكاً ، فطالما تعلق العلم الإلهي بدك الجبل وتنفيذ الوعيد فلن يستقر الجبل ، لأن خلاف المعلوم الإلهي لا يقع تحت القدرة الإلهية .

وفسر الزمخشري تجلى الرب للجبل بتنفيذ الوعيد وتفتيت الجبل وتقطيعه وتسويته بالأرض .

« عندما أصبح الجبل دكاً أصابت القوم صاعقة الموت ، وغشى على موسى عليه السلام ، فلما أفاق من صعقته لجأ إلى الله منزهاً إياه عن الرؤية ، وتاب من إجراء الكلمة على لسانه حتى ولو كانت لغرض صحيح هو إقناع قومه ، وأكد موسى أنه أول المؤمنين بأن الله ليس بمرئي ، ولا يدرك بشيء من الحواس ، وقد وصف موسى طالبي الرؤية بالسفهاء وعاب عليهم وتبرأ منهم : ﴿ .. قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلِ وَإِيَّاى أَتَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السَّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِشْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيْنَا فَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴾ ^(١) .

* * *

استدلال أهل السنة :

استدل أهل السنة على جواز الرؤية بما يلي :
« إن موسى عليه السلام سأل الرؤية لنفسه ، وهو نبي مرسل يعلم ما يجب وما يستحيل وما يجوز في حق الله تعالى ، فلو كانت الرؤية مستحيلة لما سألها لنفسه ولا لغيره ، ولزجرهم عنها كما قال لهم : ﴿ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ حين قالوا : ﴿ .. اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ ^(٢) .
ولو كان موسى سألها لقومه لقال : أرهم ينظروا إليك ، ولجاء الرد بقوله : « لن يروني ﴾ .

(٢) سورة الأعراف الآية : ١٣٨ .

(١) سورة الأعراف الآية : ١٥٥ .

* قوله تعالى : ﴿لن تراني﴾ نفى لرؤية موسى لربه ، وليس نفياً للرؤية بالكلية ، ولو كانت الرؤية مستحيلة لقال « لا أرى » أو لست بمرئي .

وشبه الإمام الرازي هذا بمن يحمل في يده حجراً ، فقال له إنسان : ناولني هذا لأكله ، فإن الجواب : هذا لا يؤكل ، ولا يقال له : لا تأكله .

ولو كان في يده بدل الحجر تفاحة لقال له : لا تأكلها ، أي هذا مما يؤكل ولكنك لا تأكله .

فلما قال تعالى : ﴿لن تراني﴾ ولم يقل : لا أرى ، علم أن هذا يدل على أنه تعالى في ذاته جائر الرؤية .

ودعوى استحالة المنفى بكلمة « لن » مردودة بكثير من الآيات ، كقوله تعالى : ﴿فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَشْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَّنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾^(١) .

فخروج المنافقين للقتال مع رسول الله ﷺ ليس مستحيلاً عقلاً ، وقد خرجوا من قبل في غزوة أحد ، وغزوة الخندق ، والذي منع من خروجهم في غزوة تبوك هنا هو خبر الشرع ونهيه وليس استحالة العقل .

ولو كان المنفى بحرف « لن » مستحيلاً ما علق على شيء ، وقد قال الله تعالى على لسان كبير إخوة يوسف : ﴿.. فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾^(٢) .

فلو كانت مفارقة أرض مصر مستحيلة عقلاً ما جاز تعليقها على إذن أبيه أو حكم الله له .. لأن المستحيل لا يقع مطلقاً .

* تعليق الرؤية على استقرار الجبل هو تعليق على ممكن وليس على مستحيل ، فإن استقرار الجبل بعد دكه أمر ممكن .

(١) سورة التوبة الآية : ٨٣ .

(٢) سورة يوسف الآية : ٨٠ .

وتجلى الرب للجبل هو الرؤية ، وتقريره أن الإنسان لا يطيق رؤية الله تعالى في هذه الدنيا بدليل أن الجبل مع عظمته لما رأى الله تعالى تفرقت أجزاؤه وصار بساً .
أما كيف يرى الجبل ؟! فهذا شيء متروك لقدرة الله تعالى الذى جعل الطير أبواباً مع داود ، وأنطق النملة مع سليمان .

* التوبة فى حق الأنبياء لا تستلزم كونها عن ذنب ، ولا شك أن التوقف فى سؤال الرؤية من موسى عليه السلام - على إذن إلهى سابق كان أكمل ، وسيئات المقربين حسنات الأبرار .

٤ - لقاء الله :

جاءت آيات قرآنية تصف المؤمنين برجاء لقاء الله ، وتصف الكافرين بالتكذيب بلقاء الله ، أو أنهم لا يرجونه أو فى شك منه .

قال الله تعالى فى حق المؤمنين :

﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ (١)

وقال جل شأنه فى حق الكافرين :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ * أُولَٰئِكَ مَا لَهُمْ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (٢)

فيا ترى ماذا يعنى لقاء الله ؟

فهم المعتزلة :

يرى المعتزلة أن لقاء الله للمؤمنين هو لقاء الرضا والقبول ، وللکافرين هو لقاء الذل والهوان ، وأن التكذيب بلقاء الله هو الکفر ببلوغ الآخرة وما يتصل بها من حساب وجزاء .

(١) سورة الكهف الآية . ١١٠ .

(٢) سورة يونس الآيات : ٧ ، ٨ .

ويسوق الشيخ أبو جعفر الطوسي في معنى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُزْجُونَ لِقَاءَنَا ﴾ أمرين :

أحدهما : لا يخافون عقابنا ، كما قال الهذلي :

إذا لسعت النحل لم يرج لسمها وخالفها في بيت نوب عواسل^(١)

والثاني : لا يطمعون في ثوابها ، كما يقال : تاب رجاء لثواب الله ، وخوفاً من عقابه .

والملاقة وإن كانت لا تجوز إلا على الأجسام ، فإنما أضافها إلى نفسه ، لأن ملاقة ما لا يقدر عليه إلا الله بحسن أن يجعل لقاء الله تفخيماً لشأنه ، كما جعل إتيان الملائكة إتياناً لله ، في قوله : ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾^(٢) ، وإنما يريد وجاء أمر ربك .

فهم أهل السنة :

ساق الإمام الرازي في تفسيره الآيات التي تتحدث عن لقاء الله ، وجعلها ذات حجة قوية في ثبوت الرؤية ، وقال : اللقاء هو الوصول إلى الشيء .

وهذا في حق الله تعالى محال ، لكونه منزهاً عن الحد والنهاية .. فوجب أن يجعل مجازاً عن الرؤية .

وهذا مجاز ظاهر ، فإنه يقال : لقيت فلاناً إذا رأيته .. وحمله على لقاء ثواب الله يقتضى زيادة في الإضمار ، وهو خلاف الدليل^(٣) .

٥ - الحسنى وزيادة :

قال الله تعالى : ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾^(٤) .

(١) لم يرج - أى لم يخف . (٢) سورة الفجر الآية : ٢٢ .

(٣) التفسير الكبير ، ج ١٧ ، ص ٤١ .

(٤) سورة يونس الآية . ٢٦ ، والفر الغار الأسود .

فهم المعتزلة :

فسر الزمخشري الحسنى بالمشوبة الحسنى ، وفسر الزيادة بما يزيد على المشوبة ، وهو التفضل ، واستأنس بقوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيَرْفِيهِمْ أَجُورُهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ... ﴾ (١) .

ونقل عن بعض الصحابة والتابعين تفسيرات تؤيد مذهبه فقال :

- « عن علي رضى الله عنه : الزيادة غرفة من لؤلؤة واحدة .
- « عن ابن عباس رضى الله عنهما : الحسنى الحسنة ، والزيادة عشر أمثالها .
- « عن الحسن رضى الله عنه : عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف .
- « عن مجاهد رضى الله عنه : الزيادة مغفرة من الله ورضوان .
- « عن يزيد بن شجرة : الزيادة أن تمر السحابة بأهل الجنة : فتقول : ما تريدون أن أمطركم ؟ فلا يريدون شيئاً إلا أمطرتهم .

ولعل مما يتأيد به رأى المعتزلة حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله عز وجل يقول لأهل الجنة : يا أهل الجنة ، فيقولون : لبيك ربنا وسعديك ، والخير فى يديك ، فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون : وما لنا لا نرضى يا ربنا ، وقد أعطينا ما لم تعط أحداً من خلقك .. فيقول : ألا أعطيكم أفضل من ذلك ؟ فيقولون : وأى شئ أفضل من ذلك ؟ فيقول : أحل عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم بعده أبداً » (٢) .

وقد تهكم الزمخشري بأهل السنة ووصفهم بأنهم مشبهة ومجبرة ، ثم اتهمهم بأنهم جاءوا بحديث مرفوع يفسرون به الزيادة بأنها رؤية الله تعالى .

فهم أهل السنة :

رد ابن المنير على الزمخشري بأن تفسير الزيادة بالرؤية تفسير مستفيض منقول عن جملة من الصحابة ، وأن الحديث المروى فيه مدون فى الصحاح متفق على صحته .

(١) سورة الساء الآية : ١٧١ .

(٢) متفق عليه .

واعتمد ابن المنير أيضاً على باقى الآية : ﴿ ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة ﴾ ، وأنه يصدق صحة هذا التفسير ، فإن فيه تنبيهاً على إكرام وجوههم بالنظر إلى الله تعالى ، فجدير بهم أن لا يرهق وجوههم قتر البعد ولا ذلة الحجاب .

وأكد الرازى فى تفسيره بأن الحسنى هى الجنة ، وأن الزيادة أمر مغاير للحسنى حتى لا يلزم التكرار ، فالآية تثبت للمؤمنين شيئين : الجنة ، والرؤية .

ويدعم هذا التفسير الحديث الشريف الذى رواه مسلم بسنده عن صهيب رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إذا دخل أهل الجنة الجنة يقول الله تبارك وتعالى : تريدون شيئاً أزيدكم ؟ فيقولون : ألم تبيض وجوهنا ؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار ؟ فيكشف الحجاب ، فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم » .

وفى رواية للترمذى وغيره : « إذا دخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ، نادى مناد يا أهل الجنة : إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه ، فيقولون : ما هو ؟ ألم يثقل موازيننا ويبيض وجوهنا ويدخلنا الجنة ويجرنا من النار ؟ فيكشف الحجاب فينظرون إليه ، فما أعطاهم شيئاً أحب إليهم من النظر إليه ، وهى الزيادة .

٦ - النظر إلى الله تعالى :

قال الله جل شأنه : ﴿ اَوْجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۖ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ ^(١) .

تفسير المعتزلة :

للمعتزلة وقفات مع هذه الآية الكريمة تتعلق بمدلول كلمة الوجوه ، ومعنى كلمة إلى ، ومفهوم النظر .

فالوجه عندهم عبارة عن الجملة والذات بأجمعها .

والى مفرد آلاء بمعنى النعم .

ويفرقون بين النظر والرؤية ، فالنظر هو تقليب الخدقة نحو المرئى التماساً لرؤيته .

(١) سورة القيامة الآيتان ٢٢ ، ٢٣ .

وأهل اللغة يقولون : نظرت إلى الهلال فلم أراه ، فلو كان النظر بمعنى الرؤية لكان الكلام متناقضاً [رأيت الهلال فلم أراه] .

ويجعل أهل اللغة الرؤية غاية للنظر ، فيقولون : مازلت أنظر إلى فلان حتى رأيته ، ولا يجعل الشيء غاية لنفسه ، فلا يقال : مازلت أراه حتى رأيته .

ويقال لغة : دور بنى فلان متناظرة : أى متقابلة ولا يقال : إنها مترائية .. ثم إن الناظر يعلم ناظراً ضرورة ، ولا يعلم كونه رائياً إلا بسؤاله نفسه ، فيقال له : إنك نظرت فهل رأيت أو لا ؟

والنظر يوصف بما لا توصف به الرؤية ، يقال : نظر إليه نظراً شزرأ ، ونظر غضبان ، ونظر راض ، وذلك لأن حركة حدقة العين تدل على هذه الأحوال ، ولا توصف الرؤية بشيء من ذلك .

وقد جاء فى القرآن المجيد نفى نظر الله تعالى إلى الكافرين فقال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ^(١) .

فالمنفى هنا هو نظر الرحمة وليس رؤية الله للكافرين فإنها حاصلة بداهة .

وقد أثبت القرآن النظر حال عدم الرؤية فقال : ﴿ .. وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ ^(٢) .

فدل ذلك على أن النظر غير الرؤية .

والنظر لفظة مشترك بين معان كثيرة ، وقد يذكر ويراد به الانتظار ، كما فى قوله تعالى : ﴿ .. فَتَنْظُرُهُ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ... ﴾ ^(٣) وقوله جل شأنه : ﴿ .. فَتَنْظُرُهُ بِمَ يَزْجَعُ الْمُرْسَلُونَ ﴾ ^(٤) ، وقوله سبحانه : ﴿ .. انْظُرُونَا نَقْتِسَبْ مِنْ نُورِكُمْ ... ﴾ ^(٥) .

(٢) سورة الأعراف الآية : ١٩٨ .

(٤) سورة الحمل الآية . ٣٥ .

(١) سورة آل عمران الآية : ٧٧ .

(٣) سورة البقرة الآية : ٢٨٠ .

(٥) سورة الحديد الآية : ١٣ .

وفى الشعر العربى نجد قول الشاعر المثقب العبدى أو الممزق :
فإن يك صدر هذا اليوم ولى فإن غداً لناظره قريب

ويخلص المعتزلة إلى أن معنى الآية الكريمة ﴿إلى ربها ناظرة﴾ أن المؤمنين ينتظرون نعم الله وجزيل ثوابه ، ومزيد فضله الذى لا ينقطع ولا يمتنع ، وليس فى ذلك تنغيص ، لأنه موثوق بوصوله إلى المنتظر ، ولا يحتاج إليه فى الحال فأمامه نعم لا تعد ولا تحصى .
والتنغيص إنما يكون عند عدم الثقة فى الوصول أو عند الاحتياج إليه فى الحال ، والمؤمنون بخلاف ذلك .

ولو سلم المعتزلة - جدلاً - بأن النظر هو الرؤية فإنهم يفسرونها برؤية ثواب الله وليس رؤية ذات الله ، فالثواب أنواع من اللذات المأكولة والمشروبة والمنكوحه ، وكلها تصح رؤيتها .

تفسير أهل السنة :

رد الإمام الرازى على موقف المعتزلة بأن النظر المقرون بحرف إلى ، المعدى للوجوه ليس إلا بمعنى الرؤية ، أو بالمعنى الذى يستعقب الرؤية !!
ويرى أن حمل النظر على الرؤية أولى من حمله على الانتظار .

ويؤيد وجهة نظره هذه بأن لذة الانتظار مع يقين الوقوع كانت حاصلة فى الدنيا ، فلا بد وأن يحصل فى الآخرة شئ أزيد منه حتى يحسن ذكره فى معرض الترغيب فى الآخرة .

٧ - الملك الكبير :

قال الله تعالى : ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ (١) .

هذه الآية الكريمة لم أكن أتصور أنها تتعلق بموضوع الرؤية ، لولا أن الإمام الرازى ذكرها ، وعد الاستدلال بها أقوى من غيرها ، فقال فى معرض تعدادة لحجج الرؤية عند أهل السنة :

(١) سورة الإنسان الآية ٢٠ .

التمسك بقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴾ فإن إحدى القراءات في هذه الآية (مَلِكًا) .. بفتح الميم وكسر اللام ، وأجمع المسلمون على أن ذلك الملك ليس إلا الله تعالى .. وعندى التمسك بهذه الآية أقوى من التمسك بغيرها ^(١) .

ذكر الرازى ذلك فى تفسيره لسورة الأنعام ، ولما رجعت إلى تفسيره لسورة الإنسان لم أجد لهذا رأى أثراً ، بل لم يتطرق إلى موضوع الرؤية مطلقاً ، وفسر (الملك الكبير) بما قد يكون اقتباساً من تفسير الزمخشري ، مع بسط وإيضاح .

قال الزمخشري : (كبيراً) واسعاً وهنيئاً ، يروى « إن أدنى أهل الجنة منزلة ينظر فى ملكه مسيرة ألف عام ، يرى أقصاه كما يرى أدناه » .

وقيل : لا زوال له ، وقيل : إذا أرادوا شيئاً كان ، وقيل : يسلم عليهم الملائكة ويستأذنون عليهم ^(٢) .

قارن هذا بما قاله الرازى فيما يلى :

فالملك الكبير الذى ذكره الله ههنا لا بد وأن يكون مغايراً لتلك اللذات الخفية (حب المال والجاه) ، وما هو إلا أن تصير نفسه منقشة بقدس الملكوت ، متحلية بجلال حضرة اللاهوت .

وأما ما هو على أصول المتكلمين ، فالوجه فيه أيضاً أنه الثواب والمنفعة المقرونة بالتعظيم ، فبين الله تعالى فى الآيات المتقدمة تفصيل تلك المنافع ، وبين فى هذه الآية حصول التعظيم ، وهو أن كل واحد منهم يكون كالملك العظيم .

وأما المفسرون فمنهم من حمل هذا الملك الكبير على أن هناك منافع أزيد مما تقدم ذكره ، قال ابن عباس رضى الله عنهما : لا يقدر واصف يصف حسنه ولا طيبه ، ويقال : إن أدنى أهل الجنة منزلة ينظر فى ملكه مسيرة ألف عام ، ويرى أقصاها كما يرى أدناه .

وقيل : لا زوال له ، وقيل : إذا أرادوا شيئاً حصل .

(١) التفسير الكبير ، ح ١٣ ، ص ١٣١ . (٢) الكشف ، ج ٤ ، ص ١٩٩ .

ومنهم من حمّله على التعظيم ، فقال الكلبي : هو أن يأتي الرسول من عند الله بكرامة من الكسوة والطعام والشراب والتحف إلى ولي الله ، وهو في منزله فيستأذن عليه ، ولا يدخل عليه رسول رب العزة من الملائكة المقربين المطهرين إلا بعد الاستئذان ^(١) .

وحاولت أن أرجع إلى كتب التفسير الأخرى فوجدت أن أكثر المفسرين لم يتعرضوا لموضوع الرؤية عند هذه الآية ، ولكن بعضهم أشار إليها بإشارات عابرة ، فالعلامة النيسابوري قال :

وعن عليّ أنه قرأ (ملكاً كبيراً) بفتح الميم وكسر اللام ، وهو الله ^(٢) .
والعلامة الألوسي ذكر الآراء في معنى (الملك الكبير) ، وعد منها أنه قيل : هو النظر إلى الله عز وجل ^(٣) .
والعلامة ابن حبان قدم النظر إلى الله تعالى في أول الآراء في تفسير (الملك الكبير) ^(٤) .

ويبدو - والله أعلم - أن تفسير (الملك الكبير) بالنظر والرؤية ليس وفقاً على قراءة « ملكاً » بفتح الميم وكسر اللام ، بل هو جار في كلتا القراءتين .

٨ - المحجوبون عن الله :

قال الله تعالى : ﴿ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَنْحُورُونَ * ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ * ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ ^(٥) .

فهم المعتزلة :

يدور فهم المعتزلة للآية الكريمة على النحو التالي :

-
- (١) التفسير الكبير ، ج ٢٩ ، ص ٢٥٢ .
(٢) تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان للعلامة نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري ، على هامش جامع البيان في تفسير القرآن للإمام أبي جعفر محمد بن جرير الطبري ، ج ٢٩ ، ص ١٢٠ ، الطبعة الأولى بالمطبعة الكبرى الأميرية بيولاقي مصر المحمية ١٣٢٩ هـ .
(٣) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للعلامة السيد محمود الألوسي المتوفى ١٢٧٠ هـ ، ج ٢٩ ، ص ٢٠٣ .
(٤) البحر المحيط ، ج ٨ ، ص ٣٩٩ - طبعة النصر الحديثة بالرياض .
(٥) سورة المطففين الآيات : ١٥ - ١٧ .

١ - قال الجبائي : المراد أنهم عن رحمة ربهم محجوبون : أى ممنوعون ، كما يُقال فى الفرائض : الإخوة يحجبون الأم عن الثلث ، ومن ذلك يقال لمن يمنع عن الدخول هو حاجب ، لأنه يمنع من رؤيته .

٢ - قال أبو مسلم : لمحجوبون : أى غير مقرين ، والحجاب الرد ، وهو ضد القبول والمعنى أن هؤلاء المنكرين للبعث غير مقبولين عند الله ، وهو المراد من قوله تعالى : ﴿...وَلَا يَكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١) .

٣ - قال القاضى : الحجاب ليس عبارة عن عدم الرؤية ، فإنه قد يقال : حجب فلان عن الأمير ، وإن كان قد رآه من البعد .

وإذا لم يكن الحجاب عبارة عن عدم الرؤية سقط الاستدلال ، بل يجب أن يحمل على صيرورته ممنوعاً عن رحمة الله .

٤ - قال الزمخشري : كونهم محجوبين عن الله تمثيل للاستخفاف بهم ، وإهانتهم ، لأنه لا يؤذن على الملوك إلا للمكرمين لديهم ، ولا يحجب عنهم إلا المهانون عندهم .. وساق هذا البيت :

إذا اعتروا باب ذى عُيَّة رُجِّبوا والناس من بين مرجوب ومحجوب (٢)

فهم أهل السنة :

احتج أهل السنة على أن المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة بهذه الآية ، وقالوا : لولا ذلك لم يكن لتخصيص حجب الكافرين فائدة ، ثم إن الله تعالى ذكر هذا الحجاب فى معرض الوعيد والتهديد للكفار ، وما يكون وعيداً وتهديداً لا يجوز حصوله فى حق المؤمنين ، فوجب أن لا يحصل هذا الحجاب للمؤمنين .

وصرف الحجاب إلى الرحمة أو القول بأنه تمثيل للاستخفاف والإهانة هو عدول عن الظاهر من غير دليل .

وقال الإمام الشافعى : لما حجب قوماً بالسخط دل على أن قوماً يرونه بالرضا .

(١) سورة آل عمران الآية : ٧٧ .

(٢) اعتروا : قصدوا ، العيبة : الكبر والنخوة ، رُجِّبوا : عظموا ، والترحيب التعظيم ، والمرحوب المأذون له على الملوك لوجاعته ، المحجوب : المنوع لمهاتته .

أحاديث الرؤية

رويت أحاديث كثيرة في صحيحى البخارى ومسلم وغيرهما ، استدلت بها العلماء على إثبات رؤية المؤمنين فى الآخرة لربهم سبحانه وتعالى ، وأكد الإمام النووى فى شرحه لصحيح مسلم أن هذه الأحاديث رواها نحو من عشرين صحابياً عن رسول الله ﷺ (١) .

وذكر الشيخ ابن أبى العز الدمشقى فى شرحه للعقيدة الطحاوية أنه روى أحاديث الرؤية نحو ثلاثين صحابياً ، ووصفها بأنها متواترة ، رواها أصحاب الصحاح والمسانيد والسنن (٢) .

ونقتبس من صحيح مسلم ما يلى :

« عن أبى بكر بن عبد الله بن قيس عن أبيه ، عن النبى ﷺ قال : « جنتان من فضة أنيتهما وما فيهما ، وجنتان من ذهب أنيتهما وما فيهما ، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه فى جنة عدن » .

عبر النبى ﷺ عن زوال المانع ورفعته عن الأبصار بإزالة الرداء على سبيل المجاز .

« عن صهيب عن النبى ﷺ قال : « إذا دخل أهل الجنة الجنة قال : يقول الله تبارك وتعالى : تريدون شيئاً أزيدكم ؟ فيقولون : ألم تبيض وجوهنا ؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار ؟ قال : فيكشف الحجاب ، فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل » .

« عن عطاء بن يزيد الليثى أن أبا هريرة رضى الله عنه أخبره أن ناساً قالوا لرسول الله ﷺ : هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ فقال رسول الله ﷺ : « هل تضارون (٣) فى رؤية القمر ليلة البدر ؟ قالوا : لا يا رسول الله . قال : هل تضارون

(١) صحيح مسلم بشرح النووى ج ٣ ، ص ١٥ - طبعة دار إحياء التراث الإسلامى - بيروت .

(٢) شرح العقيدة الطحاوية ، ص ٢٠٩ - طبعة المكتب الإسلامى .

(٣) قال النووى : تضارون بتشديد الراء ويتخفيفها ، والتاء مضمومة فيهما ، ومعنى المشدد هل =

فى الشمس لفس ءونها سحاب ؟ قالوا : لا يا رسول الله . قال : فإنكم ترونه كذلك .. الحديث » .

والتشبيه هنا تشبيه رؤية برؤية فى الوضوح وليس تشبيه مرئى بمرئى ، فإن الله تعالى لا يماثله شىء من خلقه .

هذا والنافون للرؤية لا يعوزهم فهم الأحاديث الواردة كفهمهم لآيات القرآن المجيد ، على حذف مضاف أو على سبيل المجاز ، وقد ذكر الزمخشرى فى تفسيره لآية سورة الأعراف ﴿ أرى أنظر إليك ﴾ أن هناك تفسيراً آخر هو :

عرفنى نفسك تعريفاً واضحاً جلياً كأنه إراءة فى جلائها - بآية مثل آيات القيامة التى تضطر الخلق إلى معرفتك ، أنظر إليك : أعرفك معرفة اضطرار كأننى أنظر إليك ، كما جاء فى الحديث : « سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر » بمعنى ستعرفونه معرفة جليلة هى فى الجلاء كإبصاركم القمر إذا امتلأ واستوى ^(١) .

* * *

= تضارون غيركم فى حالة الرؤية نزحمة أو مخالفة فى الرؤية أو غيرها لحماته كما تفعلون أول ليلة من الشهر ، ومعنى الخفف هل يلحقكم فى رؤيته ضمير وهو الضمر .
وروى أيضاً تضامون بتشديد الميم وتحفيمها ، فمن شددتها فتح التاء ، ومن خففها ضم التاء ، ومعنى المشدد هل تتضامون وتتلطمعون فى التوصل إلى رؤيته ، ومعنى الخفف هل يلحقكم صميم وهو المشقة والتعب ، وذكر أن بعض أهل اللغة يفتح التاء فى المشدد والخفف ، وقد يصحها فيها .
(١) الكشف ص ١١٦ ، ح ٢ - طبعة دار الفكر .

ولنا تعقيب

سلاح المعرفة :

اجتهد العلماء فى موضوع الرؤية ، واستخدموا فى جدلهم كافة فنون المعرفة ، وكان لفقہ اللغة والوضع العربى نصيب الأسد فى الاستدلال .
فدارت مناقشات حول مفهوم الإدراك والرؤية والنظر والحجاب ، والفرق بين النفسى بلا ، والنفسى بلن ، ومعنى رجاء لقاء الله .
وتدخل الشعر فى تحديد المراد ، وجاءت شواهد شعرية تؤيد هذا الفريق أو ذاك .

وساق الشيخ الطوسى هذا البيت :
وجوه يوم بدر ناظرات إلى الرحمن يأتى بالفلاح^(١)
للدلالة على أن النظر بمعنى الانتظار .
وللبيت رواية أخرى تقول :
وجوه ناظرات يوم بدر إلى الرحمن تنتظر الخلاصا
وقد ردها الإمام الرازى وقال : هذا الشعر موضوع ، والرواية الصحيحة :
وجوه ناظرات يوم بكر إلى الرحمن تنتظر الخلاصا
والمراد من هذا الرحمن مسيلمة الكذاب ، لأنهم كانوا يسمونه رحمن اليمامة ، فأصحابه كانوا ينظرون إليه ويتوقعون منه التخلص من الأعداء^(٢) .
وساق الإمام الزمخشري البيت التالى :
وإذا نظرت إليك من ملك والبحر دونك زدتنى نعماً^(٣)

(١) البيان : ص ١٩٧ ، ج ٢٩ .

(٢) التفسير الكبير : ص ٢٢٦ ، ج ٣٠ .

(٣) الكشف : ص ١٩٢ ، ج ٤ .

والمعنى إذا رجوت عطاءك وأنت من الملوك والخال أن البحر أقل جوداً منك
زدتنى نعماً ، يريد معنى التوقع والانتظار والدعاء .

ونظم الزمخشري شعراً يتهم فيه بمبثى الرؤية فقال :
لجماعة سموا هواهم سنة وجماعة هم لعمري موكفة
قد شبهوه بخلقه وتخوفوا شنع الورى فتستروا بالهلكة^(١)
وقد رد عليه ابن المنير قائلاً :

وجماعة كفروا برؤية ربهم حقاً ووعد الله ما لن يخلفه
وتلقبوا عدلية ، قلنا أجل عدلوا بربهم فحسبهم سفه
وتلقبوا الناجين ، كلا إنهم إن لم يكونوا فى لظى فعلى شفه

* * *

هذا وقد تمسك العلماء فى جدلهم بقواعد المنطق ، وأحداث التاريخ ، وعلم
القراءات ، وعلم السنة .

فالمعلق على المستحيل مستحيل ، والمعلق على الجائز جائز ، فما المعلق عليه فى
قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ﴾ ١٢

وهل النفى فى قوله تعالى : ﴿ لَا تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ ﴾ لسلب العموم أو لعموم
السلب ١٢

وهل سأل موسى عليه السلام الرؤية لنفسه أو لقومه ١٢
وكيف نقراً لفظ « ملكاً » فى قوله تعالى ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمَلَكًا
كَبِيرًا ﴾ ؟

هل نقراه بضم الميم وسكون اللام أو بفتح الميم وكسر اللام ١٢
وما المعنى المراد على كلا القراءتين ؟
وهل الزيادة فى قوله تعالى : ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ ﴾ هى الرؤية بناء
على الحديث الوارد فى ذلك أو مزيد ثواب وعطاء ؟

(١) الكشاف : ص ١١٦ ، ج ٢ ، والموكفة هى الحمر عليها الرادع ، والهلكة هم القائلون بإثبات
الرؤية بلا كيف .

وكان للاحتتمالات العقلية دور كبير فى هذا الجدل .. فلماذا أخذت الصاعقة بنى إسرائيل ؟ هل لسؤالهم الرؤية أو لتعتهم واعتراضهم على الله ؟
وم كانت توبة موسى عليه السلام عندما قال : ﴿ سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين ﴾ ؟ هل تاب لأنه سأل أمراً مستحيلاً ، أو من باب حسنات الأبرار سيئات المقربين ؟

وإذا كان النظر مشتركاً لفظياً له عدة معان ، فما المراد منه والمرجع فى آية سورة القيامة ﴿ إلى ربها ناظرة ﴾ ؟
وهكذا تتداعى الاحتمالات !!

خلاف لفظى :

إن هناك نقطة مهمة تتعلق بتحديد محل النزاع وطبيعة الخلاف ، فىا ترى ماذا نفى المعتزلة ؟ وماذا أثبت أهل السنة ؟

لقد نفى المعتزلة الرؤية التى هى إدراك ببعض الحواس ، لأنها تصح فيما كان فى جهة وكان جسماً أو عرضاً ، وتعلق به شعاع البصر ، وهذا محال فى حق الله تعالى .
وأثبت أهل السنة الرؤية بلا كيفية ، وفسروها بإدراك أو علم مخصوص .

قال الإمام النووى : « مذهب أهل الحق أن الرؤية قوة يجعلها الله تعالى فى خلقه ، ولا يشترط فيها اتصال الأشعة ولا مقابلة المرئى ولا غير ذلك ، لكن جرت العادة فى رؤية بعضنا بعضاً بوجود ذلك على جهة الاتفاق لا على سبيل الاشتراط » (١) .

وذكر الإمام الرازى وجوهاً أربعة مستنبطة من آية سورة الأنعام ﴿ لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار ﴾ ، يمكن التعميل عليها فى إثبات أن المؤمنين يرون الله فى القيامة .

وكان الوجه الرابع ما نقل أن ضرار بن عمرو الكوفى كان يقول :
« إن الله تعالى لا يرى بالعين ، وإنما يرى بحاسة سادسة يخلقها الله تعالى يوم القيامة ، واحتج عليه بهذه الآية فقال : دلت هذه الآية على تخصيص نفى إدراك الله

(١) صحيح مسلم بشرح النووى ص ١٦ ، ج ٣ .

تعالى بالبصر ، وتخصيص الحكم بالشيء يدل على أن الحال في غيره بخلافه ، فوجب أن يكون إدراك الله بغير البصر جائزاً في الجملة ، ولما ثبت أن سائر الحواس الموجودة الآن لا تصلح لذلك ثبت أنه تعالى يخلق يوم القيامة حاسة سادسة بها تحصل رؤية الله تعالى وإدراكه .

وعلى هذا فإن النافين للرؤية والمثبتين لها يلتقون على نفى الرؤية البصرية المعروفة لنا وإن الإثبات والنفي في المسألة لم ينصبا على شيء واحد ، فيكون الخلاف - حيثئذ - خلافاً لفظياً ، وقد تنبه الإمام الشهرستاني من قبل إلى ذلك ، وساق اختلاف الفرقاء في مسألتى الكلام والرؤية فقال :

المختلفان في مسألة الكلام ليسا يتواردان على معنى واحد بالنفي والإثبات .. فإن الذى قال : هو مخلوق ، أراد به أن الكلام هو الحروف والأصوات فى اللسان ، والرقوم والكلمات فى الكتابة ، قال : وهذا مخلوق .. والذى قال : ليس بمخلوق ، لم يرد به الحروف والرقوم ، وإنما أراد به معنى آخر . فلم يتواردا بالتنازع فى الخلق على معنى واحد .

وكذلك فى مسألة الرؤية فإن النافى قال : الرؤية إنما هى اتصال شعاع بالمرئى ، وهو لا يجوز فى حق البارى تعالى .

والمثبت قال : الرؤية إدراك أو علم مخصوص ، ويجوز تعلقه بالبارى تعالى .

فلم يتوارد النفي والإثبات على معنى واحد .. إلا إذا رجع الكلام إلى إثبات حقيقة الرؤية فيتفقان أولاً على أنها ما هى ؟ ثم يتكلمان نفيًا وإثباتاً ، وكذلك فى مسألة الكلام يرجعان إلى إثبات ماهية الكلام ، ثم يتكلمان نفيًا وإثباتاً ، وإلا فيمكن أن تصدق القضيتان ^(١) .

بعيد عن الأصول :

لو سلمنا جديلاً أن الخلاف فى مسألة الرؤية حقيقة ، فإن المسألة برمتها خارجة عن دائرة الأصول التى يتعلق بها الإيمان والكفر .

(١) الملل والنحل - تحقيق محمد سعد كيلانى ، ج ١ ، ص ٢٠٢ .

فلم يسأل رسول الله ﷺ أحداً الإيمان بها ، ولا كلفه ضرورة الإقرار بإثباتها أو نفيها .

وكل ما سيق من أدلة في هذا المجال هي أدلة ظنية ، تقوم على الأولى والأرجح والأقرب لفهم الفريق المجادل ، ولا علاقة لها باليقين الذي هو أساس الإيمان .

وتفسير النصوص الشرعية بما يؤيد الرؤية أو ينفيها له وجهاته الشرعية واللغوية ، وعملية الترجيح تقوم على التذوق العقلي والحسنى الدينى ، وقد نرجح أحياناً جانب النفى ، وقد نميل حيناً إلى جانب الإثبات .

وكان للإمام الرازى تعبيرات ذات دلالة ومغزى في هذا المجال ، ففي آية سورة القيامة مثلاً قال : إن حمل النظر على الرؤية أولى من حمله على الانتظار !!

وإن مسألة العدول عن الظاهر التى رُمى بها المعتزلة في فهمهم لكثير من آيات الاستدلال - هي مسألة نسبية ، فالظاهر ليس حجة دائماً ، وفي مواضع عدة عدل أهل السنة عن الظاهر ، كما في آيات الصفات الخيرية .

أما كون العدول عن الظاهر للدليل أو غير دليل فهذا هو بيت القصيد ومحل النزاع ، ولا أحد من الفريقين يعدل عن الظاهر إلا لدليل يراه وحجة يتبناها .

والقول بأن أحاديث الرؤية متواترة غير مسلم ، فهى كلها أحاديث آحاد باتفاق المحدثين ، لكنها قد تلتقى على معنى واحد هو إثبات الرؤية عند القائلين بها ، فتكون من المتواتر المعنوى وليس من المتواتر اللفظى الذى يعز وجوده فى السنة .

ثم إن هذا المعنى الذى التقت عليه الأحاديث عند القائلين بإثبات الرؤية هو محل النزاع فكيف يكون متواتراً ، فضلاً عن كونه مسلماً ١٤

وقد قلت من قبل : إن النافين للرؤية لا يعوزهم فهم الأحاديث الواردة كفهمهم لآيات القرآن المجيد ، على حذف مضاف أو على سبيل المجاز .

وحين تتعدد التأويلات والاحتمالات فلا يقين ولا قطع وتظل المسألة خاضعة للاجتهاد !!

* * *

على هامش الرؤية

١ - الرؤية في الدنيا :

هناك شبه إجماع لدى أهل السنة على أن الرؤية لم تقع لأحد في الدنيا قبل سيدنا محمد ﷺ .

واختلفوا في وقوعها لسيدنا محمد ليلة الإسراء والمعراج ، وقد ظهر هذا الخلاف مبكراً منذ عهد الصحابة رضي الله عنهم ، فهناك موقف للسيدة عائشة رضي الله عنها ينفي هذه الرؤية تماماً ، وهناك مذهب لابن عباس رضي الله عنهما يثبت هذه الرؤية ، والعلماء منقسمون بين الموقف والمذهب .

موقف السيدة عائشة :

من المعروف لدى علماء الحديث أن هناك رواية عن شريك بن عبد الله بن أبي نمر ، خرجها البخاري في صحيحه ، تحوى أوهاماً أنكرها عليه العلماء ، منها :

- ١ - أن الإسراء وقع مناماً .
- ٢ - أن الإسراء كان قبل أن يوحى إليه .
- ٣ - أن الجبار عز وجل ، رب العزة تبارك وتعالى دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى فأوحى إليه ما شاء الله .

وقد نقل الإمام النووي عن القاضي عياض قوله :

« وقد جاء في رواية شريك في هذا الحديث أوهاًم أنكرها عليه العلماء ، وقد نبه مسلم على ذلك بقوله : فقدم وأخر ، وزاد ونقص » ^(١) .

وقال الإمام ابن كثير :

« وقوله في حديث شريك عن أنس .. ثم استيقظت فإذا أنا في الحجر ..

(١) صحيح مسلم شرح النووي ، ج ٢ ، ص ٢١٠ .

معدود في غلطات شريك أو محمول على أن الانتقال من حال إلى حال يسمى بقطة^(١) .

ويقول أيضاً : « وأما قول شريك عن أنس في حديث الإسراء .. ثم دنا الحبار رب العزة فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى .. فقد يكون من فهم الراوى فأقحمه في الحديث .. والله أعلم »^(٢) .

أما موقف السيدة عائشة رضي الله عنها فقد رواه مسلم بسنده عن الشعبي عن مسروق^(٣) قال :

« كنت متكأً عند عائشة فقالت : يا أبا عائشة ثلاث من تكلم بواحدة منهن فقد أعظم على الله الفرية ، قلت : ما هن ؟ قالت : من زعم أن محمداً ﷺ رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية .. قال : وكنت متكأً فجلست فقلت : يا أم المؤمنين أنظريني ولا تعجلني ، ألم يقل الله عز وجل ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْقِ الْمِينِ ﴾^(٤) ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى ﴾^(٥) ؟

فقالت : أنا أول هذه الأمة سأل عن ذلك رسول الله ﷺ فقال : إنما هو جبريل ، لم أره على صورته التي خلق عليها غير هاتين المرتين ، رأيته منهبطاً من السماء ، ساداً عظم خلقه ما بين السماء إلى الأرض .

فقالت : أو لم تسمع أن الله يقول : ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾^(٦) ١٩

أولم تسمع أن الله يقول : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَخِيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ ﴾^(٧) .

(١) ، (٢) السيرة النبوية - تحقيق د. مصطفى عبد الواحد ، ح ٢ ، ص ١٠٠ ، ١٠٤ .
(٣) سمي مسروقاً لأنه سرقه إنسان في صغره ثم وجد ، وهو مسروق بن الأحمد بن مالك بن أمية همداني كوفي ، وكان لمسروق بنت تسمى عائشة .

(٤) سورة التكوين الآية : ٢٣ .

(٥) سورة الأنعام الآية : ١٠٣ .

(٦) سورة الشورى الآية : ٥١ .

قالت : ومن زعم أن رسول الله ﷺ كتم شيئاً من كتاب الله فقد أعظم على الله الفرية ، والله يقول : ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ ... ﴾ (١) .

قالت : ومن زعم أنه يخبر بما يكون في غد فقد أعظم على الله الفرية ، والله يقول : ﴿ قُلْ لَا يَغْلِبُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبُ إِلَّا اللَّهُ ... ﴾ (٢) .
وفي رواية :

قالت : ولو كان محمد ﷺ كاتباً شيئاً مما أنزل عليه لكتب هذه الآية .. ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ... ﴾ (٣) .
وفي رواية :

سألت عائشة : هل رأى محمد ﷺ ربه ؟
فقالت : سبحان الله ، لقد قف (٤) شعري لما قلت !!
وإذا كان هذا موقف السيدة عائشة ، فما تفسير قوله تعالى : ﴿ ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى ﴾ ؟

وهنا نسوق وجوها ذكرها الإمام الرازي هي :
أحدها : إن جبريل دنا من النبي ﷺ ، أي بعد ما مدَّ جناحه وهو بالأفق ، عاد إلى الصورة التي يعتاد النزول عليها ، وقرب من النبي ﷺ .

وعلى هذا ففي « تدلى » ثلاثة وجوه :

- ١ - فيه تقديم وتأخير ، تقديره ثم تدلى من الأفق الأعلى فدنا من النبي ﷺ .
- ٢ - الدنو والتدلى بمعنى واحد ، كأنه قال : دنا فقرب .

(١) سورة المائدة الآية ٦٧ . (٢) سورة النمل الآية : ٦٥ .
(٣) سورة الأحزاب الآية : ٣٧ ، والذي أخفاه الرسول وأنداه الله هو قوله تعالى ﴿ فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها لكيلا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً ، .
(٤) قام شعري من الفرع وهول المقالة .

٣ - دنا أى قصد القرب من محمد ﷺ ، وتحرك عن المكان الذى كان فيه فتدلى فنزل إلى النبی ﷺ .

الثانى : أن محمداً ﷺ ﴿ دنا ﴾ من الخلق والأمة ، ولأن لهم ، وصار كواحد منهم ﴿ فتدلى ﴾ أى فتدلى إليهم بالقول اللين والدعاء الرفيق فقال ﴿ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ ﴾ .

وعلى هذا ففى الكلام كمالان :
كأنه تعالى قال : إلا وحى يوحى جبريل على محمد ، فاستوى محمد وكمل ، فدنا من الخلق بعد علوه ، وتدلى إليهم وبلغ الرسالة .

الثالث : وهو ضعيف سخيف ، وهو أن المراد منه هو ربه تعالى ، وهو مذهب القائلين بالجهة والمكان .

اللهم إلا أن يريد القرب بالمنزلة ، وعلى هذا يكون منه ما فى قوله صلى الله عليه وسلم حكاية عن ربه تعالى : « من تقرب إلى شيراً تقرب إليه ذراعاً ، ومن تقرب إلى ذراعاً تقرب إليه باعاً ، ومن مشى إلى أتيته هرولة » ، إشارة إلى المعنى المجازى .. » ^(١) .

وهناك استدلال طريف مؤيد لموقف السيدة عائشة ، مأخوذ من ختام آية الإسراء وآية النجم ..

ففى آية سورة الإسراء قال تعالى ﴿ لَثَرِيَّةٌ مِنْ آيَاتِنَا ﴾ .

وفى آية سورة النجم قال جل شأنه ﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى ﴾ فالملحوظ أن الآيتين أثبتتا رؤية الآيات فى رحلة الإسراء والمعراج ، ولم تشيرا إلى رؤية الله تعالى ، فلو وقعت رؤية الله سبحانه لكانت أولى بالتسجيل والتنبيه والإشارة .. بل يذهب بعض العلماء إلى أهمية تفسير آيات سورة النجم برؤية جبريل الأمين فيقول :

ونحن إلى تقرير رؤيته لجبريل أحوج منا إلى تقرير رؤيته لربه تعالى ، وإن كانت

(١) التفسير الكبير ص ٢٨٦ ج ٢٨ .

رؤية الرب تعالى أعظم وأعلى ، فإن النبوة لا يتوقف ثبوتها عليها (أى رؤية الله)
عليهما ألبتة ^(١) .

وجاءت أحاديث مؤيدة لموقف السيدة عائشة ، منها ما رواه مسلم فى صحيحه
بسنده عن أبى ذر قال :

سألت رسول الله ﷺ : هل رأيت ربك ؟ قال : نورٌ أنى أراه ؟ .

وفى رواية عن عبد الله بن شقيق قال : قلت لأبى ذر : لو رأيت رسول الله
ﷺ لسألته ، فقال : عن أى شىء كنت تسأله ؟

قال كنت أسأله : هل رأيت ربك ؟

قال أبو ذر : قد سألت فقال : رأيت نوراً ..

وفى شرح الإمام النووى نقل عن الإمام المازرى قوله :
الضمير فى « أراه » عائد على الله سبحانه وتعالى ، ومعناه أن النور منعنى من
الرؤية ، كما حرت العادة بإغشاء الأنوار الأبصار ومنعها من إدراك ما حالت بين
الرائى وبينه .

وقوله ﷺ : « رأيت نوراً » معناه رأيت النور فحسب ولم أر غيره .

وقد فسر النور بالحجاب فى حديث آخر « حجاب النور » فيكون الرسول ﷺ
رأى الحجاب الذى هو النور ، وقد منعه ذلك من رؤية الرب عزوجل .. ^(٢) .

* * *

(١) شرح العقيدة الطحاوية للشيخ ابن أبى العز الدمشقى ص ٢١٤ ط المكتب الإسلامى
سنة ١٣٩٩ هـ .

(٢) راجع صحيح مسلم بشرح النووى ص ١٢ ج ٣ .

مذهب ابن عباس

جاءت روايات عن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبی ﷺ رأى ربه ،
واختلفت هذه الروايات فى آلة الرؤية :

ف قيل إنه رآه بعينه ، وقيل إنه رآه بقلبه وفؤاده .

وقال ابن عباس : إن الله تعالى اختص موسى بالكلام ، وإبراهيم بالخلقة ،
ومحمداً بالرؤية .

وكان الحسن يحلف لقد رأى محمد ﷺ ربه .

وحكى عن أحمد بن حنبل أنه قال : وأنا أقول بحديث ابن عباس بعينه ، رآه ،
رآه ، حتى انقطع نفسه يعنى نفس أحمد .. وفى رواية أخرى قال أحمد : رآه بقلبه ،
وجبن عن القول برؤيته فى الدنيا بالأبصار ..

وحاول بعض العلماء ترجيح رأى ابن عباس بما يلى :

- ١ - ابن عباس حبر هذه الأمة وترجمان القرآن .
- ٢ - إن هذا العلم لا يدرك بالعقل ولا بالرأى ولا بعلم إلا عن طريق النبوة .
- ٣ - ابن عباس أثبت الرؤية ، وعائشة نفتها ، والمثبت مقدم على النافى .
- ٤ - عائشة لم تنف الرؤية بحديث سمعته من رسول الله ﷺ وإنما اعتمدت
الاستنباط من الآيات ، وهو محل نظر وللعلماء عليه أجوبة ..

وكان معمر بن راشد يقول : ما عائشة عندنا بأعلم من ابن عباس .. !! بل إن
ابن خزيمة ادعى أن السيدة عائشة قالت : « فقد أعظم على الله الفرية » فى وقت
غضب ، ولو أنها عبرت بلفظة أحسن منها لكان أجمل بها ^(١) .

(١) راجع الشفا تعريف حقوق المصطفى للقاصى عياض ص ١٩٥ ، ج ١ - ط دار الكتب
العلمية ، وصحيح مسلم بشرح النووي ص ٥ ج ٣ ، والتوحيد لابن خزيمة ص ١٩٧ تحقيق د . محمد
خليل هراس - ط مكتبة الكليات الأزهرية .

وهذه الترجيحات ليست راجحة ، ولا ترقى إلى مستوى القبول لموقف السيدة عائشة لما يلي :

١ - عائشة أم المؤمنين ، لازمت الرسول ﷺ في حضرته وسفره ، في صحته ومرضه ، وكافة أحواله كلها ، وعرفت الكثير من خفايا حياة المصطفى ، ولها قدم صدق في فقه الإسلام ..

وكان ابن عباس رضى الله عنهما غلاماً حدثاً على عهد رسول الله ﷺ ، ولم يبلغ مبلغ الرجال ..

٢ - إن مذهب ابن عباس لا يعتمد على نص صريح مرفوع إلى الرسول ﷺ ، ولعله فهم من ابن عباس واجتهاد ، فهو لم يُسند إلى النبي ﷺ .. ودعوى أن مذهب ابن عباس في الرؤية لا يعلم إلا عن طريق النبوة دعوى مرفوضة فإن الاجتهاد في فهم النصوص أمر وارد وواقع لدى الصحابة ..

وكيف يقال إن موقف السيدة عائشة رضى الله عنها اجتهاد ولا يقال مثله في مذهب ابن عباس ؟

٣ - إن الزعم بأن السيدة عائشة رضى الله عنها لم تؤيد رأيها بحديث سمعته من رسول الله ﷺ زعم باطل .. فقد قالت : أنا أول هذه الأمة سأل عن ذلك رسول الله ﷺ فقال : إنما هو جبريل لم أره على صورته التي خلق عليها غير هاتين المرتين ، رأيته منهبطاً من السماء ساداً عظم خلقه ما بين السماء إلى الأرض .

ثم إن الأحاديث الصحيحة الواردة تؤيدها مثل روايات أبي ذر حين سأل رسول الله ﷺ : هل رأيت ربك ؟ قال : « نور أنى أراه » .

٤ - إن مسألة أن المثبت مقدم على النافي لا محل لها هنا فإن المثبت للرؤية لادليل معه ولا نص يؤيده ، أما النافي فمعه النص المرفوع الصريح ، ومعه الراى والاجتهاد فيكون النافي مقدماً ..

* * *

٢ - رؤية الله تعالى مناماً

اتفق المثبتون للرؤية على أنها لم تقع في الدنيا لأحد قبل سيدنا محمد ﷺ ثم اختلفوا في حصولها للرسول ليلة الإسراء والمعراج ، ولما جاء الكلام على رؤية الله تعالى مناماً حكوا الاتفاق على جوازها ووقوعها حتى ولو كانت على صفة لاتليق ، وأنخضعوها للتأويل والتعبير ..

جاء ذلك خلال شرحهم لحديث رسول الله ﷺ .. « من رآني في المنام فقد رآني فإن الشيطان لا يتمثل بي » .

ونقل الإمام النووي مايلي :

قال القاضي : واتفق العلماء على جواز رؤية الله تعالى في المنام وصحتها ، وإن رآه الإنسان على صفة لاتليق بحاله من صفات الأجسام ، لأن ذلك المرئي غير ذات الله تعالى ، إذ لايجوز عليه سبحانه وتعالى التجسم ولا اختلاف الأحوال ، بخلاف رؤية النبي ﷺ ..

قال ابن الباقلاني : رؤية الله تعالى في المنام خواطر في القلب ، وهي دلالات للرائي على أمور مما كان أو يكون كسائر المرئيات .. والله أعلم ^(١) .

ونبه الإمام ابن حجر العسقلاني إلى ذلك فقال :

جوز أهل التعبير رؤية الباري عز وجل في المنام مطلقاً ، ولم يجزوا فيها الخلاف في رؤيا النبي ﷺ ، وأجاب بعضهم عن ذلك بأمور قابلة للتأويل في جميع وجوهها ، فتارة يعبر بالسلطان ، وتارة بالوالد ، وتارة بالرئيس في أى فن كان ..

فلما كان الوقوف على حقيقة ذاته ممتنعاً ، وجميع من يعبر به يجوز عليهم الصدق والكذب ، كانت رؤياه تحتاج إلى تعبير دائماً ، بخلاف النبي ﷺ ، فإذا رؤى على صفته المتفق عليها ، وهو لا يجوز عليه الكذب ، كانت في هذه الحالة حقاً محضاً لا يحتاج إلى تعبير ..

وقال الغزالي : ليس معنى قوله « رآني » أنه رأى جسمي وبدني ، وإنما المراد أنه

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ، ج ١٥ ، ص ٢٥ .

رأى مثلاً ، صار ذلك المثال آلة يتأدى بها المعنى الذى فى نفسى إليه ، وكذلك قوله « فسيرانى فى اليقظة » ، ليس المراد أنه يرى جسمى وبدنى ، والآلة تارة تكون حقيقية ، وتارة تكون خيالية ، والنفس غير المثال المتخيل ، فما رآه من الشكل ليس هو روح المصطفى ولا شخصه ، بل هو مثال له على التحقيق .

ومثل ذلك من يرى الله سبحانه وتعالى فى المنام ، فإن ذاته منزهة عن الشكل والصورة ، ولكن تنتهى تعريفاته إلى العبد بواسطة مثال محسوس من نور أو غيره ، ويكون ذلك المثال حقاً فى كونه واسطة التعريف ، فيقول الرائي رأيت الله تعالى فى المنام ، لا يعنى أنى رأيت ذات الله تعالى كما يقول فى حق غيره .

وقال أبو القاسم القشيري ما حاصله :

إن رؤياه على غير صفته لا تستلزم أن لا يكون هو ، فإنه لو رأى الله على وصف يتعالى عنه ، وهو يعتقد أنه منزّه عن ذلك - لا يقدح فى رؤيته بل يكون لتلك الرؤيا ضرب من التأويل - كما قال الواسطي : من رأى ربه على صورة شيخ كان إشارة إلى وقار الرائي ، وغير ذلك ^(٢) .

ولعل هذه التشقيقات والافتراضات تتلمس من حديث تعددت طرقه ، منها :

« احتبس عنا رسول الله ﷺ ذات غداة من صلاة الصبح حتى كدنا نترأى عين الشمس ، فخرج سريعاً ، فثوب بالصلاة فصلّى رسول الله ﷺ وتجاوز فى صلاته ، فلما سلم دعا بصوته .

فقال لنا : على مصافكم كما أنتم ، ثم انفتل إلينا فقال : أما إني سأحدثكم ما حبسني عنكم الغداة ..

إني قمت من الليل فتوضأت فصليت ماقدّر لي ، فنعست فى صلاتي فاستثقلت ، فإذا بربي تبارك وتعالى فى أحسن صورة ، فقال : يا محمد ، قلت : رب لييك ، قال : فيم يختصم الملائة الأعلى ؟

قلت لا أدري رب ، قالها ثلاثاً .

(١) فتح الباري بشرح البخارى ج ١٦ ص ٤٣ ط الحلبى سنة ١٣٨٧ هـ - ١٩٥٩ م .

قال : فرأيته وضع كفه بين كتفى ، فوجدت برد أنامله بين ثديي ، فتجلى لى كل شىء وعرفت ..

فقال : يا محمد ، قلت : لبيك رب .

قال : فيم يختصم الملائ الأعلى ؟

قلت : فى الكفارات . قال : ما هن ؟

قلت : مشى الأقدام إلى الجماعات ، والجلوس فى المساجد بعد الصلاة ، وإسباغ الوضوء فى المكروهات .

قال : ثم فيم ؟ قلت : إطعام الطعام ، ولين الكلام ، والصلاة بالليل والناس نيام .

قال : سل ، قلت : اللهم إنى أسألك فعل الخيرات ، وترك المنكرات ، وحب المساكين ، وأن تغفر لى وترحمنى ، وإذا أردت فتنة فى قوم فتوفنى غير مفتون ، وأسألك حبك وحب من يحبك وحب عمل يقربنى إلى حبك .

قال رسول الله ﷺ : إنها حق فادرسوها ثم تعلموها .

ونحن أمام هذا الحديث نضع مجموعة ملاحظات :

أولاً : علماء السنة مجمعون على أن رؤية الله تعالى يقظة لم تقع لأحد فى الدنيا قبل سيدنا محمد ﷺ ، بل لم تقع لأحد مطلقاً كما هو رأى السيدة عائشة ، فكيف نتصور وقوعها مناماً ؟!

فإذا إضفنا ما فى هذه الروايات من رؤية الرب تبارك وتقدس على أحسن صورة أو على صورة شاب ، ووضع الكف وبرد الأنامل^(١) كان التوقف فى قبولها راجحاً .

ثانياً : إن الحديث يبدو أنه مقلوب المعنى ، فهو يثبت أن الله تعالى هو السائل وأن الرسول هو المجيب ، والشأن الصحيح أن يكون الرسول سائلاً ربه عما يجرى فى الملائ الأعلى ..

(١) راجع الروايات فى . « مجمع الروائد ومنبع الفوائد » للإمام الهيثمى ج ١ ، ص ٢٣٧ ، وج ٧ ، ص ١٧٦ ، طبعة دار الكتاب العربى .

ومما يؤكد الاضطراب في هذا الحديث أن الدعاء المذكور في آخره ينسب مرة إلى الله تعالى تعليماً لرسوله ، وينسب أخرى إلى الرسول تضرعاً إلى مولاه .. ففي رواية للترمذى عن ابن عباس : « وقال : يا محمد ، إذا صليت فقل : اللهم إني أسألك فعل الخيرات .. إلخ » .

وفي رواية لأحمد عن بعض أصحاب النبي ﷺ : « وقال : يا محمد ، إذا صليت فقل اللهم إني أسألك الطيبات .. إلخ » .

وفي رواية للترمذى عن معاذ بن جبل : « قال : سل ، قلت : اللهم إني أسألك فعل الخيرات .. إلخ » .

ويضاف إلى ذلك اضطراب آخر ، وهو هل وقعت هذه الرؤية مناماً أم يقظة ؟ وهل كانت في صلاة أم لا ١٩ .

ففي رواية الترمذى عن ابن عباس قال : « أحسبه قال في النوم » .

وفي رواية الترمذى عن معاذ قال : « فنعست في صلاتي فاستثقلت فإذا أنا بربي تبارك وتعالى في أحسن صورة » .

وفي رواية لأحمد : « فنعست في صلاتي حتى استيقظت فإذا أنا بربي عز وجل في أحسن صورة .. » .

وذهب بعض الشراح إلى أن رواية (حتى استيقظت) تصحيف ، وأن المحفوظ هو (حتى استثقلت)^(١) .

ثالثاً : بعض المفسرين ساق هذا الحديث تفسيراً للآية الكريمة : ﴿ مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ .

والحديث والآية بينهما بون شاسع ، فالآية تثبت الوحي للنبي ﷺ بإعلامه بالغيب الذي أوحاه الله تعالى إليه في شأن آدم واختصام الملائكة حول خلقه وأمر الله لهم بالسجود ، ولتقرأ ما قبلها وما بعدها : ﴿ قُلْ هُوَ تَبَّأٌ عَظِيمٌ ۝ أَنْتُمْ عَنْهُ

(١) راجع : (تحفة الأحودى شرح جامع الترمذى) - تحقيق الدكتور عبد الوهاب عبد اللطيف ، ج ٩ ، ص ١٠٢ .

مُغْرَضُونَ * مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ * إِنْ يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ * إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿١﴾ .

والحديث يتعلق بالوضوء والصلاة والحسنات .. فما العلاقة بينهما ؟!

وقد تفتن الإمام ابن كثير لذلك فقال : (وليس هذا الاختصاص هو الاختصاص المذكور في القرآن ، فإن هذا (أى المذكور في الحديث) قد فسّر ، وأما الاختصاص الذى فى القرآن فقد فسّر بعد هذا ، وهو قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ ... ﴾ (١) .

٣ - أنواع الرؤية :

ذكر الإمام ابن خزيمة أنواعاً للرؤية واستدل عليها ، وجمعها تحت عناوين ، هى :

١ - بيان أن جميع أمة النبى ﷺ ، برهم وفاجرهم ، مؤمنهم ومناقهم ، وبعض أهل الكتاب يرون الله عز وجل يوم القيامة .

يراه بعضهم رؤية امتحان لا رؤية سرور وفرح وتلذذ بالنظر فى وجه ربهم عز وجل ، ذى الجلال والإكرام .

وهذه الرؤية قبل أن يوضع الجسر بين ظهري جهنم ، ويخص الله عز وجل أهل ولايته من المؤمنين بالنظر إلى وجهه نظر فرح وسرور وتلذذ .

واستشهد ابن خزيمة على ذلك بحديث عطاء بن يسار عن أبى سعيد الخدرى قال : سألت رسول الله ﷺ قلنا : يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ فقال : هل تضارون فى القمر ليلة البدر ، ليس دونه سحاب ؟ قلنا : لا .

قال : فإنكم ترون ربكم عز وجل كذلك يوم القيامة .

قال : يقال من كان يعبد شيئاً فليتبعه .

فيتبع الذى كانوا يعبدون الشمس - الشمس ، فيتساقطون فى النار ، ويتبع الذين كانوا يعبدون القمر - القمر ، فيتساقطون فى النار ، ويتبع الذين كانوا يعبدون

(١) سورة ص ، الآيات : ٦٧ - ٧٢ . (٢) تفسير القرآن العظيم ، ج ٤ ، ص ٤٣ .

الأوثان - الأوثان ، والأصنام - الأصنام ، وكل من كان يعبد من دون الله ،
فيتساقطون فى النار .. ويبقى المؤمنون ومنافقوهم بين أظهرهم وبقايا أهل الكتاب ،
يقللهم بيده ، فيقال لهم : ألا تتبعون ما كنتم تعبدون ؟

فيقولون : كنا نعبد الله ولم نر الله ، فيكشف^(١) عن ساق فلا يبقى أحد كان
يسجد لله إلا خر ساجداً ، ولا يبقى أحد كان يسجد رياء وسمعة إلا وقع على قفاه ،
ثم يوضع الصراط بين ظهري جهنم ... الحديث « رواه البخارى ومسلم .

٢ - بيان أن جميع المؤمنين يرون الله يوم القيامة مخليا به عز وجل ..
وساق حديث أبى رزين قال : « قلت : يا رسول الله أكلنا نرى الله مخليا به ؟
قال : نعم ، قال : وما آية ذلك فى خلق الله ؟ قال : أليس كلكم يرى القمر
ليلة البدر ، وإنما هو خلق من خلق الله ، والله أجل وأعظم » رواه أبو داود .
٣ - بيان رؤية الله التى يختص بها أولياءه يوم القيامة والتى ذكر الله فى قوله :
﴿ وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة ﴾ .

قال ابن خزيمة : ويفضل بهذه الفضيلة أولياءه من المؤمنين ، ويحجب جميع
أعدائه كما أعلم فى قوله : ﴿ كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ﴾ .
وهذا نظر أولياء الله إلى خالقهم جل ثناؤه بعد دخول أهل الجنة الجنة ، وأهل
النار النار ، فيزيد الله المؤمنين كرامة وإحساناً إلى إحسانه تفضلاً منه وحوذاً بإذنه
إياهم النظر إليه ويحجب عن ذلك جميع أعدائه «^(٢) .

ونخلص من ذلك إلى أن الرؤية يوم القيامة على ثلاثة أنواع هى :

١ - رؤية جميع أهل المحشر لربهم رؤية امتحان وهول حتى يتمايز عبدة الطاغوت .
٢ - رؤية جميع المؤمنين فى خلوة مع ربهم حتى يتمايز المنافقون ويضرب
بينهم وبين الصادقين بسور .

٣ - رؤية أولياء الله فى الجنة وهى رؤية السرور والنعيم والكرامة .

(١) يضم الياء وفتحها ، والتعير استخدمه العرب للشدة والهول ، وللعلماء فيه أفهام سبق شرحها فى
مبحث الصفات .

(٢) التوحيد لاس حزيمة ص ١٦٧ - ١٩٠ .

الفصل الرابع

القضاء والقدر

- * في البيان القرآنى .
- * الإيمان بالقضاء والقدر .
- * النشأة التاريخية :
 - موقف المشركين .
 - موقف المنافقين .
 - موقف الصحابة .
- * نظرة مذهبية :
 - محل النزاع .
 - الجبرية .
 - القدرية .
 - المعتزلة .
 - الأشاعرة .
- * جدل مذهبى .
- * بعيداً عن المذاهب .
 - الجبر مرفوض .
 - الأمر مقدور .
 - مسير ومخير .
 - الكونى والشرعى .
 - الخير والشر .
 - التفسير القرآنى .

القضاء في البيان القرآني

جاءت مادة القضاء في القرآن المجيد على معان شتى نسوق منها ما يلي :

١ - قال الله تعالى : ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ... ﴾ ^(١) .

والمعنى إذا أدبتم مناسك الحج وفرغتم منها فلا تنسوا ذكر الله على كل حال ، ولا تنقطع ألسنتكم وقلوبكم عن الشاء على الله تعالى بما هو أهله .

وكان الناس في الجاهلية يتخذون مواقف في الحج للفخر بالآباء وذكر المكرمات الخاصة بهم فنهوا عن ذلك ، ودعاهم القرآن إلى الاتصال الدائم بالله عز وجل وذكر محامده والتسبيح بجلاله وكماله .

٢ - قال الله جل شأنه : ﴿ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ ^(٢) .

تتعلق هذه الآية الكريمة بقصة مريم عليها السلام ، حين فوجئت بالملك يبشرها بمولود ولم تكن متزوجة وليست بغيا ، ولما تعجبت أخبرها الملك أن الله تعالى إذا أراد شيئا وقع بقدرته بلا موانع ولا معوقات .

٣ - قال الله سبحانه : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ ﴾ ^(٣) .

فالله تعالى خلق الإنسان الأول من طين مباشرة وخلق ذريته من سلالة من ماء

(١) سورة البقرة الآية : ٢٠٠ .

(٢) سورة آل عمران الآية : ٤٧ .

(٣) سورة الأنعام الآية : ٢ .

مهين ، يستخلص من الأغذية التي تنتهى إلى الطين ، وقد حدد الله تعالى لهذا الإنسان أجلاً لا يتقدمه ولا يتأخر عنه ، والأجل الأول فى الآية هو عمر الإنسان ، والأجل الثانى هو عمر الدنيا .

٤ - قال الله جل شأنه : ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّضْبِحِينَ ﴾ ^(١) .

وتتعلق الآية بقصة سيدنا لوط عليه السلام حين أعلمه الله علماً جازماً بالحكم القاطع الذى يلحق قومه وهو استئصال شأفتهم فى وقت الصباح .

٥ - قال الله سبحانه : ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوقًا كَبِيرًا ﴾ ^(٢) .

تؤكد الآية الكريمة أن الله تعالى سجل فى التوراة وأعلم بنى إسرائيل على لسان نبيهم فى الوحى المنزل إليهم أنهم سيفسدون فى الأرض مرتين يكون الإفساد فيهما كبيراً ومدمراً ، ثم تكون عاقبة أمرهم خسراً .

٦ - قال الله تعالى : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ... ﴾ ^(٣) .

والمعنى أن الله جل شأنه أمر أمراً مقطوعاً به ، ووصى توصية جازمة ، وحكم حكماً شرعياً أنه لا يعبد أحد سواه ، وأن يعامل الأبوان بالإحسان والبر والمعروف .

٧ - قال جل شأنه : ﴿ ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلِيُوفُوا نَذْرَهُمْ وَلِيُطَوُّوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾ ^(٤) .

والمعنى أن يزيل الحجاج ما من شأنه أن يزال من حلق الشعر وقص الأظفار ونحو ذلك مما يتعلق بالبدن أو الثوب من جراء أداء المناسك والالتزام بمحظورات الإحرام ،

(١) سورة الحجر الآية : ٦٦ .

(٢) سورة الإسراء الآية ٤٠ .

(٣) سورة الإسراء الآية ٢٣٠ .

(٤) سورة الحج الآية : ٢٩ .

وبعد أداء المناسك يتحلل الحاج ويعود سيرته الأولى فى المأكل والملابس وغيرها .

٨ - قال الله تعالى : ﴿ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتَ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾^(١) .

تتعلق الآية الكريمة بقصة موسى عليه السلام حين ذهب إلى مدين والتقى هناك بالشيخ الكبير الذى عرض عليه أن يزوجه إحدى ابنتيه على أن يأجره ثمانى سنوات أو عشرأ ، فقبل موسى عليه السلام العرض والأجر ، دون أن يحدد مدة من هاتين المدينتين ، وجعل لنفسه فسحة فى أن يختار إحداهما يؤديها دون لوم عليه .

٩ - قال الله سبحانه : ﴿ مَنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴾^(٢) .

تؤكد الآية ولاء المؤمنين الصادقين لله ورسوله ، وتضحياتهم المتواصلة لنصرة هذا الدين الخالد ، فمنهم من مات شهيداً ، ومنهم من ينتظر الشهادة فى ثبات وإقدام .

١٠ - قال الله سبحانه : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُمْمِنَةٍ إِذَا قَضَىٰ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَقْصِرِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ﴾^(٣) .

فالمؤمنون والمؤمنات يلتزمون التزاماً كاملاً وأميناً بحكم الله ورسوله لا يسعهم مخالفته ولا تتعلمل قلوبهم فى حكمته ، فمتى حكم الله ورسوله حكماً فالطاعة واجبة والتسليم فريضة .

١١ - قال الله تعالى : ﴿ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأُخِىَ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرُهَا ... ﴾^(٤)

(١) سورة القصص الآية . ٢٨ .

(٢) سورة الأحزاب الآية : ٢٣ .

(٣) سورة الأحزاب الآية : ٣٦ .

(٤) سورة فصلت الآية ١٢ .

والمعنى أن الله جل شأنه فرغ من خلق السموات على شموخها واتساعها ودقة
إحكامها في يومين اثنين فقط ، وأودع في كل سماء ما يخصها من نواميس .

١٢ - قال الله تعالى : ﴿ وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بِمَا بَيْنَهُمْ
وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى لَفُضِّى بَيْنَهُمْ ﴾^(١) .

لقد اختلف الناس وكفروا وبأيديهم معالم الهدى من الوحي المنزل ، ولولا أن
الله جلت حكمته سبقت كلمته بإنتظار العباد وإمهالهم وعدم مؤاخذتهم فور وقوع
المعصية لحكم بينهم فى الدنيا ولعجل لهم العقوبة ولأنفذ فيهم حكمه العادل .
وهكذا فالقضاء فى البيان القرآنى يدور حول الحكم بالشيء ، وأدائه ، والفراغ
منه ، وتقديره ، والإعلام به .

* * *

(١) سورة الشورى الآية . ١٤ .

القدر في البيان القرآني

وردت مادة القدر في القرآن المجيد على عدة معان نسوق منها ما يلي :

١ - قال الله تعالى : ﴿ لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمْ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْمَوْسِعِ قَدَرَهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ ﴾ ^(١) .

فتبيح هذه الآية الكريمة الطلاق بعد العقد على المرأة وقبل الدخول بها ، ولما كان الطلاق يترتب عليه آلام نفسية للمرأة مهما كانت الأسباب ، فقد شرع الله للمرأة متعة مالية يقدرها القاضي بحسب حال الزوج ، على الغنى بقدر غناه ، وعلى الفقير بقدر فقره ، وهذه المتعة تأخذها المرأة زيادة على ما تستحقه من نصف مهر مثلها ^(٢) .

٢ - قال الله جل شأنه : ﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا ﴾ ^(٣) فالمطر ينزل من السحاب فيأخذ كل واد بحسبه كبيراً كان أو صغيراً .

٣ - قال الله سبحانه : ﴿ اللَّهُ يَبْثُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ ﴾ ^(٤) .

فالرزق يساق للإنسان تبعاً للحكمة الإلهية ، فقد يوسع الله العطاء للإنسان وقد يضيق على آخر ، ولا يظن أحد أن كثرة العطاء أو قلته مناط لتكريم الإنسان أو إهانته ، والكافر هو الذي يفرح فرح الكبر والأطر بما منحه الله من أموال ، وينسى أن هذا استدراج وإمهال ، ثم إن حقيقة الحياة الدنيا بالنسبة للآخرة لا تمثل إلا هامشاً وشيئاً غير معتد به .

(١) سورة البقرة الآية ٢٣٦ .

(٢) هذا رأى حماد بن أبي سليمان - كما حكى القرطبي في تفسيره - لكن جمهور العلماء على أن المطلقة التي لم يفرض لها صداق ولم يدخل بها لا شيء لها غير المتعة .
(٣) سورة الرعد الآية : ٧ (٤) سورة الرعد الآية : ٢٦ .

٤ - قال الله تعالى : ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴾ (١) .

فكل شيء ملك لله ، سهل عليه ، يسير لديه ، يفعله سبحانه كما يشاء ولما له في ذلك من الحكمة وعلى وضع وكيفية وكمية خاصة يريد بها الله جل جلاله .

٥ - قال سبحانه : ﴿ وَذَا الثُّونِ إِذْ ذُهِبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ (٢) .

فيونس عليه السلام ترك قومه بعد أن يمس من إيمانهم ، وهاجر غضبان من أجل الله ولكنه لم يكن تلقى الإذن الإلهي بالهجرة ، وظن أن الله لن يضيق عليه الأمر ولن يؤاخذه بما فعل ، وكانت النتيجة أن ألقى في اليم والتقمه الحوت ، وأدرك سبب هذه العقوبة ، فنادى في ظلمات الماء وبطن الحوت وجوف الأرض : ﴿ .. لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾

٦ - قال الله جل جلاله : ﴿ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ (٣) .

والمعنى ما عرفوا الله حق معرفته ، وما عظموه حق تعظيمه حين عبدوا معه غيره .

٧ - قال الله جل شأنه : ﴿ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴾ (٤) .

والمعنى أن نوحاً عليه السلام لما دعا ربه أن ينصره على قومه المكذبين فتح الله السماء بماء منهمر كثير ، وتفجرت الأرض عيوناً تفيض بالماء ، والتقى الماءان على أمر أراد الله بمقدار مخصوص ووجه مخصوص لغاية مخصوصة .

٨ - قال الله تعالى : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ (٥) .

(١) سورة الحجر الآية : ٢١ .

(٢) سورة الأنبياء الآية ٨٧ .

(٣) سورة الحج الآية ٧٤ .

(٤) سورة القمر الآية : ١٢ .

(٥) سورة القمر الآية ٤٩ .

والمعنى أن الله خلق الأشياء كلها بتقدير كماً وكيفاً ، وجعل لها من الطبائع والنواميس والهيئات ما يناسبها .

٩ - قال الله سبحانه : ﴿ نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمُسْبِقِينَ ﴾^(١) .

فإن الله قد حدد لكل إنسان أجله الذى تنتهى عنده حياته ، وهو سبحانه القادر على تحقيق مراده ليس عاجزاً عن تنفيذه .

١٠ - قال الله تعالى : ﴿ مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ ﴾^(٢) .

والمعنى أن الله خلق الإنسان من نطفة هى ماء الرجل ، وطوره فى مراحل الخلقة طوراً بعد طور ، وبكيفيات معينة وبأحوال خاصة حددها الله عز وجل .

* * *

وهكذا فالقدر فى تصريفاته اللغوية القرآنية يدور حول بيان كمية الشيء ومقداره .

* * *

(١) سورة الواقعة الآية : ٦٠ .

(٢) سورة عبس الآية ١٩٠ .

الإيمان بالقضاء والقدر

الإيمان فى مفهومه الذى يجب اعتقاده والتصديق به يتضمن أركاناً تبدأ بتوحيد الله تعالى ، ويشمل التصديق بالملائكة والنبين والكتب المنزلة واليوم الآخر ، ثم التصديق بالقضاء والقدر .

والنص على هذا الركن حدث به المصطفى ﷺ وأكدته فى الرواية المشهورة حين جاء جبريل عليه السلام فى صورة أعرابى وأخذ يسأل النبى ﷺ أمام الصحابة عن حقائق الدين وعلامات الساعة .

وقد خرج الحديث الإمام البخارى ، والإمام مسلم فى صحيحيهما ، وجاءت مقدمة لهذا الحديث ساقها الإمام مسلم بسنده عن يحيى بن يعمر قال :

كان أول من قال فى القدر بالبصرة معبد الجهنى ، فانطلقت أنا وحميد بن عبد الرحمن الحميرى حاجين أو معتمرين ، فقلنا لو لقينا أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ فسألناه عما يقول هؤلاء فى القدر ، فوقع لنا عبد الله بن عمر بن الخطاب رضى الله عنهما داخل المسجد ، فاكتنفته أنا وصاحبى ، أحدنا عن يمينه والآخر عن شماله فظننت أن صاحبى سيكمل الكلام إلى ، فقلت : أبا عبد الرحمن إنه قد ظهر قبلنا ناس يقرأون القرآن ويتقفرون^(١) العلم ، وذكر من شأنهم وأنها يزعمون أن لا قدر وأن الأمر أنف^(٢) .

قال ابن عمر رضى الله عنهما : فإذا لقيت أولئك فأخبرهم أنى برىء منهم وأنهم برآء منى ، والذى يحلف به عبد الله بن عمر لو أن لأحدهم مثل أحد ذهباً فأنفقه ما قبل الله منه حتى يؤمن بالقدر .

ثم قال : حدثنى أبى عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : بينما نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر ، لا يرى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه منا أحد ، حتى جلس إلى النبى ﷺ

(١) تفقر العلم بتقديم العلم على القاف أو العكس معناه طلب العلم والبحث عن غامضه واستخراج خفيه .

(٢) أى مستأنف لم يسبق به علم من الله تعالى ، وإنما يعلمه بعد وقوعه .

فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ، ووضع كفيه على فخذيه وقال :

يا محمد أخبرني عن الإسلام ، فقال رسول الله ﷺ : « الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً .

قال : صدقت ، قال عمر : فعجبنا له يسأله ويصدقه .

قال : فأخبرني عن الإيمان : قال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره ، قال : صدقت ، قال : فأخبرني عن الإحسان ، قال : أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك ، قال : فأخبرني عن الساعة . قال : ما المسئول عنها بأعلم من السائل ، قال : فأخبرني عن أمارتها . قال : أن تلد الأمة ربتها ، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان ، قال عمر : ثم انطلق فلبث ملياً ، ثم قال لى : يا عمر أتدرى من السائل ؟ قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم » .

وقضية الإيمان بالقضاء والقدر ترتبط ارتباطاً جوهرياً بقضية توحيد الله تعالى ذاتاً وصفات وأفعالا ، وتتصل اتصالاً وثيقاً بعلم الله الشامل المحيط الذى لا يعزب عنه مثقال ذرة .

وفى بيان المراد بالقضاء والقدر شرعاً قال الإمام النووي :

« وأعلم أن مذهب أهل الحق إثبات القدر ، ومعناه أن الله تبارك وتعالى قدر الأشياء فى القدم ، وعلم أنها ستقع فى أوقات معلومة عنده سبحانه وتعالى ، وعلى صفات مخصوصة ، فهى تقع على حسب ما قدرها سبحانه وتعالى » ^(١) .

وقال الراغب الأصفهاني :

« والقضاء من الله تعالى أحص من القدر ، لأنه الفصل بين التقدير ، فالقدر هو التقدير ، والقضاء هو الفصل والقطع ، وقد ذكر بعض العلماء أن القدر بمنزلة المعد للكيل ، والقضاء بمنزلة الكيل . وهذا كما قال أبو عبيدة لعمر رضى الله عنهما لما أراد الفرار من الطاعون بالشام : أتفر من القضاء ؟ قال أفر من قضاء الله إلى قدر الله .

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ، ج ١ ، ص ١٥٤ .

تنبيهاً إلى أن القدر ما لم يكن قضاء فمرجو أن يدفعه الله ، فإذا قضى فلا مدفع له ، ويشهد لذلك قوله : ﴿ وكان أمراً مقضياً ﴾ وقوله : ﴿ كان على ربك حتماً مقضياً ﴾ وقوله : ﴿ وقضى الأمر ﴾ : أى فصل تنبيهاً أنه صار بحيث لا يمكن تلافيه ^(١) .

ولكن سلمنا للراغب رأيه فى العلاقة بين القضاء والقدر ، فإننا نتوقف فى الاستشهاد بمقالة أبى عبيدة ورد عمر عليه ، فالنص الوارد فى صحيح البخارى وصحيح مسلم بلفظ القدر هكذا :

فقال أبو عبيدة بن الجراح : أفراراً من قدر الله ؟

فقال عمر : لو غيرك قالها يا أبا عبيدة ، نعم نفر من قدر الله إلى قدر الله ، أ رأيت إن كانت لك إبل هبطت وادياً له عدوتان ^(٢) إحداهما خصيبة والأخرى جذبة ، أليس إن رعيت الخصيبة رعيتها بقدر الله ، وإن رعيت الجذبة رعيتها بقدر الله ^(٣) .

وذهب الإمام ابن حزم الأندلسى إلى أن معنى قضى وقدر - حكم ورتب ، ومعنى القضاء والقدر حكم الله تعالى فى شيء بحمده أو ذمه ، أو تكوينه ، أو ترتيبه على صفة كذا إلى وقت كذا ^(٤) .

ونخلص مما تقدم إلى أن القضاء والقدر مرتبطان بصفات إلهية هى : العلم والإرادة والقدرة ، فالله تعالى يعلم ، ثم يريد ، ثم يوجد .

والترتيب بين العلم وبين الإرادة ترتيب تعلى فقط ، لأن كليهما قديم أزلى ، وما كان قديماً أزلياً لا ترتيب فيه ، لكن كى نفهم تعلق العلم والإرادة بالمقدور المقضى فنحن لا نفهمه إلا مرتباً .

أما الترتيب بين العلم والإرادة من جهة ، وبين القدرة والإيجاد من جهة أخرى فهو ترتيب زمنى ، لأن الأشياء لا تقع قديمة ، ولا توجد دفعة واحدة ، فالخلق حادث متجدد ، وتعلق القدر بهذا الخلق إنما يكون على مدى الزمن الممتد إلى ما شاء الله .

(١) معجم مفردات ألفاظ القرآن للعلامة الراغب ، تحقيق يديم مرعشلى ، ص ٤٢٢ - طبعة دار الفكر .

(٢) العدو بضم العين وكسرهما : جانب الوادى .

(٣) فتح البارى لابن حجر ، ج ١٠ ، ص ١٧٩ ، وصحيح مسلم بشرح النووى ، ج ١٤ ، ص ٢١٠ .

(٤) الفصل فى الملل والأهواء والنحل - تحقيق د. محمد نصر ، د. عبد الرحمن عميرة ، ج ٣ ، ص ٧٨ .

النشأة التاريخية

موقف المشركين :

من الأمور الشائكة التي تكلم الناس فيها قديماً وحديثاً مسألة القضاء والقدر ، وحاول المشركون على عهد رسول الله ﷺ الاحتجاج بالقدر ونزل قوله تعالى : ﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾ ^(١) .

فهذه شبهة تشبث بها المشركون في شركهم وتحريم ما حرموا من الطيبات بأن الله مطلع على ما هم فيه ، وهو قادر على تغييره بأن يلهمهم الإيمان ، ويحول بينهم وبين الكفر ، ولما لم يغيره فهموا أن الله تعالى شاء ذلك منهم وأرادهم ورضى عنه . ورد الله تعالى عليهم بأن هذه الشبهة قد ضل بها أقوام من قبل ، وهي حجة داحضة باطلة ، لأنها لو كانت صحيحة لما أذاقهم الله بأسه ودمر عليهم ، فهم في زعمهم هذا واهمون وعلى اعتقاد فاسد .

وتكرر هذا المعنى في قوله جل شأنه : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ ^(٢) .

وجاء في تفسير هذه الآية :

يخبر تعالى عن اغترار المشركين بما هم فيه من الإشراك واعتذارهم محتجين بالقدر بقولهم ﴿ .. لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ ... ﴾ أى من البهائم والسواائب والوصائل وغير ذلك مما كانوا ابتدعوه واخترعوه من تلقاء أنفسهم ما لم ينزل به سلطانا .

(٢) سورة النحل الآية ٣٥٠ .

(١) سورة الأنعام الآية ١٤٨ .

ومضمون كلامهم أنه لو كان تعالى كارهاً لما فعلناه لأنكره علينا بالعقوبة ولما
مكننا منه .

قال الله تعالى راداً عليهم شبهتهم : ﴿ .. فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ
السُّبِينِ ﴾ أى ليس الأمر كما تزعمون أنه لم ينكره عليكم بل قد أنكره عليكم أشد
الإنكار ، ونهاكم عنه أكد النهى ، وبعث فى كل أمة - أى فى كل قرن وطائفة من
الناس - رسولاً ، وكلهم يدعون إلى عبادة الله ، وينهون عن عبادة ما سواه ^(١) .

وفى موقف آخر حكى القرآن مقالة المشركين فى رفضهم الإنفاق وإطعام
الفقراء ، محتجين بالقضاء والقدر ، فقال : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ
اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي
ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ ^(٢) .

والمعنى أنهم رفضوا الإنفاق بحجة أن الله تعالى يريد لهؤلاء الفقر ، ولا يجوز
أن يغنيهم الناس ، ولو شاء الله لأغناهم .
ووصف القرآن هذا الزعم بأنه ضلال واضح بين .

موقف المنافقين :

عقب غزوة أحد دار الجدل طويلاً حول القضاء والقدر بين المسلمين والمنافقين ،
وطرحت فيه اتجاهات متعددة سجلها القرآن المجيد فى قوله تعالى :

﴿ إِذْ تُضْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرُّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أَخْرَاكُمْ فَأَتَابَكُمْ
غَمًّا بِغَمٍ لَكَيْلًا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ » ثُمَّ
أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَغْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ
يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنْ الْأَمْرُ
كُلُّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يَبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا
قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ

(١) تفسير اس كبير ، ج ٢ ، ص ٥٦٨ .

(٢) سورة يس الآية : ٤٧ .

وَلْيَبْتَغِي اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيَمْلِكْ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ
الصُّدُورِ ﴿١﴾ .

ففى غزوة أحد ابتلى المؤمنون بلاء شديداً ، بسبب مخالفة الرماة لأمر الرسول ﷺ ، فتركوا مواقعهم التى يحمون منها ظهور المسلمين ، ونزلوا يجمعون الغنائم بعد فرار المشركين وهزيمتهم .

وبمجرد أن ترك الرماة مواقعهم تنبه المشركون ، وكروا على المسلمين ، فقتلوا منهم سبعين شهيداً وتفرق الجيش الإسلامى .

وأخذ الرسول ﷺ يتأذى عليهم قائلاً : إلى عباد الله ، أنا رسول الله ، من كثر قلبه الجنة .

وتراكم على المسلمين غم على غم ، غم الهزيمة ، وغم إشاعة أن الرسول قتل ، أو غم ما أصابهم عند الفشل والتنازع ، وغم ما وقع عليهم من الهزيمة ، أو غم ما فاتهم من الغنيمة ، وغم ما أصابهم من القتل .

وأياً ما كان فإن الغموم تعاقبت عليهم ؛ ليصير ذلك زجراً لهم عن المعصية والمخالفة ، وتربية لنفوسهم ، ودفعاً لهم لتجاوز الواقع الأليم .

ثم بينت الآيات أن الناس يوم أحد كانوا فريقين :

- فريقاً آمن واستقر الإيمان فى قلبه ، فهؤلاء آمنوا وجاءهم النعاس فى وقت ما ولم يشعروا بخوف ليفينهم أن الله ناصر دينه .

- وفريقاً أهتمهم أنفسهم ولم يكن لهم من هدف إلا الغنيمة ، فلما غشى القوم ما غشيههم ونالهم الفرع الأكبر ، ظنوا بالله غير الحق ظن الجاهلية وحملوا الرسول مستولية قتل من قتل ، بناء على أنه صلى الله عليه وسلم أثر الخروج من المدينة حتى وصل أحدا ، وكان رأيهم أن يظلوا بالمدينة مدافعين عنها لا يخرجون منها .

ومعنى قوله تعالى على لسان المنافقين : ﴿ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ أنه

(١) سورة آل عمران الآيتان : ١٥٣ ، ١٥٤ .

استفهام إنكارى يراد به هل لنا من أمر يطاع ؟

ونظيره قوله تعالى : ﴿ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا ﴾ .

أو المعنى أين ما كان يعدنا به محمد من النصر والغلبة ؟

وللرد على هذا التساؤل بمعنييه جاء قوله تعالى : ﴿ قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ ، وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ .

فالذين توهموا أن خروجهم إلى أحد عجل لهم الموت . ذكرهم القرآن المجيد أن الحذر لا يدفع القدر ، وأن التدبير لا يقاوم التقدير ، وأن الذين قدر الله عليهم القتل لا بد أن يقتلوا في مصارعهم التي علمها الله أولاً ..

والذين توهموا أن هزيمة أحد تعنى أن الله تخلى عن رسوله ولم يؤيده - ذكرهم القرآن بأن الابتلاء قرين الإيمان ، وأنه ليس هناك جهاد بغير تضحيات ، وليس هناك معركة بغير شهداء ، وإنما هي إحدى الحسنيين : النصر أو الشهادة ، كما قال الله تعالى : ﴿ إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ (١) .

وهكذا كانت غزوة أحد مثاراً للفكر والجدل حول مسألة الحرية الإنسانية أو القضاء والقدر ..

* * *

موقف الصحابة

جاءت روايات تفيد أن الصحابة - رضى الله عنهم - أفراداً وجماعات تكلموا في أمر القضاء والقدر ..

وعلى سبيل المثال فقد أخرج البخارى فى صحيحه بسنده أن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال :

(١) سورة آل عمران الآية ١٤٠ .

أن الرسول ﷺ طريقه ، وفاطمة بنت النبي ﷺ ليلة فقال : ألا تصليان ؟
فقلت : يا رسول الله أنفسنا بيد الله فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا .. فانصرف حين
قلت ذلك ، ولم يرجع إلى شيئاً ثم سمعته وهو مول . يضرب فخذه وهو يقول :
﴿ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴾ ^(١) .

لقد حرص الرسول الكريم على إيقاظ ابنته وزوجها لصلاة الليل حتى يتعرضا
لنفحات الله ويحصلوا على الثواب الجزيل الذي أعده الله للمستغفرين بالأسحار .
واعتذر على بن أبي طالب رضى الله عنه بالقدر وقال : يا رسول الله أنفسنا
بيد الله فإذا شاء أن يبعثها بعثنا .

وبمجرد أن سمع الرسول الكريم هذا الاعتذار لم يراجع علياً بشيء وإنما خرج
متعجباً وهو يتذكر الآية الكريمة : ﴿ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴾ .

وفى فقه هذا الحديث قال الإمام ابن حجر :

أنه ليس للإمام أن يشدد في النواقل حيث قنع ﷺ بقول علي - رضى الله
عنه - : أنفسنا بيد الله ، لأنه كلام صحيح في العذر عن التنفل ولو كان فرضاً
مأذره .

وأما ضربه فخذه وقراءته الآية فдал على أنه ظن أنه أخرجهم فندم على انباههم .
وقال النووي : المختار أنه ضرب فخذه تعجباً من سرعة جوابه وعدم موافقته له
على الاعتذار بما اعتذر به والله أعلم ^(٢) .

وعن عبد الله بن عمرو - رضى الله عنهما - أن رسول الله ﷺ خرج على
الصحابة وهم يتنازعون في القدر ، هذا ينزع آية ، وهذا ينزع آية ، فكأنما قفى في
وجهه حب الرمان فقال :

بهذا أمرتم - أو بهذا وكلمتم - أن تضربوا كتاب الله بعضه ببعض ١٩ انظروا

(١) سورة الكهف الآية . ٥٤ .

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخارى ج ٣ ، ص ١١ .

إلى ما أمرتم به فاتبعوه وما نهيتم عنه فاجتنبوه [رواه أحمد وابن ماجه] .
وفي موقف آخر تساءل الصحابة مع رسول الله ﷺ في أمر القدر ، وجاء في صحيح مسلم أن علي بن أبي طالب قال :

كنا في جنازة في بقيع الغرقد فأتانا رسول الله ﷺ فقعده وقعدنا حوله ومعه مخضرة فنكس فجعل ينكث بمخضرته ^(١) ، ثم قال : ما منكم من أحد ما من نفس منفوسة إلا وقد كتب الله مكانها من الجنة والنار ، وإلا وقد كتبت شقية أو سعيدة ، فقال رجل : يا رسول الله أفلا نمكث على كتابنا وندع العمل ؟ فقال : من كان من أهل السعادة فسيصير إلى عمل أهل السعادة ، ومن كان من أهل الشقاوة فسيصير إلى عمل أهل الشقاوة ، اعملوا فكل ميسر ، أما أهل السعادة فميسرون لعمل أهل السعادة ، وأما أهل الشقاوة فميسرون لعمل أهل الشقاوة ثم قرأ :

﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى ﴾ ^(٢) .

وتعدد تساؤل الصحابة في هذا الأمر ، فجاء سراقه بن مالك وقال : يا رسول الله بين لنا ديننا كأنا خلقنا الآن ، فيما العمل اليوم أفيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير أم فيما نستقبل ؟

وقال رجل : يا رسول الله أعلم أهل الجنة من أهل النار ؟ قال : نعم قال : ففيم يعمل العاملون ؟

وجاء رجلان من مزينة فقالا : يا رسول الله أرأيت ما يعمل الناس اليوم ويكدهون فيه أشياء قضى عليه ومضى فيهم من قدر قد سبق أو فيما يستقبلون به مما أتاهم به نبيهم وثبتت الحجة عليهم ؟

وكانت إجابة رسول الله ﷺ في كل هذه الأحوال :

(١) المخضرة - بكسر الميم - ما أخذه الإنسان بيده واختصره من عصا صغيرة وعكار صغير وغيرهما ، ونكس - تخفيف الكاف وتشديد هاء - لغتان فصيحتان . أى خفض رأسه ، ونكث أى خط خطاً يسيراً مرة بعد مرة .

(٢) سورة الليل الآيات : ٥ - ١٠ .

« اعملوا فكل ميسر لما خلق له »^(١) .

ومع كل هذه التساؤلات والمناقشات لم يكن الموقف يمثل ظاهرة فكرية قلقة ولا اتجاهاً دينياً متحزباً ، وانتقل الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى والأمة مجتمعة على صفاء الفهم لكتاب الله وسنة رسوله .

ثم قامت الخلافة الراشدة وبدأت بوادر الخلافات السياسية في عهد عثمان رضي الله عنه ، ودهم الأمة ما دهمها ، فقتل الخليفة ، وامتنشق الحسام ، وانقسم المسلمون ووقعت حروب الفتنة الكبرى بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان ، ونشأت أحزاب سياسية ما لبثت أن تحولت إلى فرق دينية بعدما قامت الدولة الأموية ، فكان الشيعة والخوارج والمرجئة والجبرية والقدرية والمعتزلة .. وتدحل القدر في صياغة فكر هذه الفرق وتبلور لكل منها فهم خاص فيه .

* * *

(١) راجع الروايات في صحيح مسلم شرح النووي ، ح ١٦ ، ص ١٨٩ - ٢٠٧ .

نظرة مذهبية

محل النزاع :

قضية القدر فى مجملها ذات أفقين :

- أفق العلم الإلهى .
- أفق التكليف الإنسانى .

حرص البعض على الأفق الأول وغالى فيه حتى نسى صحة التكليف وحتمية المسؤولية ، وجنح البعض إلى الأفق الثانى وركز عليه حتى غفل عن ضرورة إثبات الكمال المطلق لله عز وجل فى تصريف الكون والكائنات .

وتبلورت الاتجاهات الفكرية فى هذه المذاهب :

الجبرية - القدرية الأولى - المعتزلة - الأشاعرة .

ولا خلاف بين المسلمين قاطبة أن النواميس الكونية فى السماء والأرض كلها مخلوقة لله تعالى سبقت بها إرادته وعلمه .

وكذلك فإن الأفعال الاضطرارية للإنسان كنبض قلبه وحركة أمعائه وما قد يدهمه ويقع عليه بلا إرادة منه ولا قدرة معه - هى من تقدير الله وخلقه .

ولا تكليف على الإنسان فى هذين النوعين ، ولا مسئولية عليه حيالهما ، ولا يمدح أو يذم بسببهما .

ومحل النزاع هو أفعال الإنسان الاختيارية والتى تنشأ عن إرادة من العبد وتصحبها قدرة منه عليها ، والتى هى الأمر والنهى فى التشريعات الإلهية ، هنا نشأ الخلاف ، واحتدم الجدل وتنازعت الفرق وتعددت .

الجبرية :

فمن فرق الجبرية أصحاب جهنم بن صفوان ، قال عنه الشهرستانى :
هو من الجبرية الخالصة ظهرت بدعته بترمد ، وقتله مسلم بن أحوز المازنى بمرو فى آخر ملك بنى أمية .

ورأيه في موضوعنا : أن الإنسان لا يقدر على شيء ولا يوصف بالاستطاعة وإنما هو مجبور في أفعاله ، لا قدرة له ولا إرادة ولا اختيار ، وإنما يخلق الله تعالى الأفعال فيه على حسب ما يخلق في سائر الجمادات ، وتنسب إليه الأفعال مجاراً كما تنسب إلى الجمادات ، كما يقال : أثمرت الشجرة ، وجرى الماء ، وتحرك الحجر ، وطلعت الشمس وغربت ، وتغيّمت السماء وأمطرت ، واهتزت الأرض وأنبتت .. إلى غير ذلك .

والثواب والعقاب جبر كما أن الأفعال كلها جبر ، وإذا ثبت الجبر فالتكليف أيضاً كان جبراً^(١) .

* * *

القدرية :

وفي مقابل الجبرية جاء معبد بن خالد الجهني وقال : لا قدر والأمر أنف ، وهو أول من قال بالقدر في البصرة كما روى مسلم في صحيحه عن يحيى بن يعمر^(٢) .

وساق الإمام اللالكائي روايات منها :

* عن عثمان بن عبد الله قال : أول من تكلم في شأن القدر أبو الأسود الديلمي .

* عن الحسن بن محمد قال : أول من تكلم في القدر حين أحترقت الكعبة (٦٤ هـ) :

قال قائل : كان هذا من قضاء الله أن أحترقت الكعبة .
وقال آخر : ما كان هذا من قضاء الله .

* عن ابن عون قال : أدركت الناس وما يتكلمون إلا في علي وعثمان حتى نشأ ههنا حقير يقال له : سنسويه البقال فكان أول من تكلم في القدر .

(١) الملل والنحل للشهرستاني - تحقيق سيد كيلاني ج ١ ، ص ٨٧ ، طبعة الحلبي .

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي ج ١ ، ص ١٥٠ .

« عن يونس بن عبيد قال : أدركت البصرة وما بها قدرى إلا سنسويه ومعبد الجهنى وآخر ملعون فى بنى عوافة .

« قال الأوزعى : أول من نطق بالقدر رجل من أهل العراق يقال له : سوسن كان نصرانياً فأسلم ، ثم تنصر فأخذ عنه معبد الجهنى وأخذ غيلان عن معبد^(١) .

وأياً ما كان فإن مقالة معبد الجهنى : « لا قدر والأمر أنف » تعنى إنكار علم الله تعالى السابق بالحوادث ، وتنفى تقديره سبحانه للأمور وإرادته لها ، وتضيف الأفعال للإنسان نفسه فهو موجدوها والمسئول عنها .

ومذهب القدرية الأولى فيه جفاء وإهدار لجلال الله وكماله وإعلاء من شأن الإنسان وكأنه وحده فى هذا الكون يتصرف فيه بطلاقة كاملة وحرية مطلقة ، ولهذا لم يتيسر الانتشار للمذهب ولم يسد بعد أصحابه الأول .

* * *

المعتزلة :

جاء المعتزلة وخففوا الوطأ ، فأثبتوا العلم الأزلى التامل لله تعالى والقدرة المطلقة له جل شأنه وأن العبد بقدراته مخلوق لله ، قد منحه الله الاستطاعة ، فأفعال العباد غير مخلوقة لله فيهم ، والإنسان هو المحدث لها بما منحه الله من القدرة وأسبابها .

وشرح القاضى عبد الجبار هذه العبارة فقال :

والذى يدل على ذلك أن تفصل بين المحسن والمسيء ، وبين حسن الوجه وقبيحه ، فنحمد المحسن على إحسانه ، ونذم المسيء على إساءته ، ولا تجوز هذه الطريقة فى حسن الوجه وقبيحه ، ولا فى طول القامة وقصرها ، حتى لا يحسن منا أن نقول للطويل : لم طالت قامتك ؟ ولا للقصير : لم قصرت ؟

(١) راجع الروايات فى شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للإمام أبى القاسم هبة الله بن الحسن ابن منصور الطبرى اللالكائى (ت ٤١٨ هـ) تحقيق د. أحمد سعد حمدان ج ٤ ، ص ٧٤٦ - ٧٥٠ ، طبعة دار طيبة بالرياض .

كما يحسن أن نقول للظالم : لم ظلمت ؟ وللكاذب : لم كذبت ؟
فلولا أن أحدهما متعلق بنا وموجود من جهتنا بخلاف الآخر ، وإلا لما وجب
هذا الفصل ، ولكان الحال في طول القامة وقصرها كالحال في الظلم والكذب ،
وقد عرف فساده .

وساق القاضي عبد الجبار اعتراضاً :
فإن قالوا : لا يمكنكم أن تستدلوا بهذه الطريقة على أن هذه الأفعال متعلقة
بكم فإنكم تحمدون الله تعالى على الإيمان ، وإن كان الإيمان من فعلكم ومتعلقاً
بكم ، وكذلك فإنكم تذمون أحدنا على الإمامة والفرق والحرق وغير ذلك مع أن
شيئاً من ذلك لا يتعلق به .

ثم أجاب القاضي قائلاً :
أما الأول فليس ما تظنونونه لأننا لا نحمد الله تعالى على الإيمان نفسه ، وإنما
نحمده على مقدماته من الإقذار والتمكين وإزاحة العلة بأنواع اللطاف وذلك
موجود من قبله ومتعلق به فلا يلزم .

ولهذا قال بعض أصحابنا حين أورد بعضهم هذا السؤال عليه بحضرة بعض
الأكابر فقال : فإننا لا نحمد الله تعالى على ذلك وإنما الله يحمدنا عليه ^(١) ، فانقطع
السائل .

فقال المستول : شنت المسألة فسهلت .

أما ما ذكرته ثانياً فليس كذلك أيضاً لأننا لا نذم أحدنا على الإمامة والفرق
والحرق وإنما ذمناه على مقدمات ذلك ، ألا ترى أن من وضع صبيّاً تحت برد ليموت
فإن ذمنا إياه ليس على الإمامة وإنما هو على إلقائه أو وضعه تحت البرد ، وكذلك من
ألقي صبيّاً في تنور ليحرقه الله تعالى فإننا لا نذمه على الإحراق الموجود من قبل الله
تعالى ، وإنما نذمه على تقريره من جهة النار وإلقائه فيها ^(٢) .

(١) حمد الله لنا بمعنى ثوابه وعطاؤه .

(٢) شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار ، تحقيق د. عبد الكريم عثمان ص ٣٣٣ ، طبعة مكتبة

الأشاعرة :

خرج من عبادة المعتزلة أبو الحسن الأشعري لينادى بكسب الإنسان فى عمله الاختيارى ويبطل ما ذهب إليه المعتزلة من مسألة خلق الإنسان لعمله أو إحداثه له فقال :

وإرادته تعالى واحدة قديمة أزلية متعلقة بجميع المرادات من أفعاله الخاصة ، وأفعال عبادته من حيث إنها مخلوقة له ، لا من حيث إنها مكتسبة لهم .

فعن هذا قال : أراد الجميع خيرها وشرها ونفعها وضرها ، وكما أراد وعلم أراد من العباد ما علم ، وأمر القلم حتى كتب فى اللوح المحفوظ ، فذلك حكمه وقضاؤه وقدره الذى لا يتغير ولا يتبدل ، وخلاف المعلوم مقدور الجنس محال الوقوع^(١) .

وقد اشتهر بين العلماء خفاء معنى الكسب المراد عند الأشعري حتى قيل : أخفى من كسب الأشعري !!

لأن ما ورد فى شأن تعريفه لا يكاد يحل المشكلة ، فالكسب - كما قيل - هو مقارنة قدرة العبد الحادثة للفعل مع قدرة الله تعالى من غير صحة انفراد أو تأثير لهذه القدرة الحادثة .

ويقول الإمام السنوسى شرحاً لهذا المعنى :

لا تأثير لقدرتنا فى شيء من أفعالنا الاختيارية كحركاتنا وسكناتنا ، وقيامنا وقعودنا ومشينا ونحوها ، بل جميع ذلك مخلوق لمولانا جل وعز ، بلا واسطة ، وقدرتنا أيضاً مثل ذلك عرض مخلوق لمولانا جل وعز ، تقارن تلك الأفعال الاختيارية ، وتتعلق بها من غير تأثير لها فى شيء من ذلك أصلاً .

وإنما أجرى الله تعالى العادة أن يخلق عند تلك القدرة ، لا بها ، ما شاء من الأفعال ، وجعل الله سبحانه وجود تلك القدرة مقارنة للفعل شرطاً فى وجوب التكليف .

وهذا الاقتران والتعلق لهذه القدرة الحادثة بتلك الأفعال من غير تأثير لها أصلاً

(١) الملل والنحل لشهرستانى ح ١ ، ص ٩٦ .

هو المسمى فى الاصطلاح وفى الشرع بالكسب والاكتساب ، وبحسبه تضاف
الأفعال إلى العباد كقوله تعالى : ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ .

وأما الاختراع والإيجاد فهو من خواص مولانا جل وعز ، لا يشاركه فيه شىء
سواه تبارك وتعالى ، ويسمى العبد عند خلق الله تعالى فيه هذه القدرة المقارنة للفعل
مختاراً ، وعندما يخلق تعالى فيه الفعل مجرداً عن مقارنة تلك القدرة الحادثة - يسمى -
مجبوراً ومضطراً كالمرتعش مثلاً ..^(١) .

* * *

(١) حاشية الدسوقي على شرح العقيدة الصغرى ، ص ١٦٤ ، طبعة سنة ١٣٠٥ هـ .

جدل مذهبي

احتدم الجدل بين المعتزلة والأشاعرة في مسألة أفعال العباد ، وذهب كل فريق يجادل عن نفسه .

فالقاضي عبد الجبار رأى أن مذهب الكسب لا يعقل ولا يتصور معه استحقاق المدح والذم للمكلف ، ويوجب قبح بعثة الرسول وبطلان الشرائع ، ويلزم منه الظلم والقبح في حق الله تعالى عن ذلك علواً كبيراً ، وساق القاضي أمثلة على ذلك منها :

ويلزمهم أن لا يثبت لرسول الله تعالى حجة على الكفرة ، لأن للكافر أن يقول : إن كنت رسولاً فلا أقل من أن تكون رسالتك موافقة لمراد المرسل ، فكيف تدعونا إلى الإسلام ومـ أرسلك إلينا أراد منا الكفر وخلقه وجعلنا بحيث لا يمكننا الانفكاك عنه ؟

ويلزم انقطاع الرسل من وجه آخر وهو أن يقال لهم : إلى ماذا تدعونا إليه ؟

فإن كنتم تدعونا إلى ما خلقه الله تعالى فينا ، فإن ذلك مما لا فائدة فيه ، وإن كنتم تدعونا إلى ما لم يخلقه الله تعالى فينا فذلك مما لا نطيعه ولا نتمكن منه .

ويلزمهم التسوية بين الرسول وبين إبليس ، لأن الرسول يدعوهم إلى خلاف ما أراد الله تعالى منهم ، كما أن إبليس يدعوهم إلى ذلك ، بل يلزمهم أن يكون حال الرسول أسوأ من حال إبليس ، لأن إبليس إنما يدعوهم إلى خلافه^(١) ، وكل مذهب يقتضي ذلك ويؤدي إليه فكافيك به فساداً .

ويلزمهم أيضاً قبح الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، لأن الأمر لا يخلو : إما أن يكون أمراً بالواقع وذلك قبيح ويجري في القبح مجرى أمر المرمى من شاهق بالنزول .

وإن كان أمراً بما لا يقع فإن الأمور غير قادر عليه عندهم لقولهم بالقدره الموجبة فيكون الأمر به أمراً بما لا يطاق ، وتكليف ما لا يطاق قبيح .

(١) العبارة فيها نظر ، ولعلها : إلى مراد الله منهم في الكفر والضلال .

وهكذا الكلام فى النهى عن المنكر ، لأنه إن كان نهياً عن الواقع فإن ذلك قبيح ، ولا فائدة فيه ، وإن كان نهياً عما لم يقع فإن ذلك نهى عما لم يقدر عليه ، وذلك قبيح أيضاً ، ويجرى فى القبح مجرى نهى الزمن عن العدو^(١) .

ثم أورد القاضى عبد الجبار آيات قرآنية عدها موافقة لأدلة العقل ، ومقررة لأن الله تعالى لا يخلق أفعال العباد مثل :

١ - قوله تعالى : ﴿ مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوتٍ ... ﴾^(٢) .

نفى الله التفاوت عن خلقه ، فلا يخلو : إما أن يكون المراد بالتفاوت من جهة الخلقة أو من جهة الحكمة ، لا يجوز أن يكون المراد به التفاوت من جهة الخلقة ، لأن فى خلقة المخلوقات من التفاوت ما لا يخفى ، فليس إلا أن المراد به التفاوت من جهة الحكمة على ما قلناه ، إذا ثبت هذا لم يصح فى أفعال العباد أن تكون من جهة الله تعالى لاشتغالها على التفاوت وغيره .

٢ - قوله تعالى : ﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴾^(٣) .

وقد قرئ « خلقه » (بتسكين اللام) وكلا القراءتين تدل على أن أفعال العباد غير مخلوقة فيهم ، ووجه الاستدلال به أنه لا يخلو إما أن يكون المراد به أن جميع ما فعله الله تعالى فهو إحسان أو المراد به أن جميعه حسن ، لا يجوز أن يكون المراد به الإحسان لأن فى أفعاله تعالى ما لا يكون إحساناً كالعقاب ، فليس إلا المراد به الحسن على ما نقوله .

إذا ثبت هذا ، ومعلوم أن أفعال العباد تشتمل على الحسن والقبح ، فلا يجوز أن تكون مضافة إلى الله تعالى .

٣ - قوله تعالى : ﴿ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾^(٤) .

يبين الله تعالى أن أفعاله كلها متقنة ، والإتقان يتضمن الإحكام والحسن جميعاً

(١) شرح الأصول الخمسة - تحقيق د. عبد الكريم عثمان ص ٣٣٤ ، ٣٣٥ - طبعة مكتبة وهبة .

(٢) سورة الملك الآية ٣٠ .

(٣) سورة السجدة الآية ٧ .

(٤) سورة النمل الآية : ٨٨ .

حتى لو كان محكماً ولا يكون حسناً لكان لا يوصف بالإتقان ، ألا ترى أن أحدنا لو تكلم بكلام فصيح يشتمل على القبح والخنا فإنه وإن وصف بالإحكام لا يوصف بالإتقان .

إذا ثبت هذا ومعلوم أن أفعال العباد ما يشتمل على التهود والتنصر والتمجس فلا يجوز أن يكون الله تعالى خالقاً لها .

٤ - قوله تعالى : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أََمْْوَائًا فَأَخْيَاكُمْ... ﴾ (١) .

أورد ذلك متعجباً منهم فى الكفر مع ما له عز وجل عليهم من النعم ، ولو كان - كما قالوه لم يكن للاستعجاب موضع ولكان بمنزلة قوله : كيف تسودون وقد أنعمت عليكم وفعلت وصنعت ، فكما أن ذلك مما لا وجه له لما لم يكن الاسوداد متعلقاً بهم ، وموقوفاً على اختيارهم ، كذلك فى مسألتنا .

على أن مع هذا المذهب لا يثبت لله تعالى نعمة على الكفار ، لا نعمة الدين ولا نعمة الدنيا ، أما نعمة الدين فلا إشكال فيه ، لأنه قد خلق فيهم الكفر والقدرة الموجبة له والإرادة الموجبة له ، وسلبهم الإيمان وقدرته وإرادته ، وجعلهم من الأشقياء فكيف يثبت له عليهم نعمة ١٩

وأما نعمة الدنيا فلأن هذه المنافع وإن كانت تصل إليهم فى الحال فإنها من حيث توصلهم إلى النار الأبد والعقاب السرمذ بمنزلة الخبيص (٢) المسموم الذى يؤدى إلى الهلاك ، فكما أن من قدمه إلى غيره لا يكون منعماً بذلك عليه ، كذلك فى هذا الموضع .

٥ - قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ ﴾ (٣) .

أورد الآية على وجه التوبيخ وذلك لا يحسن إلا بعد احتياج الكفر والإيمان إلينا وتعلقهما بنا ، وإلا كان ذلك بمنزلة أن يوبخ أحدنا على طول قامته وقصرها ، فيقال : قد أنعمنا عليك وصنعنا بك وفعلنا فقصرت قامتك أو طالت .

(١) سورة المقرة الآية ٢٨٠ .

(٢) لون من الطعام شهى .

(٣) سورة التغانن الآية ٢٠ .

٦ - قوله تعالى وتنزه وتقدس : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ ^(١) .
وهذا يدل على أن الله تعالى لا يريد من العباد إلا العبادة والطاعة ، لأن هذه
اللام لام الغرض ، الذى يسميه أهل اللغة : لام كى ، بدليل أنهم لا يفصلون بين
قول القائل : دخلت بغداد لطلب العلم ، وبين قوله : دخلت وغرضى طلب العلم .
ويدل أيضاً على أن هذه الأفعال محدثة من جهتنا ومتعلقة بنا وإلا كان لا
معنى لهذا الكلام ^(٢) .

وقد رد الأشاعرة على هذا الاتجاه الاعتزالى ، وقال الإمام التفتازانى فى مقاصده :
وللمعتزلة فيها تأويلات فاسدة وتعسفات باردة يتعجب منها الناظر ويتحقق
أنهم فيها محجوجون ، وبوهقها مخنوقون ، ولظهور الحق فى هذه المسألة يكاد
عامتهم به يعترفون ، ويجرى على ألسنتهم أن ما لم يشأ الله لا يكون .
وبدأ الإمام التفتازانى يعلق على كثير من استدلالات المعتزلة ويسوق مجموعة
اتجاهات تمثل الفكر الأشعرى هى :

- ١ - لا قبح من الله تعالى ، غاية الأمر أنه يخفى علينا وجه حسنه .
- ٢ - لا ظلم من الله تعالى لعباده عندما يعاقبهم على الكفر والمعاصى لأنه
تصرف فى ملكه .
- ٣ - لا سفه فى أمر الله تعالى بما لا يريد إذ ربما لا يكون غرض الأمر الإتيان
بالمأمور به ، كالسيد إذا أمر العبد امتحاناً له هل يطيعه أم لا ؟ فإنه لا يريد شيئاً من
الطاعة والعصيان ، أو اعتذاراً عن ضربه بأنه لا يطيعه فإنه يريد منه العصيان ،
وكالمكره على الأمر بنهب أمواله ، وكذا فإن قيل : مأمور السلطان ببادر إلى المأمور
به معللاً بأنه مراد السلطان . قلنا : لا مطلقاً بل إذا ظهر أمانة الإرادة ، وإنما يعمل
مطلقاً بالأمر والإشارة والحكم .
- ٤ - ليس وجود الكفر تبعاً لإرادة الله من العبد يكون طاعة ، فالطاعة هى
موافقة الأمر وليس موافقة الإرادة .

(١) سورة الداريات الآية ٥٦ .

(٢) شرح الأصول الخمسة من ص ٣٥٥ - ٣٦٣ تصرف .

- ٥ - لا يلزم من وقوع الكفر بإرادة الله وقدرته الرضا به ، لأن الكفر مقضى ،
والواجب هو الرضا بالقضاء وليس بالمقضى .
- ٦ - هناك فرق بين الإرادة من جهة وبين الأمر والرضا والمحبة من جهة أخرى ،
فالله تعالى يريد الكفر ولا يأمر به ولا يرضى عنه ولا يحبه بل يعاقب عليه .
- ٧ - أفعال الله تعالى لا تعلل بغرض .
- ومن طريف ما يروى أن القاضي عبد الجبار دخل داراً للمصاحب ابن عباد فرأى
الأستاذ أبا إسحق الاسفراينى فقال :
سبحان من تنزه عن الفحشاء .
فقال الأستاذ على الفور : سبحان من لا يجرى فى ملكه إلا ما يشاء^(١) .

* * *

(١) راجع شرح المقاصد للعلامة سعد الدين عمر التفتازانى ، ج ٢ ، ص ١٠٧ - ١٠٩ ، طبعة
سنة ١٢٧٧ هـ بتصرف .

بعيداً عن المذاهب

نحن نعتقد أن الحق أكبر من أن يستوعبه مذهب واحد بعينه وأن الذين يتعصبون لأى مذهب بأجمعه إما عامة أو أنصاف علماء .
وبالتالى فلا ندعى العصمة المطلقة لإمام من الأئمة ، فكل إنسان يورث منه ويرد عليه إلا صاحب الروضة الشريفة .

ونحسب أن العلماء - بمراعاة الوصف - مخلصون فى اجتهادهم ، وليس واحد منهم يتغنى الفتنة وإنما مرادهم جميعاً الوصول إلى الحق ، فمنهم من يصل ، ومنهم من يشارف ، ومنهم من ينأى به السبيل .

الجبر مرفوض :

حولنا بين المذاهب فى مسألة القضاء والقدر - نجعلنا نرفض مذهب الجبر رفضاً تاماً ، فإن هناك فرقاً واضحاً جلياً بين الإنسان والحيوان ، وهذا الفرق بدهة هو العقل الذى كرم الله به بنى آدم ، وعليه مدار التكليف وإذا سلب ما وهب سقط ما وجب ، فالجنون ومن على شاكلته غير مطالب بالأمر والنهى شرعاً .
كما أن هناك تفرقة ضرورية بين الفعل الاختيارى والفعل الاضطرارى ، فحركة الساعى إلى الصلاة اختيارية ، وحركة المرتعش اضطرارية ، والمتنحر مختار ، ومن قتل رغم أنفه مضطر .

وهذه التفرقة ثابتة شرعاً ، فالساعى إلى الصلاة مثاب ، والمتنحر معاقب ، ولا حرج على المريض ، ومن قتل حتف أنفه قد يكون شهيداً .. وبالتالى فالإنسان مكلف بفعله الاختيارى فقط ولا تكليف عليه عند الاضطرار .

والعقل والاختيار هما أساس المسؤولية الشرعية ، وهذا الأساس تقوم عليه حرية الإنسان فى الفعل والترك ، ويصدق فيه قول الله عز وجل : ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ ﴾ (١) .

(١) سورة الكهف الآية : ٢٩ .

وقوله : ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ (١) .

الأمر مقدور :

نحن نرفض قضية أن الأمر أنف بقدر ما نرفض الجبر ، فإن علم الله تعالى لا يعزب عنه شيء ، مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ لَا يُعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتٍ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ (٢) .

وعلم الله تعالى محيط شامل غير مكتسب ، ولا يسبقه خفاء ، ولا يعنیه جهل ، ولا يلحقه تخلف ، ومع ذلك فهو انكشاف لا تأثير ، فلا يلزم من العلم الأزلي حمل الله الناس على هذا العلم في مجال التكليف وإلا أصبح إلحاء .

فمقتضى الانكشاف كما يليق بجلال الله وكماله أنه لا يتخلف من حيث هو انكشاف تام لا من حيث إنه حمل على المراد أو المعلوم .

وقضية ربط القدرة الإلهية بالإرادة والعلم إنما هي في مجال الكون العام والكائنات المسخرة للإنسان والأفعال الاضطرارية الخارجة عن التكليف الشرعي ... ولهذا جاء قوله تعالى : ﴿ بَدِيعُ السَّمَلَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَيْسَ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ (٣) .

فالأمر بالعبادة مرتب على إبداع الله الكائنات كلها وتسخيرها لبنى الإنسان ، فالعبادة خارجة عن نطاق الكلية في قوله : خالق كل شيء .. وإلا ما صح التعبير ولما جاز الأمر .

والكلية تكون بحسب السياق وليس كل كلية تكون عامة مطلقة ، فعندما قال

(١) سورة الرزولة الآيات ٧٠ ، ٨ .

(٢) سورة الأنعام الآية : ٥٩ .

(٣) سورة الأنعام الآيات : ١٠١ ، ١٠٢ .

الله تعالى فى حق ملكة سبأ على لسان الهدد : ﴿ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ﴾^(١) .

كان المراد من كل شىء يحتاجه الملوك ، وليس كل شىء على الإطلاق كاللحشرات والنباتات والحيوانات والأحجار والكواكب وهلم جرا .

وكذا فى قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾^(٢) .

ليس المراد كل سفينة تمر وإلا ما خرق السفينة لينقذها من غضب الملك ، بل المراد كل سفينة صالحة ، وحذف ما يعلم جائر .

مسير ومخير :

إن أفعال الله تعالى مبنية على الحكمة ، والكون كله قائم على تدبير حكيم ، وقد كتب الله على نفسه الرحمة ، ولم يخلق الكون عبثاً أو باطلاً .

والإنسان وسط هذا الكون ليس مطلق السراح ، يهيمن على الوجود ويسيطر على الكائنات ، بل هو محكوم بنواميس ثابتة حوله تحيط به وتقع عليه ، ويسير فى فلكها ، فالليل والنهار ، والصيف والشتاء ، والصحة والمرض ، وطول العمر وقصره ، وأجهزة بدنه وأعضاء جسمه الداخلية والخارجية ، كلها مخلوقة لله ، مسيرة بإرادته ، واقعة بقدرته ، لا ينفك عنها الإنسان .

وجميع هذه الأمور ليس يكلف بها الإنسان ، ولن يحاسب عليها ، ولا يعتريه مدح أو ذم بسببها ، فهى خارجة عن نطاق المسؤولية الإنسانية .

أما التكليف والأمر والنهى ، والشرائع والأحكام فهى وحدها التى يقف الإنسان حيالها مختاراً يفعل ما يشاء بما منحه الله من طاقات ، وما هياؤه من أسباب ، وما مكن له من قوى ، وقد أراد الله تعالى للإنسان هذا الموقف ، وكلفه على هذا الأساس ، وفى كلا الحالين أمام التكليف الشرعى بالإيمان أو الكفر ، والطاعة أو المعصية لا يخرج عن المراد ، لأن الله تعالى قد منحه الحرية ، ولو شاء الله سلبها منه ما منعه أحد ، لكنه جل شأنه لم يشأ للإنسان الجبر .

(١) سورة النمل الآية : ٢٣ .

(٢) سورة الكهف الآية ٧٩ .

ومن هنا نفهم آيات كثيرة فى القرآن المجيد مثل :

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ ^(١) .

﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ ^(٢) .

الكونى والشرعى :

يجب أن نفرق بين الكونى والشرعى فى القضاء والإرادة والأمر والكتاب ، والحكم والتحريم ... إلخ . فالكونى : هو السنن الإلهية التى تنظم الكون وتدبر أمور الكائنات ، وتجعل الحياة فى تناسق واطراد وإحكام من خلال الهيمنة الإلهية والسلطان المطلق لله تعالى .

والشرعى : هو ما يتعلق بالصلة بين المخلوق والخالق فى إطار العبادة والتكليف والمسئولية ، وهو ما أشار إليه قوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ ^(٣) ، وقوله صلى الله عليه وسلم : « حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً ، وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئاً » فنحن مطالبون بالشرعى وليس بالكونى فإنه خارج عن التكليف للإنسان .

وقد ساق شارح العقيدة الطحاوية ألواناً من بيان القرآن فى هذا المجال ^(٤) ، نوردها ونوضحها كما يلى :

١ - القضاء الكونى فى قوله تعالى : ﴿ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ ﴾ ^(٥) قاله تعالى قضى السموات فى يومين : أى خلقها وأحكم صنعها ، وهذا القضاء الكونى لا يسأل عنه الإنسان ولا يحاسب عليه .

(١) سورة يونس الآية : ٩٩ .

(٢) سورة الإنسان الآية ٣٠ .

(٣) سورة الذاريات الآية ٥٦ .

(٤) شرح العقيدة الطحاوية لابن أبى العز الدمشقى ص ٥٠٥ - طبعة المكتب الإسلامى .

(٥) سورة فصلت الآية ١٢ .

أما القضاء الشرعى ففى قوله تعالى : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ﴾ ^(١) ، فالقضاء هنا بمعنى الأمر ويطلب به الإنسان ويحاسب على موقفه حيال أفراد الله بالعبادة ثواباً على الإيمان وعقاباً على الكفر .

٢ - الإرادة الكونية فى قوله سبحانه : ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ .. ﴾ ^(٢) .

فهذه الإرادة محض تصرف إلهى فى تدبير شئون عباده ، ولن يحاسب امرؤ على بلوغ اليتيمين الرشد واستخراج الكنز .

أما الإرادة الشرعية ففى مثل قوله جل شأنه : ﴿ .. يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ... ﴾ ^(٣) .

فيُفسر التشريع فى أحكام الصيام حين أباح الله الفطر للمريض والمسافر ، هو إرادة شرعية يحاسب المرء على مدى التزامه بالحكم وقبوله له .

٣ - الأمر الكونى فى مثل قوله جل شأنه : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ ^(٤) .

فهذا أمر يتعلق بتدبير الله الكائنات ، وسرعة استجابتها لتصرفه وفعله ، ووقوعها تحت قبضته وسلطانه ، ولن يطلب لإنسان بهذا الأمر الكونى ، ولن يحاسب على خلق الله وتدبيره فى نطاق الملك والملكوت .

أما الأمر الشرعى فى مثل قوله سبحانه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ ﴾ ^(٥) فالإنسان مطالب به ومحاسب على مدى التزامه بالعدل والإحسان ، وصلة ذوى القربى .

٤ - الإذن الكونى فى قوله تعالى : ﴿ .. وَمَا هُمْ بِضَائِرِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ... ﴾ ^(٦) .

(١) سورة الإسراء الآية ٢٣ .

(٢) سورة الكهف الآية ٨٢ .

(٣) سورة البقرة الآية ١٨٥ .

(٤) سورة يس الآية ٨٢ .

(٥) سورة النحل الآية ٩٠ .

(٦) سورة البقرة الآية ١٠٢ .

فالسحر وأعمال الشر لا تضر من تلقاء نفسها ، ولا بإرادة مرتكبيها ، وإنما إذا صادفت الإذن الإلهي سرى مفعولها ، وإذا لم يكن هناك إذن إلهي فلا قيمة لها ولا أثر منها .

فالخير والشر في الوجود ، والنفع والضرر من الكائنات مرهون بإذن الله ، ولا يملك أحد التصرف في هذا الكون ما لم يتعلق بذلك إذن الله .

أما الإذن الشرعي ففي مثل قوله تعالى : ﴿ مَا قَطَعْتُمْ مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ ﴾ (١) .

فقطع نخيل الأعداء أو تركه في غزوة بنى النضير كان إذناً شرعياً ، وأمرأ إلهياً تكليفاً ليخزي الفاسقين ويتحقق به النصر للمؤمنين .

لقد حاصر المسلمون يهود بنى النضير فتحصنوا بقلاعهم وتنادوا بالحرب وظاهرهم المنافقون ، فأمر الرسول ﷺ بإحراق نخيلهم فقالوا : يا محمد قد كنت تنهى عن الفساد في الأرض فما بال قطع النخيل وتحريره ؟ وكان في أنفس المؤمنين من ذلك شيء .

فنزلت هذه الآية لترفع الحرج عن المؤمنين وتضاعف الحسرة على الكافرين .

هـ - الكتابة الكونية في قوله تعالى : ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾ (٢) .

فالكتابة هنا شأن الله وحده ، لا علاقة للإنسان بها ، فرحمة الله وسعت كل شيء ، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء وهو سبحانه الرحمن الرحيم .

أما الكتابة الشرعية ففي مثل قوله سبحانه : ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ ... ﴾ (٣) .

فهذه كناية تتعلق بالحدود الواجب تطبيقها في العقوبات ، وسيحاسب المرء على مدى التزامه بها وتطبيقه لها ، فإن أحسن فهو المؤمن وإن أساء وبدل فهو الكافر أو الفاسق أو الظالم .

(١) سورة الحشر الآية ٥ .

(٢) سورة الأنعام الآية ١٢ .

(٣) سورة المائدة الآية ٤٥ .

٦ - الحكم الكونى فى قوله تعالى : ﴿ فَلَنْ أَنزَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِى أَبِي أَوْ يَخْكُمَ اللَّهُ لى وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾ ^(١) .

لقد فوض كبير إخوة يوسف أمره إلى الله فى هذا المأزق الذى وقع فيه حين تبين له سرقة أخيه ولم يستطع أن يدفع عنه شيئاً .

أما الحكم الشرعى ففى قوله تعالى : ﴿ .. أَجَلْتُ لَكُمْ يَهِيمَةَ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُشَلَّى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلَّى الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ إِنَّ اللَّهَ يَخْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴾ ^(٢) .

فإنه تعالى يشرع لعباده ما يشاء ، ويحرم ويحلل ما يريد ، وما على الإنسان إلا الالتزام والتسليم لهذا الحكم الشرعى .

٧ - التحريم الكونى فى قوله تعالى : ﴿ وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنْتُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ ^(٣) .

فالقرى التى أهلكها الله بذنوبهم لا يرجع أهلها إلى الدنيا ، لا لعمارتها ولا لإصلاح ما فسد من أعمالهم ، فذلك ممتنع مستحيل ، ولن يحاسب امرؤ على رجوع هؤلاء أو عدم رجوعهم فتلك إرادة الله .

أما التحريم الشرعى ، ففى قوله تعالى : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ ... ﴾ ^(٤) .

فيمتنع شرعاً على الإنسان أن يأكل الميتة والدم ولحم الخنزير ، ومن استجاب والتزم فله الثواب ، ومن تمرد وأبى فعليه العقاب .

٨ - الكلمات الكونية فى قوله تعالى : ﴿ .. وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنَى إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا ... ﴾ ^(٥) .

(١) سورة يوسف الآية ٨٠

(٢) سورة المائدة الآية ١ .

(٣) سورة الأنبياء الآية ٩٥ .

(٤) سورة المائدة الآية ٣ .

(٥) سورة الأعراف الآية ١٢٧ .

فالكلمة هنا تتعلق بإرادة الله التمكين لبنى إسرائيل لما صبروا وآمنوا ، ولا يترتب على التمكين لهؤلاء ثواب أو عقاب لبشر ، ولن يحاسب أحد ويسأل لماذا مكن لهم أو لم يمكن .

أما الكلمات الشرعية ففى قوله تعالى : ﴿ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ... ﴾ ^(١) .

فالكلمات هنا بمعنى الأمر والنهى ، فلقد كلف الله نبيه إبراهيم بتكليفات أتمها على الوجه الأكمل وأحسن التعامل معها ، فأكرمه الله وجعله إماماً .

الخير والشر :

قضية الخير والشر فى الشرعيات واضحة محددة ، فما أمر الله به فهو خير ، وما نهى عنه فهو شر ، وتلك مسألة لا جدال فيها .

فالإيمان بالله والعمل الصالح والسعى فى حوائج البشر ، والرفق بالكائنات هو خير مطلق .

والكفر بالله ، والإفساد فى الأرض هو شر محض .

وبهذا جاءت نصوص القرآن المجيد ، فأمر الله تعالى بالمسارعة إلى الطاعة وسماها خيرات فقال :

﴿ .. فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ... ﴾ ^(٢) .

﴿ .. وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ ^(٣) .

ووصف الأنبياء المصطفين بالمسارعة إلى الخيرات فقال :

﴿ .. إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ ... ﴾ ^(٤) .

وخص الله تعالى بعض أفعال الطاعة بوصف الخير ، فالرد الجميل والعفو

(١) سورة البقرة الآية ١٢٤ .

(٢) سورة البقرة الآية ١٤٨ .

(٣) سورة الحج الآية ٧٧ .

(٤) سورة الأنبياء الآية ٩٠ .

والكلمة الطيبة خير ، فقال : ﴿ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى ... ﴾ ^(١) والتسامح والتنازل عن بعض الحق مع صفاء النفوس خير فقال : ﴿ وَالصُّلْحُ خَيْرٌ ﴾ ^(٢) وآداب الاستئذان فى البيوت خير ، فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ ^(٣) .

وتعفف القواعد من النساء والتزام الحشمة خير ، فقال : ﴿ وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَغْفِنَ عَنْهُنَّ لَهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ ^(٤) .

والدين كله خير ، فتقوى الله والسمع والطاعة والإنفاق خير ، قال تعالى : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لَّأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ ^(٥) .

وفى تفسير الزمخشري :

﴿ خَيْرًا لَّأَنْفُسِكُمْ ﴾ نصب بمحذوف تقديره : اتقوا خيراً لأنفسكم ، وافعلوا ما هو خير لها وأنفع ، وهذا تأكيد للحث على امتثال هذه الأوامر ، وبيان لأن هذه الأمور خير لأنفسكم من الأموال والأولاد ، وما أنتم عاكفون عليه من حب الشهوات وزخارف الدنيا ^(٦) .

وعكس ذلك هو شر فى العمل وشر فى الجزاء ، فالبخل شر ، قال تعالى : ﴿ وَلَا يَخْسِبَنَّ الَّذِينَ يَتَّخِلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرٌ لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ ^(٧) .

(٢) سورة النساء الآية ١٢٨ .

(٤) سورة البور الآية ٦٠ .

(٦) الكشف ج ٤ ، ص ١١٦

(١) سورة البقرة الآية ٢٦٣ .

(٣) سورة النور الآية ٢٧ .

(٥) سورة التغابن الآية ١٦ .

(٧) سورة آل عمران الآية ١٨٠ .

والكفر شر .. قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ﴾ ^(١) .

والحسد شر .. قال تعالى : ﴿ وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾ ^(٢) .

والهمال نعم الله وعدم الانتفاع بها انتفاعاً صحيحاً هو شر .. قال تعالى :
﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصَّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ ^(٣) .

* * *

أما قضية الخير والشر في الكونيات فهي نسبية ، فما قد تظنه خيراً قد يعقبه شر ، وما قد تحسبه شراً قد يتولد منه خير .. وحيث إن الإنسان قاصر عن إدراك حكمة الوجود ، وكل ما في الإنسان محدود ، سمعاً وبصراً وعقلاً ، وقوة ، فيجب التسليم لله في قضائه وقدره ، قال الله تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ^(٤) .

وقال جل شأنه : ﴿ ... وَعَاشِرُوهُمْ بِالْمَغْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُمْ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ ^(٥) .

والإيمان بسبق العلم الإلهي يمنح الإنسان سكينه نفسية وهدوءاً قلبياً وراحة بال ، وإلى ذلك أشار القرآن المجيد في قوله : ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ۚ لَكَيْلًا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ ^(٦) .

(١) سورة البينة الآية ٦ .

(٢) سورة العلق الآية ٥ .

(٣) سورة الأنفال الآية ٢٢ .

(٤) سورة البقرة الآية ٢١٦ .

(٥) سورة النساء الآية ١٩ .

(٦) سورة الحديد الآيات ٢٢ ، ٢٣ .

ومن أدب الحديث أن الشر منفرداً لا يضاف إلى الله تعالى بل إما أن يدخل في عموم الحديث كما في قوله جل شأنه : ﴿ .. وَإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلُّ مَنْ عِنْدَ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴾ (١) .

أو يذكر بحذف الفاعل كما تفتنت الجن لذلك فقالوا :

﴿ وَأَنَا لَا نَذْرِي أَشْرَ أُرِيدَ يَمَنَ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾ (٢) .

أو يضاف إلى المخلوق كما قال العبد الصالح لموسى عليه السلام في خرق السمينة ﴿ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾ ، وفي قتل الغلام ﴿ فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِمَّا زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴾ (٣) .

وحين تحدث العبد الصالح عن إقامة الجدار قال : ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا ﴾ وكما قال إبراهيم عليه السلام في معرض تعداد نعم الله عليه :

﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ * وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ * وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴾ (٤) .

فنسب الخلق والهداية والإطعام والسقيا والشفاء والإماتة والإحياء والمغفرة إلى الله عز وجل ، ونسب المرض إلى نفسه ولم يقل أمرضني !

التفسير القرآني :

القرآن المجيد يفسر بعضه بعضاً ، فالنصوص المطلقة تحمل على المقيدة ، فإذا قرأنا آيات كريمات مثل قوله تعالى :

﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (٥) .

(٢) سورة الجن الآية ١٠٠ .

(٤) سورة الشعراء الآيات ٧٨ - ٨٢ .

(١) سورة النساء الآية : ٧٨ .

(٣) سورة الكهف الآية : ٨١ .

(٥) سورة البقرة الآية ٧٠ .

﴿ .. مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا ﴾^(١) .

﴿ .. كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنِ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنِ يَشَاءُ ... ﴾^(٢) .

فإننا نفهمها في إطار آيات كريمات أخرى مثل قوله جل شأنه : ﴿ وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴾^(٣) .

﴿ فِيمَا نَقُصُّهُمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً ... ﴾^(٤) .

﴿ .. فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ... ﴾^(٥) .

وهناك في عرف البيان القرآني التيسير لليسرى والتيسير للعسرى ، وهما مرتبان على ما يبدأ به الإنسان في نطاق التكليف الشرعي وما يختار لنفسه ، قال الله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى ﴾^(٦) .

وقد حاول البعض انتزاع آيات من سياقها وصرفها عن حقيقة مرادها ، فقالوا إن قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾^(٧) صريح في خلق الله لعمل الإنسان ، وإن قوله تعالى : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ﴾^(٨) صريح في نفي نسبة العمل إلى الإنسان .

والأمر بخلاف ذلك ، فإن لفظ « ما » في قوله : ﴿ وما تعملون ﴾ موصولة : أى والذي تعملونه ، فإبراهيم عليه السلام يحتج على قومه بأن الله تعالى خلقهم وخلق المنحوت شجراً كان أو حجراً ، فكيف يعبدونه من دون الله بعد أن عملوه صنماً واتخذوه إلهاً ، ولا يعقل أن تكون « ما » مصدرية : أى وعملكم لأنه يؤدي

(١) سورة الكهف الآية : ١٧ .

(٢) سورة المدثر الآية : ٣١ .

(٣) سورة البقرة الآية : ٢٦ .

(٤) سورة المائدة الآية : ١٣ .

(٥) سورة الصف الآية : ٥ .

(٦) سورة الليل الآيات ٤ - ١٠ .

(٧) سورة الصافات الآية ٩٦ .

(٨) سورة الأفعال الآية . ١٧ .

إلى بطلان الاحتجاج عليهم .. فكيف ينكر عليهم ما خلقه الله ١٩
وقد اعترف الإمام الرازى فى تفسيره بأن الآية لا تصلح للاستدلال على خلق
الأعمال والأولى ترك الاستدلال بها لما يلى :

١ - أنه تعالى قال : ﴿ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴾ أضاف العبادة والنحت إليهم
إضافة الفعل إلى الفاعل ، ولو كان ذلك واقعاً بتخليق الله لاستحال كونه فعلاً
للعبد .

٢ - أنه تعالى إنما ذكر هذه الآية توبيخاً لهم على عبادة الأصنام ، لأنه تعالى
بين أنه خالقهم وخالق تلك الأصنام ، والخالق هو المستحق للعبادة دون المخلوق ،
فلما تركوا عبادته سبحانه وهو خالقهم وعبدوا الأصنام ، لا جرم أنه سبحانه وتعالى
ويخبرهم على هذا الخطأ العظيم ، فقال : ﴿ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ
وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ .

ولو لم يكونوا فاعلين لأفعالهم لما جاز توبيخهم عليها .

٣ - لئن سلمنا أن لفظة « ما » مع ما بعدها فى تقدير المصدر لكنه قد يكون
بمعنى المفعول بدليل قوله تعالى ﴿ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴾ فالمراد بقوله
﴿ مَا تَنْحِتُونَ ﴾ المنحوت لا النحت ، لأنهم ما عبدوا النحت وإنما عبدوا المنحوت ،
فوجب أن يكون المراد بقوله ﴿ مَا تَعْمَلُونَ ﴾ المعمول لا العمل حتى يكون كل
واحد من هذين اللفظين على وفق الآخر ^(١) .

وفى مسألة الرمى فإن الله تعالى أثبت الرمى لنبيه ﷺ فى قوله : ﴿ إِذْ
رَمَيْتَ ﴾ فعلم أن الرمى المنفى غير الرمى المثبت ، ذلك أن الرمى له ابتداء وانتهاء ،
فالنبي ﷺ قد بدأ الرمى لكن إصابته للهدف موقوفة على عوامل كثيرة ، الله
صانعها وخالقها ولا دخل للرامى بها ، فالإنسان يسعى ويتخذ الأسباب ويدع
العواقب لله أحكم الحاكمين .

* * *

(١) التفسير الكبير ، ج ٢ ، ص ١٤٩ .

خاتمة

قدمنا - بحمد الله تعالى - الإلهيات في العقيدة الإسلامية انطلاقاً من وجود الله تعالى وتوحيده ، ومروراً بالأسماء الحسنى والصفات العلا ، وانتهاءً برؤية الله جل شأنه وقضائه وقدره ..

ووقفنا مع القارئ الكريم أمام بحوث ودراسات تغلغلت في كافة الفرق الإسلامية ، وناقشت مذاهب وأدياناً شتى .
وكان رائدنا البحث عن الحقيقة في مسالك هؤلاء وأولئك ، والتزمنا أمانة العرض ، وحسن الجدل ، ويسر الكلمة ..
وآثرنا الدعوة إلى التقارب بين المسلمين الذين تجمعهم عقيدة التوحيد وأصول الدين ، وضوابط التفكير السوى مهما كانت اتجاهاتهم المذهبية ..
والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ..

* * *

المؤلف في سطور

دكتور محمد سيد أحمد المسير .

- أستاذ العقيدة والفلسفة بكلية أصول الدين - جامعة الأزهر بالقاهرة .
- عمل أستاذًا مشاركًا ، ثم رئيساً لقسم اللغة العربية والدراسات الإسلامية في كلية التربية - فرع جامعة الملك عبد العزيز بالمدينة المنورة ١٩٨٣ - ١٩٨٧ م .
- أغير أستاذًا في كلية الدعوة وأصول الدين - جامعة أم القرى بمكة المكرمة من سنة ١٩٩٣ - ١٩٩٨ م .
- شارك في عضوية المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بوزارة الأوقاف .
- شارك في عضوية جمعية الدراسات الإسلامية بالزمالك .
- يشارك في عضوية الجمعية الفلسفية المصرية .
- يكتب المقالات في المجلات والصحف الإسلامية في مصر والعالم الإسلامي .
- يشارك في البرامج الدينية الإذاعية والتلفزيونية لمصر والعالم الإسلامي .
- كان الأول على طلاب الجمهورية في الشهادة الإعدادية الأزهرية عام ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤ م ، من معهد شبين الكوم .
- كان السادس عشر على طلاب الجمهورية في الثانوية الأزهرية عام ١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ م ، وكانت المرحلة الثانوية يومئذ خمس سنوات .
- حصل على تقدير ممتاز مع مرتبة الشرف في الشهادة العالية من قسم العقيدة والفلسفة بكلية أصول الدين بالقاهرة عام ١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣ م .
- حصل على الدكتوراة بمرتبة الشرف الأولى من جامعة الأزهر عام ١٣٩٨ هـ - ١٩٨٧ م .

- شارك في المؤتمرات والملتقيات الفكرية مثل :

- * المؤتمر الحادى عشر لمجمع البحوث الإسلامية بالأزهر في رجب ١٤٠٨ هـ .
- * ندوة الفقه الإسلامى فى سلطنة عمان فى شعبان ١٤٠٨ هـ .

- * الموسم الثقافي لشهر رمضان في دولة الكويت ١٤٠٩ هـ .
- * الندوة القومية لمواجهة الدس الشعوبى فى بغداد من ٢٢ - ٢٤ لشهر جمادى الأولى ١٤١٠ هـ .
- * المؤتمر الإسلامى العالمى لمانصرة العراق المنعقد فى بغداد فى شهر ذى القعدة ١٤١٠ هـ (قبل الغزو) .
- * المؤتمر القومى الذى نظمه المركز العربى للإعلام بالقاهرة تحت عنوان « الإدمان قضية العصر » من ١٨ - ٢٠ من فبراير ١٩٩٠ م .
- * المؤتمر الإسلامى العالمى لمناقشة أزمة الخليج الذى نظمته رابطة العالم الإسلامى بمكة المكرمة من ٢١ - ٢٣ من صفر ١٤١١ هـ .
- * الندوة العالمية لمناقشة حقوق الإنسان بين الإسلام والغرب فى طهران بتاريخ ٩ - ١٢ من سبتمبر ١٩٩١ م .
- * المهرجان الإسلامى العالمى فى الكويت للإفراج عن الأسرى والمحتجزين فى سجون العراق من ١٩ - ٢١ يناير ١٩٩٢ م .
- * الموسم الثقافي لشهر رمضان فى دولة الإمارات العربية المتحدة ١٤١٢ هـ .
- * ندوة الإعلام الإسلامى بين تحديات الواقع وطموحات المستقبل ، التى نظمتها مؤسسة إقرأ الخيرية بالتعاون مع جامعة الأزهر فى ذى القعدة ١٤١٢ هـ - مايو ١٩٩٢ م .
- * سافر مع وزير الأوقاف المصرى ضمن وفد رسمى لزيارة دول الكومنولث الإسلامية بتاريخ ١٣ - ٢٥ سبتمبر ١٩٩٢ م .
- * المؤتمر الثانى عشر لمجمع البحوث الإسلامية بالأزهر من ٢ - ٥ لشهر جمادى الأولى سنة ١٤١٣ هـ .
- * مؤتمر التوجيه الإسلامى للعلوم الذى نظمته رابطة الجامعات الإسلامية بالاشتراك مع جامعة الأزهر سنة ١٤١٣ هـ .
- * الندوة العلمية « فى قلب الشرق : قراءة معاصرة لأعمال لوى ماسنيون » ، التى نظمها قسم الفلسفة بكلية الآداب - جامعة القاهرة مع المركز الفرنسى للثقافة والتعاون يومى ١٤ ، ١٥ / ٣ / ١٩٩٩ م .
- * المؤتمر الدولى الرابع للفلسفة الإسلامية فى كلية دار العلوم - جامعة القاهرة ، تحت عنوان « الإسلام فى عصر العولمة » بتاريخ ١٨ ، ١٩ من المحرم ١٤٢٠ هـ - ٤ ، ٥ من مايو ١٩٩٩ م .

كتب للمؤلف

فى العقيدة :

- ١ - فى نور العقيدة الإسلامية .
- ٢ - أدب الحديث عن الله .
- ٣ - علم التوحيد للشهادة الإعدادية الأزهرية .
- ٤ - التمهيد فى دراسة العقيدة الإسلامية .
- ٥ - الإلهيات فى العقيدة الإسلامية .

فى الفلسفة :

- ٦ - الروح فى دراسات المتكلمين والفلاسفة .
- ٧ - المجتمع المتالى فى الفكر الفلسفى وموقف الإسلام منه .

فى الأديان :

- ٨ - المدخل لدراسة الأديان .
- ٩ - أصول النصرانية فى الميزان .
- ١٠ - أوروبا والنصرانية .
- ١١ - المسيح ورسالته فى القرآن .
- ١٢ - عبادة الشيطان فى البيان القرآنى والتاريخ الإنسانى .

فى الفرق الإسلامية :

- ١٣ - قضية التكفير فى الفكر الإسلامى .
- ١٤ - الحوار بين الجماعات الإسلامية .
- ١٥ - مقدمة فى دراسة الفرق الإسلامية .

فى السيرة النبوية :

- ١٦ - الرسول فى رمضان .
- ١٧ - الرسول حول الكعبة .
- ١٨ - الرسول والوحى .

- ١٩ - الرسول وقضايا المجتمع .
- ٢٠ - الرسول والمواقفات .

في الشريعة الإسلامية :

- ٢١ - محاورة تطبيق الشريعة .
- ٢٢ - نحو دستور إسلامي .
- ٢٣ - أخلاق الأسرة المسلمة .

تحقيق مؤلفات فضيلة الدكتور سيد أحمد رمضان المسير - رحمه الله تعالى :

- ٢٤ - السنة مع القرآن .
- ٢٥ - السنة المطهرة .
- ٢٦ - إلزام القرآن للماديين والمليين .
- ٢٧ - دراسات قرآنية .

فهرس الكتاب

٣	مقدمة
٩	الفصل الأول : وجود الله تعالى وتوحيده
١١	* المبحث الأول : آيات الأنفس والآفاق
١٥	١ - أطوار الجنين
١٦	٢ - أطوار حياة الإنسان
١٧	٣ - آية الليل والنهار
١٨	٤ - آية الشمس والقمر
١٩	٥ - آية النوم
٢١	٦ - آية الدواب والطيور
٢٥	٧ - آية الأرض
٢٧	٨ - نعمة الماء
٣١	٩ - الجبال الراسيات
٣٣	* المبحث الثاني : الإيمان ضرورة حياة
٣٥	- الإيمان ضرورة علمية
٣٥	١ - كوبرنيكوس
٣٥	٢ - برونو
٣٦	٣ - جاليليو

الموضوع	الصفحة
- الإيمان ضرورة نفسية ..	٤١
- الإيمان ضرورة أخلاقية ..	٤٥
- الإيمان ضرورة تاريخية ..	٤٨
- تنبيه وتقدير	٥١
* المبحث الثالث : توحيد الله تعالى	٥٣
- الوحدانية في الإسلام ..	٥٥
- المخالفون في الوحدانية ..	٥٩
١ - اليهود	٥٩
٢ - النصارى	٦٠
٣ - المجوس	٦١
٤ - عبدة الأصنام	٦٢
٥ - الصابئة	٦٢
٦ - القائلون بالحلول والاتحاد	٦٤
- دلائل التوحيد في سورة البقرة	٦٥
١ - فضل سورة البقرة	٦٥
٢ - إبداع الصنع	٦٦
٣ - انفراد السلطان	٦٧
٤ - وحدة المعبود الحق	٦٩
٥ - التفرد بصفات الجلال والكمال	٧١
٦ - حوار في الله ومع الله	٧٢

الموضوع	الصفحة
٧ - أحدية الله فى الخلق والجزاء ...	٧٤
* المبحث الرابع : جدال فى الله	٧٧
- أهمية الجدل ..	٧٩
- أنواع الجدل ..	٨١
- دليل الحدوث ..	٨٣
- اعتراض الفلاسفة الإسلاميين ..	٨٧
١ - قضية الجوهر القرد ..	٨٨
٢ - قضية التسلسل ...	٨٩
٣ - الإرادة والقدرة الإلهيتان	٩٠
- دليل الإمكان ..	٩٢
- إشارات ابن سينا ..	٩٣
- دليل التوارد والتمانع ..	٩٦
- الوسوسة ..	٩٩
الفصل الثانى : الأسماء والصفات	١٠٣
- أهمية الأسماء والصفات ..	١٠٥
- بين التقييد والإطلاق ..	١٠٨
- اسم الله الأعظم	١١٤
- بين الاختصاص والعموم ..	١١٩
- جماع المعانى ..	١٢١
- الصفات الإلهية بين العقل والنقل ..	١٢٤
	٢٤٩

الموضوع	الصفحة
- الصفات العقلية ..	١٢٤
- وأخر متشابهات ..	١٢٧
١ - التفويض	١٢٧
٢ - التشبيه	١٣١
٣ - التأويل	١٣٣
٤ - الإثبات بضوابط	١٣٨
- نموذج تطبيقي	١٤٠
- تعقيب ورأى ..	١٤٢
١ - حكمة المتشابه	١٤٢
٢ - نبذ التشبيه	١٤٤
٣ - حرية الاختيار	١٤٥
٤ - وجهة نظر ..	١٤٥
الفصل الثالث : رؤية الله تعالى	١٤٩
- تمهيد	١٥١
- مذاهب العلماء	١٥٢
- النصوص القرآنية في الرؤية	١٥٦
١ - سؤال بنى إسرائيل ..	١٥٦
(أ) موقف المعتزلة	١٥٦
(ب) موقف أهل السنة	١٥٧
٢ - نفى إدراك الأبصار ...	١٥٧

الموضوع	الصفحة
(أ) موقف المعتزلة	١٥٨ .
(ب) موقف أهل السنة	١٥٨
٣ - موسى عليه السلام فى الميقات	١٥٩ . ..
(أ) استدلال المعتزلة	١٦٠ . .
(ب) استدلال أهل السنة	١٦١
٤ - لقاء الله تعالى	١٦٣ .
(أ) موقف المعتزلة	١٦٣
(ب) موقف أهل السنة	١٦٤
٥ - الحسنى وزيادة ..	١٦٤
(أ) موقف المعتزلة	١٦٥
(ب) موقف أهل السنة	١٦٥
٦ - النظر إلى الله تعالى .	١٦٦
(أ) تفسير المعتزلة	١٦٦
(ب) تفسير أهل السنة	١٦٨
٧ - الملك الكبير	١٦٨ ..
٨ - المحجوبون عن الله	١٧٠
(أ) موقف المعتزلة	١٧٠
(ب) موقف أهل السنة	١٧١
- أحاديث الرؤية	١٧٢
- ولنا تعقيب	١٧٤

الموضوع	الصفحة
١ - صلاح المعرفة	١٧٤
٢ - خلاف لفظي	١٧٦
٣ - بعيد عن الأصول	١٧٧
- على هامش الرؤية	١٧٩
١ - الرؤية في الدنيا	١٧٩
(أ) موقف السيدة عائشة	١٧٩
(ب) مذهب ابن عباس	١٨٤
٢ - رؤية الله تعالى مناماً	١٨٦
٣ - أنواع الرؤية	١٩٠
الفصل الرابع : القضاء والقدر	١٩٣
- القضاء في البيان القرآني	١٩٥
- القدر في البيان القرآني	١٩٥
- الإيمان بالقضاء والقدر	٢٠٢
- النشأة التاريخية	٢٠٥
١ - موقف المشركين	٢٠٥
٢ - موقف المتناقضين	٢٠٦
٣ - موقف الصحابة	٢٠٨
- نظرة مذهبية	٢١٢
١ - محل النزاع	٢١٢
٢ - الجبرية	٢١٢

الموضوع	الصفحة
٣ - القدرية .	٢١٣
٤ - المعتزلة	٢١٤
٥ - الأشاعرة	٢١٦
- جدل مذهبي ..	٢١٨
- بعيداً عن المذاهب	٢٢٣
١ - الجبر مرفوض	٢٢٣
٢ - الأمر مقدور	٢٢٤
٣ - مسير ومخير	٢٢٥
٤ - الكوني والشرعي	٢٢٦
٥ - الخير والشر ...	٢٣٠
٦ - التفسير القرآني .	٢٣٣
خاتمة	٢٣٦
المؤلف في سطور	٢٣٧
كتب للمؤلف ..	٢٣٩
الفهرس	٢٤١

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ١٠٤٢٦ / ٩٩ م

دار الناصر للطباعة والإبـطاعة
٢ - شـتـايـع شـتـايـع شـتـايـع
الرقم البريدي - ١١٢٣١

دار الأحياء
للطباعة والنشر والتوزيع
٨ شارع حسين حجازي - القاهرة
هاتف: ٣٥٥١٧٤٨ - ٣٥٤٤٧٤٨ - فاكس: ٣٥٤٦٠٣١
ص.ب. ٤٧٠ - القاهرة - الرمز البريدي ١١٥١١



0163558

To: www.al-mostafa.com